السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ

فى

ضَوْءِ الْكِتَابِ والسُّنَّةِ

الجزء الأول

بقلم الدكتور
عبد المهدى بن عبد القادر بن عبد الهادى
أستاذ الحديث بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر

١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م

السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ

فى

ضَوْءِ الْكِتَابِ والسُّنَّةِ

الجزء الأول

بقلم الدكتور

عبد المهدى بن عبد القادر بن عبد الهادى

أستاذ الحديث بكلية أصول الدين

جامعة الأزهر

١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمدا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم وعلي آله وأصحابه ، وكل من اهتدى بهديه ، وسلك طريقهم إلى يوم الدين .

وبعـد

فسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحواله وما كان عليه صلى الله عليه وسلم ، تُعَرِّف المسلم كل ما يتصل برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتبين له منهجه صلى الله عليه وسلم فى كل أمور الحياة ، إنه يجد فيها هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عبادته ربه ، وهديه فى تعامله مع الخلق ، وما حلاه الله به من كريم الأخلاق ، وما حباه به ربه من جميل الصفات .

وهى سيرة مَنْ اصطفاه الله ، وأرسله للعالمين ، عَصَمَهُ من كل رذيلة وشين وكمّله بكل فضيلة وزين ، فلا يفعل باطلا ، ولا يقول إلا حقا ، كلامه صدق ، وفعله حق ، وخلقه كريم ، وخَلْقه جميل وسيم . مجتهد فى طاعة ربه ، ملتزم أمر خالقه ، محسن إلى عباد الله ، نال من الأخلاق معاليها، ومن القدرات قممها ، وهو مع ذلك على أكمل ما يكون البشر تواضعاً ، وعلى خير ما يكون الناس حلما.

انها سيرة من امتثل دين الله على أكمل ما يكون ، فكان الصورة العملية للإسلام ، يبدأ بنفسه بشدة ، ويعلّم غيره بحكمة ، يتسامح فى حقوق نفسه ، ولا يقبل أن تنتهك حرمة من حرمات الله ، ما علّم الناس خلقا إلا طبقّه أولاً ، وما دعاهم الى فضيلة إلا وسبقهم إليها ، لم يخالف فعله قوله ، ولا داخلُه خارجه ، أحبه القريبون منه أكثر من البعيدين عنه ، أحبه أصحابه أكثر من أنفسهم ، وفَدْوه بأرواحهم وكل مالهم .

وسيرته سبيل الاقتداء به صلى الله عليه وسلم ، فمن أراد أن يسير على هديه صلى الله عليه وسلم فعليه بسيرته صلى الله عليه وسلم يعرف منها منهجه وما سار عليه ، ومعرفة هديه صلى الله عليه وسلم سعادة ، فهديه الحق الأبلج ، وفطر الناس تسعد بمعرفة الحق . ومعرفة هديه سبيل اتباعه صلى الله عليه وسلم والاقتداء به ، واتباعه والاقتداء به واجب ، أوجبه ربنا تبارك وتعالى فى كثير من آيات القرآن الكريم ، من ذلك قوله تعالى « قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول [١] » .

وقوله عز وجل « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا [٢] » .

وقوله سبحانه تعالى « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم [٣] »

فوجب على كل مسلم أن يعرف هديه صلى الله عليه وسلم ، ويدرس سيرته وسنته ليقتدى به صلى الله عليه وسلم فى كل ما بيّن لنا عن الله تبارك وتعالى .

ولمنزلة السيرة العظيمة هذه اهتم العلماء بها قديماً وحديثاً ، اهتموا بها تدريسا وتأليفا ، فشاعت دراستها ، وكثرت المؤلفات فيها ، فلكل عصر ما يناسبه فى التأليف ، يُكتب له بأسلوبه ويُراعِى المؤلف حاجة أهل عصره ، ومنهجهم الفكرى . ومن هنا أقدم كتابى هذا ، وقد حرصت فيه على :

١- جمع عناصر الموضوع من شتى العلوم ، فلم أقتصر على كتب السيرة ، وإنما درست الموضوع من القرآن الكريم ومن السنة النبوية ، ومن كتب السيرة ، ومن غير ذلك من مراجع .

---

(١) جزء من الآية ٥٤ من سورة النور .
(٢) جزء من الآية رقم ٧ من سورة الحشر .
(٣) آية ٣١ من سورة آل عمران .

وحينما أذكر الآية من القرآن الكريم أذكر سورتها ، ورقمها فى هذه السورة وحينما أذكر الحديث من السنة النبوية فإنى أذكر مصدره وموضعه فى هذا المصدر، فأذكر من أخرجه من أئمة السنة فى كتابه ، وأبين موضعه فى هذا الكتاب ، وفى هذا أُفَصِّل تفصيلاً يسهل معه أن يراجع القارىء الحديث فى كتب السنة إذا شاء ، وإذا كان الحديث صحيحاً أو حسنا سكت ، أما إذا كان فيه ضعف فإنى أبين ذلك . ومن الضعيف ما يقبل في السيرة ، وهذا ذكرت منه بعضا ، أما الضعيف الذى اشتد ضعفه فهذا لا يقبل فى السيرة ولا فى غيرها ، وهذا ابتعدت عنه، فلم أذكره إلا لبيان حاله ، إذا خشيت التباس أمره على القارىء .

ولقد بذلت جهدى فى تخريج الأحاديث والحكم عليها ، حتى صار كتابي هذا كتاب تخريج للأحاديث المتعلقة بسيرته صلى الله عليه وسلم .

وإنما اجتهدت فى جمع السيرة من القرآن الكريم والسنة النبوية لما لهما من منزلة فى الثبوت لم يصلها علم آخر ، ولأن فى القرآن الكريم والسنة النبوية ما لا يستغنى عنه كاتب فى سيرته صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان علماء السير قديما قد جمعوا واجتهدوا فى الجمع فلعل عدم ذكرهم آيات الموضوع من القرآن الكريم سببه اعتمادهم على حفظ الأمة القرآن الكريم ، فلقد كان حفظ القرآن فى عصرهم أكثر من عصرنا ، فمن هنا اجتهدت فى ذكر آيات الموضوع ، فكانت الضوء اللامع ، والسراج الهادى . وثنيت بذكر أحاديثه صلى الله عليه وسلم وهي فى ثبوتها وإيجازها ووضوحها كالبدر فى ليلة التمام ، ثم أخذت من أقوال علماء السير القليل ، مشترطاً فيه أن يكون ثابتا صحيحا .

٢- عرض القضية العلمية بأسلوب يناسب أهل العصر ، يتسم بسهولة التعبير فى غير ما ركاكة ووضوح الفكرة فى غير ما إطناب .

٣- التدقيق فى المسألة حتى يستبين الصواب وتتضح قوة أدلته ، وإذا وجدت المقام يحتاج استعراض الأدلة استعرضتها ، وإذا رأيت أنه لايحتاج اكتفيت بذكر الصواب فى المسألة .

٤- إظهار الدروس والعبر التى يشتمل عليها الموضوع ، فسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تدرس لاستفادة الدروس والعبر منها ، إنها ليست تاريخا تروى أحداثه وكفى ، وإنما هى هَدْى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان قوله وحيا ، وفعله تشريعا فعلى القارىء أن يحرص على ما يؤخذ منها من دروس ، وقد حرصت على بيان ذلك لفتا للذهن ، وحتى يستطيع القارىء أن يعرف منهج الاستنباط ، فإنه اذا عرف ذلك أمكنه أن يستنبط وأن يعرف الفائدة التى يشتمل عليها الموضوع .

وأسأل الله تبارك وتعالى أن يوفقنى ، وأن يرزقنى القبول ، وأن ينفع القارىء والسامع ، إنه الله نعم المولى ونعم النصير .

﴿ وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾

عبد المهدى

زهراء حلوان

صفر سنه ١٤٠٨

سبتمبر سنة ١٩٨٧

* مقدمــات

* تعريف علم السيرة .
* فوائد دراسة السيرة .
* أشهر المؤلفات فى السيرة .
* حالة العالم قبل بعثته صلى الله عليه وسلم .

بسم الله الرحمن الرحيم
علم السيرة

علم السيرة :-

هو ذاك العلم الذى تدرس فيه أنباء النبى صلى الله عليه وسلم . من مولده - والذى يستلزم التعريف بأصوله صلى الله عليه وسلم وأجداده وما كان لهم من مكانة فى قومهم - ونشأته ، وبعثته - والذى يستلزم ذكر الإرهاصات التى سبقت البعثة - وما آتاه الله من معجزات ، وموقف قومه من الدعوة ، وموقفه منهم ، وأساليبه صلى الله عليه وسلم فى الدعوة ، ومنهجه فى حياته صلى الله عليه وسلم ، وأخبار المسلمين الأوائل ، وبيان مالقيه هؤلاء ، وهجرته صلي الله عليه وسلم من بلد الله الحرام «مكة» إلى المدينة المنورة ، وجهاده فى سبيل نشر الدين الذى بعث به ، وأخبار أصحابه الذين شاركوا فى هذا الجهاد ، وأخبار غزواته ومعاركه ووفاته صلى الله عليه وسلم .

فوائد دراسة علم السيرة :

الغرض من الكتابة فى هذا الموضوع ، أن أنبه القارىء إلى أنه إذا قرأ موقفا فى علم السيرة النبوية فلينقله من كلام مقروء إلى واقع ملموس ، وأن يفكر كيف يستفيد من الموقف ، يستفيد منه فى عقيدته ، أو فى تدريسه العقيدة ، يستفيد منه فى عبادته لله سبحانه وتعالى ، يستفيد منه فى خُلقه وأدبه وربما أمكنه أن يستفيد من الموقف الواحد فى عدة نواح .

وأسوق لك مثالا ثم أبين منه كيف نستفيد منه فى عقيدتنا وكيف نستفيد منه فى تدريس العقيدة وهذا المثال فى الحديث الآتى :-

عن زيد بن خالد الجهنى قال : " صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية فى إثر سماء[1] كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس

---

(١) السماء يعنى المطر . ومعنى " فى إثر سماء" أى بعد المطر .

فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال :قال أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأمامن قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا [1] فذ لك كافر بى مؤمن بالكوكب [2] » .

ففى عقيدتنا نستفيد أنه مامن نعمة إلا من الله سبحانه وتعالى ، كما قال سبحانه « وما بكم من نعمة فمن الله [3] » وأن النعم إذا اقترنت بسبب فالمؤمن يؤمن بأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يسبب السبب ، وهو الذى جعل النعمة تأتى منه ، فإذا جاء الشفاء مع الدواء فالشافى هو الله سبحانه وتعالى وليس الدواء ، فهو سبحانه الذى خلق الدواء وأعطاه خاصية التأثير ، وهو الذى وفق الشخص الذى صنع الدواء ، والذى وصف الدواء ، ثم هو سبحانه الذى مَنّ بالشفاء موافقاً للدواء ، وكان يمكن لو أنه سبحانه لايريد الشفاء أن لا يأتى الشفاء مع هذا الدواء .

فعلى المؤمن أن يجدد إيمانه بدراسة هذا القدر من سيرته صلى الله عليه وسلم وأن يذكّر نفسه أن كل النعم من الله سبحانه وتعالى .

ونستفيد من هذا الحديث فى دراستنا للعقيدة أن علينا أن نصحح للمسلمين نظرتهم للأسباب وأن نذكرهم بهذا الحديث الذى يبين أن المنعم هو سبحانه وتعالى .

وانظر إلى هديه صلى الله عليه وسلم فى علاج مسألة عقدية فى غاية الأهمية إنه لم يثر، إنه لم يتكلم بأسلوب معقد ، إنه لم يكثر الكلام ، وإنما أخبرهم بأن من اعتقد أن النعمة من الله فهو مؤمن شاكر ومن اعتقد أنها بسبب ظهور كوكب كذا أو كذا فهو جاحد كافر مما يستفيد منه الداعى إلى الله سبحانه :-

---

(١) أى بظهور كوكب كذا وكذا .

(٢) أخرجه مسلم فى الإيمان - باب بيان كفر من قال مصرنا بالنوء ٨٣/١ رقم ١٢٥. (٧١) .

(٣) آية ٥٣ من سورة النحل .

١- عليه أن لا ينفعل وإن كان المنكر مغضبا ، ذلك أن الانفعال يباعد بينك وبين من أمامك كما أنه - أى الانفعال يغلق عليك فكرك فاحرص على الهدوء ما أمكن .

٢- عليه أن يبحث عن أوجز الكلام الذى يؤدى الغرض ولاداعى لكثرة الكلام مادام القليل يمكن أن يؤدى نفس الغرض .

٣- على الداعى أن يختار الأسلوب الأمثل لمعالجة الموقف الذى أمامه .

أرأيت كيف نستفيد من سيرته صلي الله عليه وسلم فى عقيدتنا وتدريسنا ودعوتنا إلى الله سبحانه ؟ فهكذا تكون دراستنالسيرته صلى الله عليه وسلم وهاقد آن أوان الشروع فى بيان فوائد علم السيرة فأقول وبالله التوفيق :-

١- دراسة السيرة تمكننا من اتباعه صلى الله عليه وسلم ، والاقتداء به ، ذلك أنه بدارسة علم السيرة يستطيع الإنسان أن يعرف منهجه صلى الله عليه وسلم الذى سار عليه فيستطيع الاتباع والاقتداء ، ومن لم يدرس السيرة لم يعرف منهجه صلى الله عليه وسلم فلا يستطيع الاتباع .

وقد بين الله سبحانه وتعالى منزلة اتباعه صلى الله عليه وسلم وما يترتب عليه من مثوبة فقال سبحانه « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لايحب الكافرين (١) .

أخرج ابن جرير الطبرى عن الحسن البصرى قال قال أقوام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يا محمد إنا لنحب ربنا فأنزل الله عزوجل بذلك قرآنا «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفرلكم ذنوبكم » فجعل الله اتباع نبيه محمد صلى الله عليه وسلم علماً (٢) لحبه وعذاب من خالفه (٣) . وبين

---

(١) سورة آل عمران آية ٣١ ، ٣٢ .

(٢) دليلاً

(٣) تفسير الطبرى ٣ /٢٣٢ - والحديث من مراسيل الحسن وللطبرى عليه كلام فى نهاية تفسير الآية - ص٢٣٣.

سبحانه أن سبيل الاستقامة إنما هو فى الاقتداء به صلى الله عليه وسلم فقال سبحانه « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » (١)

وسيرته صلى الله عليه وسلم تأخذ مكانتها من أنها سيرة من عصمه الله فلا يفعل ولا يقول إلا مايرضى الله سبحانه وتعالى ، إنها سيرة رسول مصطفى ونبى مجتبى إنها تختلف عن قصة حياة أى شخص آخر كل الاختلاف بل لاتقع المقارنة ورضى الله عن عمر بن الخطاب إذ يقول على المنبر « ياأيها الناس إن الرأى إنما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم مصيبا لان الله جل وعز كان يريه وإنما هو منا الظن والتكلف (٢) » .

شمول سيرته صلى الله عليه وسلم :

وسيرته صلى الله عليه وسلم شاملة نواحى الحياة ، وذلك أن الله سبحانه أرسل للبشرية رسولا منهم ، يرسم لهم المنهج المستقيم فى كل شئ ، فهو يأكل ويشرب ، ينام ويستيقظ فليقتدوا به فى كل ماكان منه ، وحينما يترتب على صفة الرسالة أمر فوق طاقة البشر العاديين ، فإنه صلى الله عليه وسلم يفعل مافى طاقة البشر تشريعا ، ولا تظهر قدراته كرسول ، فمثلاكان صلى الله عليه وسلم يستطيع الصيام أياما متصلة فى السفر والحضر ، لكنه فى السفر أفطر ، ليشرع للأمة الفطر فى السفر ، ونهاهم عن الوصال فى الحضر ونبههم إلى أن هذا من خصوصياته ، فليس شرعا للأمة ، ولا يجوز لها أن تجاريه فيه ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوصال ، قالوا

---

(١) سورة الاحزاب آية ٢١ .

(٢) أخرجه البيهقى فى المدخل باب مايذكر من ذم الرأى ص ١٨٩ رقم ٢١٠ وقول عمر لأن الله تعالى كان يريه يشير بذلك إلى قول الله سبحانه :
« إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » الآية رقم ١٠٥ من سورة النساء .

فإنك تواصل ، قال : أيكم مثلى ؟ إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقين . فلما أبوا أن ينتهوا واصل بهم يوما ثم يوما ، ثم رأوا الهلال ، فقال : لو تأخر لزدتكم ، كالمنكل لهم » [1] .

فهو رسول بشر ، يفعل كل ما به حياة البشر ، بيد أنه يفعل ما يتفق والخلق الكريم ، فليس هناك حاجة للبشر إلا واحتاج إليها صلى الله عليه وسلم فلننظر كيف قضاها ، ثم لنقتد به فيها ، فلننم كما نام ، ولنأكل كما كان يأكل ، ولنشرب كما كان يشرب ، ولنلبس كما كان يلبس ، ولنذهب إلى الأسواق كما كان يذهب ، ولنحارب كما حارب .

ومجمل القول أنه سلك الحياة بكل حاجاتها ومقتضياتها ، فلنكن كما كان ، ولقد لاحظ أعداء الاسلام - مثل أحبائه - عموم منهجه صلى الله عليه وسلم ، فانظر إلى حديث سلمان الفارسى ، وقد قال له مشرك قد علمكم نبيكم كل شئ حتى الخراءة ؟ فقال سلمان : أجل [2] لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول ، أوأن نستنجى باليمين ، أو أن نستنجى بأقل من ثلاثة أحجار ، أو أن نستنجى برجيع أو بعظم [3] " ومن قول هذا المشرك لقد علمكم نبيكم كل شيء يتضح مدى مراقبة هؤلاء للمنهج النبوى ومعرفتهم بشموله .

٢- دراسه سيرته صلى الله عليه وسلم تأخذ بيدنا إلى طاعة الله ورضوانه ، وذلك أن دارس السيرة يعرف منهجه صلى الله عليه وسلم ، فيعرف المثالية فى العبادة ، فيحرص على بلوغها ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، إن دارس السيرة عرف الحق وعرف الباطل ، فيحرص على الحق كل الحرص ، وينأى بنفسه عن الباطل كل نأى ، وإذا وجد نفسه لم يبلغ المثالية الكاملة حرص على بلوغ الكمال،

---

(١) أخرجه البخارى فى التمنى باب مايجوز من اللو - قول لو كان كذا - ١٣ / ٢٢٤ رقم ٧٢٤٢ .

(٢) نعم .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الطهارة باب الاستطابة ١ / ٥٤٦ طبعة الشعب بشرح النووى .

والحواس لها تأثيرها ، فجليس الصالح ينمو فيه جانب الصلاح كما فى الحديث « خيار عباد الله الذين إذا رؤوا ذكر الله [1] " فإذا كان الأمر كذلك فى رؤية الصالحين فكيف بجليس سيرته صلى الله عليه وسلم ؟ بعيد كل البعد أن تقرأ عن حرصه صلى الله عليه وسلم على فضيلة ثم تتركها ، فإذا قرأت عن كثرة إستغفاره فإنك ستكثر من الاستغفار ، وإذا قرأت عن صلاته بالليل فإنك ستحرص على صلاة الليل ، وهكذا فدراسة سيرته صلى الله عليه وسلم تأخذ بيدنا إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى .

وفى عصرنا الحاضر نحن فى أشد الحاجة لدراسة السيرة من أجل هذه الفائدة ، من أجل أن نعرف المثالية الاسلامية ، من أجل أن نعيش مع هديه صلى الله عليه وسلم ، نتعلم ونعمل ، إن غرق مجتمع اليوم فى الماديات غيّر القيم والموازين عندهم ، فهم بحاجة إلى دراسة السيرة ، تأخذ بيدهم إلى معرفة الصراط المستقيم، وتعرفهم الكمال ، فإن من يجهل الكمال الاسلامى يحسب النقص كمالا .

٣ - دراسة سيرته صلى الله عليه وسلم تعرفنا الكمال الانسانى ، ومعرفة الكمال متعة ، فالقراءة عن الأخلاق الكريمة فيها متعة وإثراء للمثالية ، وسيرته صلى الله عليه وسلم هى مكارم الأخلاق ، فيها المثالية الحقة والكمال الانسانى ، إن من يقرأ عن حبه صلى الله عليه وسلم لربه ، وحرصه على طاعته ، وتفانيه فى ذلك يسعد كثيرا ، ومن يقرأعن أخلاقة صلى الله عليه وسلم يسعد ويسعد ، فأخلاقه هى أسمى ما يتمنى البشر ، فانظرا إليه فى حلمه وصفحه كما يوضحه حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أنه غزا مع النبى صلى الله عليه وسلم فأدركتهم القائلة فى واد كثير العضاة فتفرق الناس فى العضاة يستظلون بالشجر،

---

(١)أخرجة أحمد فى مسنده ٤/٢٢٧ عن عبد الرحمن بن غنم ، و ٦ / ٤٥٩ عن أسماء بنت يزيد الانصارية من طريقين .

فنزل النبى صلى الله عليه وسلم تحت شجرة فعلق بها سيفه ثم نام ، فاستيقظ وعنده رجل وهو لا يشعر به فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن هذا اخترط سيفى فقال : من يمنعك ؟ قلت : الله : فشام السيف (١) ، فها هو ذا جالس ، ثم لم يعاقبه (٢) " وفى رواية (٣) أن هذا المشرك اسمه غورث بن الحارث . وفى رواية (٤) أن جبريل دفع فى صدره فوقع السيف من يده فأخذه النبى صلى الله عليه وسلم وقال : من يمنعك أنت منى ؟ قال : لا أحد . قال : قم فاذهب لشأنك ، فلما ولى قال أنت خير منى" وفى رواية (٥) " أن الرجل أسلم ورجع إلى قومه فاهتدى به خلق كثير " .

إن هذا الموقف يكتب على الورق بسهولة ، ويقرأ بسهولة ، حتى يخيل للكاتب وللقارئ أن هذا أمر يسير ، لكن من جربه وجده فى غاية الصعوبة فكيف بحال إنسان يجد عدوه قد رفع عليه سيف القتل ، ماذا يفعل ؟ وأشد من ذلك ماذا يكون تصرفه إذا انتقل هذا السيف من يد عدوه إلى يده ؟ يدهى أنه سيمزق بالسيف جسم عدوه !! أما المصطفى المعصوم صلى الله عليه وسلم فكان قمة فى كل جزئية من جزئيات هذا الموقف ، فحينما وجد عدوه بجانبه ، وقد أخرج السيف من الجراب ، ورفعه لم يخف ، ولم يرعه ذلك ، وفى ذلك بيان لما كان عليه صلى الله عليه وسلم من فرط الشجاعة وتمام اليقين بالله سبحانه وتعالى ، وعندما سأله عدوه من يمنعك منى ؟ من يحميك من سيفى؟ كانت عقيدته حاضرة ، وفهمه للموقف دقيقا ، إن هذا السؤال من المشرك دليل رعاية الله لرسوله ، فما كان

(١) أغمده ، أى وضعه فى جرابه . و "شام" من الأضداد ، يقال " شام " بمعنى استل ،و" شام " بمعنى أغمد .

(٢) أخرجه البخارى فى الجهاد باب تفرق الناس عن الإمام عند القائلة ..... وفى باب قبل هذا بيابين ٩٧/٦ ، ٩٦ رقم ٢٩١٣ ، ٢٩١٠ وفى غير ذلك .

(٣) عن البخارى فى المغازى ٧ / ٤٢٦ رقم ٤١٣٦ .

(٤) عن ابن اسحاق فى غزوة ذات الرقاع ٢٠٥/٣ وذكرها فى الفتح ٤٢٧/٧ وعزاها لابن أسحاق .

(٥) عند الواقدى ذكرها فى الفتح ٤٢٨/٧ .

لمشرك مبغض له صلى الله عليه وسلم ، بذل كل حيلة للوصول إليه وهو على هذه الحال ، ما كان له أن يسأل ، وإنما كان الشأن فيه أن يسرع بالقتل ، لكن عناية الله برسوله منعت هذا المشرك من أن يبلغ مرامه ، فما استطاع إلا أن يسأل هذا السؤال ، فأجابه صلى الله عليه وسلم بكلمة هى أعظم الكلام "الله" الله يحمينى منك ومن كل سوء ، الله القادر المقتدر هو الذى يرد كيدك فى نحرك ، ويسلمنى من شرك ، وجبريل عليه السلام حاضر الموقف ، أرسله ربنا من أجل نبيه ومصطفاه فيضرب جبريل الرجل فى صدره فيقع السيف من يده ، فيأخذه صلى الله عليه وسلم ، وسبحان الله الذى بقدرته تغيرت الأحوال !! فمن كان مرفوعاً عليه السيف أصبح يمتلك السيف ، ومن كان رافعاً السيف أصبح السيف مرفوعاً عليه !! فماذا يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أينتقم ؟ أيضرب الرجل بالسيف شأن الآدميين العاديين ؟ كلا ، لم يفعل ذلك ، فإنه ما انتقم لنفسه قط ، وإنما فعل ما تستريح النفس لقراءته ، وتسعد الفطرة بدرايته ، إنه قال للرجل : اذهب لشأنك . ولقد استغرب الرجل من هذا التصرف ، فإنه تصرف لا يعرف فى بيئته ، مما دعاه للنطق بكلمة قل أن ينطق بها أحد من أهله ، قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت خير منى .

وكثير من صور حلمه صلى الله عليه وسلم ترد فى السيرة ، وكثير من أخلاقه الكريمة ، يقرؤها دارس السيرة ، فتكون متعة لروحه ، وسعادة لفطرته، إن كريم الخلال ، وسامى الخصال ، مما يريح ويسعد كرام البشر . وأسمى ذلك فى سيرته صلى الله عليه وسلم .

٤- دارس السيرة كريم الخلق :-

وإذا كانت دراسة السيرة تأخذ بيدنا إلى طاعة الله سبحانه، وتزكى فطرنا ، وتعرفنا المسلك الخلقى الكريم ، فإنها أيضاً تأخذ بيدنا إلى حسن الخلق مع من

نتعامل معه من المخلوقات ، من آدميين وغيرهم ، فالسيرة تحسن خلق دارسها مع نفسه ، ومع أهله ، ومع أولاده ، ومع جيرانه وعارفيه ، إنها تحسن خلقه مع الحيوان ، ومع الطير ، ومع المخلوقات الصغيرة ، وكل ذلك سمو بالأخلاق ، ورحمة بالمخلوق ، وصدق الله العظيم إذ يقول "وما أرسلناك إلارحمة للعالمين "(١)

فانظر إليه صلى الله عليه وسلم فى تعامله مع أهل بيته ، فى حديث أنس بن مالك ، وأنس هذا قدمته أمه - رضى الله عنها - إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة ليحظى بخدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان وقتها صغير السن ، يصف هذا الصحابى معاملة رسول الله صلى الله عليه وسلم له فيقول :" خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لى أفٍّ قط، وما قال لى لشئ صنعته لم صنعته ، ولا لشئ تركته لم تركته ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقاً . ولا مسست خزا ولا حريراً ، ولا شيئا كان ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا شممت مسكا قط ولا عطرا كان أطيب من عرق النبى صلى الله عليه وسلم " (٢) فانظر إلى كرم خلقه صلى الله عليه وسلم مع خادمه الصغير - وما أكثر خطأ الصغار - الذى وصل به إلى أنه لم يعاتبه فى شئ ، ولم يتضجر من شئ .

وتصف أم المؤمنين عائشة خلقه صلى الله عليه وسلم فتقول : " ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده شيئا قط ، إلا أن يجاهد فى سبيل الله ، ولا ضرب خادما ولا امرأه " (٣)

وهذه صورة واقعة من عفوه صلى الله عليه وسلم ، يرويها أنس بن مالك ، «

---

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٧ .

(٢) أخرجه الترمذى فى الشمائل باب ما جاء فى خلق رسو الله صلى الله عليه وسلم ص ٢٧٣ رقم ٣٢٨ وهو عند البخارى ومسلم .

(٣) أخرجه الترمذى فى الشمائل فى الباب المتقدم ص ٢٧٤ رقم ٣٣١.

أن النبى صلى الله عليه وسلم كان عند بعض نسائه ، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين [١] مع خادم بقصعة فيها طعام [٢]، فضربت بيدها فكسرت القصعة ، فضمها وجعل فيها الطعام وقال : كلوا . وحبس الرسول [٣] والقصعة حتى فرغوا [٤]، فدفع القصعة الصحيحة [٥] ، وحبس المكسورة [٦] » وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال : « غارت أمكم [٧] » ولقد تكرر هذا الفعل ، فأكثر من مرة تغار عائشة من زوجة أخرى له صلى الله عليه وسلم فتكسر القصعة ، ورسول الله المصطفى المعصوم صلى الله عليه وسلم يقدر ظروف غيرة الزوجة عن ضرتها ، فلا يغضب ولا ينتقم ، مع أن الفعل أمام ضيوف ، وانما فقط ، يأخذ القصعة السليمة فيعطيها لمن كسرت قصعتها ، ويعلل أمام الضيوف بقوله «غارت أمكم» وفى كلمته صلى الله عليه وسلم هذه من المعان الكثير ، ففيها تذكير لهم بمنزلة عائشة وأنها أم المؤمنين ، فلا يعترض أحد ، وفى هذه الكلمة منه صلى الله عليه وسلم بيان لسبب الفعل ، وأنها فعلت ذلك من باب الغيرة ، وهذا أمر تعذر فيه المرأه ، وفى هذه الكلمة أيضا إشارة إلى تعدى من أرسلت إذ أنها أغارت صاحبة البيت فمن عفوه صلى الله عليه وسلم أنه لم يغضب ، وبين للحاضرين السبب ، وقضى بين الزوجتين ، صلى الله عليه وسلم .

وفى كتب السيرة وكتب السنة الكثير والكثير من كريم خلقه صلى الله عليه

---

(١) فى رواية أنها زينب بنت جحش .
(٢) أى أن زينب سبقت عائشة رضى الله عنهما فأرسلت طعاما .
(٣) الذى هو خادم زينب .
(٤) وكانت عائشة قد أحضرت طعامها من عندها فى قصعة أيضا .
(٥) إلى خادم زينب .
(٦) أى أبقاها فى بيت عائشة إذ هى التى كسرت .
(٧) أخرجه البخارى فى المظالم باب إذا كسر قصعة أو شيئا لغيره ٥/١٢٤ رقم ٢٤٨١ وفى النكاح باب الغيرة ٩/٣٢٠ رقم ٥٢٢٥ وفى الموضع الأول فوائد كثيرة فى الشرح فراجعه . كما أن غير البخارى أخرج الحديث .

وسلم مع أهله ، ومع جميع الناس ، بل مع الحيوانات ومع الطيور ، ومع جميع المخلوقات ، مما يوضح قوله صلى الله عليه وسلم " إنما أنا رحمة مهداة "

ومن درس هذه الأخلاق ، فإنه يستفيد منها ، فيحسن خلقه ، وتنمو فيه الفضائل الخلقية من كرم ، وعفو ، وشجاعة ، وتواضع ... الخ .

والاستفادة من هذه الدراسة تأتى إذا وضع الدارس فى اعتباره الاستفادة فليس الغرض من دراسته مجرد معرفة أخلاقه صلى الله عليه وسلم ، وإنما الغرض معرفة أخلاقه صلى الله عليه وسلم والاقتداء به فى ذلك . فالسيرة تعرف دارسها بسيرة أكرم الناس خلقاً ، فليقتد به ، ليجمع بين العلم النافع والعمل به .

٥- دراسة السيرة تورث القلب طمأنينة :-

قال ربنا سبحانه " وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك " [١] فإذا كانت أنباء الرسل السابقين تثبت فؤاده صلى الله عليه وسلم ، فإن أنباء التى هى سيرته صلى الله عليه وسلم تثبت فؤادنا ، وما من مؤمن إلا ويحرص على ما يثبت الفؤاد .

فمعرفة سيرته صلي الله عليه وسلم تورث القلب طمأنينة بوجود الله سبحانه ، وبقدرته سبحانه وتعالى على كل شئ ، وبعلمه عز وجل بكل شئ ، وبعنايته ورعايته للمؤمنين فى كل زمان ومكان .

ومعرفة سيرته صلى الله عليه وسلم تورث القلب طمأنينة بأنه صلى الله عليه وسلم رسول الله وأنه إمام الهدى ، وشفيع الأمة

ومعرفة سيرته صلى الله عليه وسلم تورث القلب طمأنينة أن الله سبحانه ينصر عباده الموحدين ، وأنه الله سبحانه يؤيد الحق ، وليس الأمر مبنياً على الكثرة العددية ولا موكولا للقوة العددية ، وإنما " وما النصر إلا من عند الله " [٢]

---

(١) اية ١٢٠ من سورة هود

(٢) جزء من آية ١٢٦ من سورة آل عمران .

و " كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله " (١) ، وتورث القلب طمأنينة بالرزق وبالأجل ، فالرزاق هو الله ، ولا يستطيع مخلوق أن يؤثر فى أجل مخلوق آخر أو فى رزقه .

وبيان ذلك أنك لو فكرت فى أمر هجرته مثلا اتضح لك الكثير مما سبق ، فها هو صلى الله عليه وسلم والصديق فى الغار ، وجاء المشركون إلى الغار ، لكنهم لم يرووا النبى صلى الله عليه وسلم ، لقد طمأن الله قلبه صلى الله عليه وسلم وقلب الصديق بالعنكبوت والحمام ، ومنع المشركين من الرؤية كما قال صلى الله عليه وسلم للصديق " إن الملائكة تسترنا بأجنحتها (٢) " فهذا يقوى قلب الدارس بأن الله سبحانه وتعالى عليم خبير ، وأنه سبحانه على كل شئ قدير ، منع الأعداء من رؤية رجلين أمامهما ، ألا يزيد ذلك من إيمان الدارس بقدرة الله سبحانه؟ وهذا الإكرام من الله لرسوله ألا يزيد من إيمان الدارس برسالته صلى الله عليه وسلم ؟ وإذا أخذنا شيئامن غزوة الخندق مثالا آخر ، ورأينا فيها أن الله سبحانه أرسل على المشركين الريح والملائكة فطردوا من على الخندق شر طردة ، ألا يزيدنا ذلك إيماناً بقدرة الله سبحانه ، وأنه طرد هذه الجموع الكثيرة التى تبلغ عشرة آلاف رجل مدججين بالسلاح ، طردها بريح أرسلها عليهم لم تتجاوز المكان الذى يوجدون فيه ، ألا نزداد إيماناً برسالة سيدنا صلى الله عليه وسلم حينما نعلم أن الله أكرمه بهذا ، ألا يطمئن قلب الدارس إلى نصرة الحق ، وأن الله سبحانه يؤيد المؤمنين ، حينما يقرأ ذلك ، بدهى الجواب نعم .

وسيرته صلي الله عليه وسلم فيها الكثير من هذا ، سواء ما تعلق بالمعجزات مثل نبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم حتى شرب الجيش كله ، ومثل

---

(١) جزء من آية ٢٤٩ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه الطبرانى كذا فى الفتح ٢٤٠/٧ ، ٢٤١ وأيضاً في مجمع الزوائد ٥٤/٦ . وراجعه فى جزء الهجرة .

تكثير الطعام حتى أكل الجيش والناس جميعاً من صاع شعير وجدى صغير ، ومثل رد عين قتادة التى كانت قد فقئت فردها له صلى الله عليه وسلم حتى كان لا يعرف أى عينيه التى فقئت . أو ما تعلق بالغزوات وتأييد الله سبحانه المسلمين .

والدارس لسيرته صلى الله عليه وسلم إذا فكر فى المعانى بعد قراءة المبانى زاده ذلك تثبيتا واطمئنانا بربه ورسوله ، وبقوة المنهج الذى يسير عليه .

٦- فى دراسة السيرة عبرة وعظة :-

دارس السيرة يستفيد الكثير من العبر والعظات ، يستفيد أن العاقل من اتبع الحق وسار على نهج الله المستقيم ، فكم من أناس غرتهم قوتهم ، وأغراهم جاههم وسول الشيطان لهم فتجبروا وتكبروا ، فأنزل الله بهم من الذل الكثير والكثير ، فها هم المشركون جاءوا بجموعهم فى بدر يريدون أن يخيفوا العرب جميعا ، إذ يقول أبو جهل - بعد أن علم بنجاة قافلتهم التجارية - والله لا نرجع حتى نرد بدرا ، فنقيم عليهم ثلاثا ، فننحر الجزور ، ونطعم الطعام ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان [1]، وتسمع بنا العرب وبمسيرتنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبدا[2] اهـ فكانت النتيجة عكس ما أراد الطاغية ، فلقد انهزموا فى المعركة شر هزيمة ، وقتل هذا المغرور ، ورجع المتجبرون بأسوأ حال . وكتب الله النصر للمسلمين رغم قلة عددهم وعدتهم ، كيف لا ، والمشركون مع شركهم يتكبرون ، والمسلمون مع إسلامهم بالله يستغيثون ؟ فليعتبر بذلك كل عاقل وليتعظ .

وكم من إنسان تجبر ، ومقابله لجأ إلى الله فكان الله للمتجبر مهلكا ، ولمن لجأ إليه سبحانه وتعالى ناصراً وكم من ضعيف نصره الله على قوى " كم من فئة

---

(١) الجوارى المغنيات .

(٢) راجع البداية ٢٩١/٣.

قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين " [(١)] وكم من جائع أطعمه الله من غير سبب ظاهرى ، يصور هذا ما روى عن جابر قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر علينا أبا عبيدة بن الجراح نتلقى عيرا لقريش ، وزودنا جرابا من تمر لم يجد لنا غيره ، فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة ، قلت : كيف كنتم تصنعون بها ؟ قال : كنا نمصها كما يمص الصبى ، ثم نشرب عليها من الماء فتكفيننا يومنا إلى الليل ، وكنا نضرب بعصينا الخبط ثم نبله بالماء فنأكله ، فانطلقنا على ساحل البحر فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم فأتيناه ، فإذا هو دابة تدعى العنبر ، قال أبو عبيدة : ميتة !! ثم قال : لا ، بل نحن رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى سبيل الله عز وجل نقاتل ، وقد اضطررنا ، فكلوا ، قال : فأقمنا عليها شهرا ، ونحن ثلثمائة حتى سمنا ، ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينه بالقلال الدهن ، ونقتطع منه الفدرة كالثور ، أو كقدر الثور ، ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلا فأقعدهم فى وقب عينه ، وأخذ ضلعا من أضلاعه فأقامه ، ثم رحل أعظم بعير معنا فمر من تحتها ، وتزودنا من لحمها وشايق ، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا ذلك له ، فقال : هو رزق أخرجه الله عز وجل لكم ، فهل معكم من لحمه شئ فتطعمونا ؟ فأرسلنا إلى رسول الله منه فأكله [(٢)] فهذا الحديث الصحيح فيه كثير من العبرة لمن أراد أن يعتبر ، فلقد رزق الله الكريم عباده الصادقين ، رزقا طيبا حلالا ، غير به حالهم من الجوع إلى الشبع ، ومن الضعف إلى القوة ، فبعد أن كانوا يمصون كل يوم تمرة ، بل ونفد التمر ، فيأكلون ورق الشجر ، إذ بفرج الله

---

(١) سورة البقرة آية ٢٤٩.

(٢) أخرجه ابن الجعد فى مسنده ٩٥٢/٢ ، ٩٥٣ رقم ٢٧٤٢ ، وهو عند البخارى فى المغازى باب غزوة سيف البحر ٧٧/٨ ، وعند مسلم فى الصيد باب إباحة ميتات البحر ٦٠١/٤ وتكملة التخريج فى مسند ابن الجعد بتحقيقى فراجعه .

يأتيهم فيأكلون الكثير من اللحم ، بل ويدهنون ، وسبحانه الله الرزاق ذى القوة المتين .

فدارس السيرة يعتبر ويتعظ لما يقرأ من سوء مصير الجبابرة ، ومن إكرام الله عباده المؤمنين . إنه يجد صوراً واقعية لما فى القرآن الكريم ، إنه يجد فى السيرة واقعاً لقول الله سبحانه " إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور " ولقوله سبحانه " وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم " إنه يجد واقعا ملموسا لقول الله سبحانه " ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب " ولكثير من الآيات القرآنية ، مما يدعو كل صاحب عقل إلى الاتعاظ والعبرة .

٧- وفى السيرةأصول المعارف الصحيحة :-

وفى علم السيرة أصول المعارف الصحيحة ، فأصول النفسيات فيها ، وما أخذ من السيرة فى هذا المجال فهو أصح ما فيه ، فانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم " وتبسمك فى وجه أخيك صدقة " [١] ويصف هند بن أبى هالة رسول الله صلي الله عليه وسلم بصفات هى أساس مراعاة نفسيات الناس إذ يقول "... ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ... ويتفقد أصحابه ، ويسأل الناس عما فى الناس ..وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ، ويأمر بذلك ، يعطى كل جلسائه بنصيبه ، لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه . من جالسه أو فاوضه فى حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول ، قد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار له أبا ، وصاروا عنده فى الحق سواء ... الحديث " [٢] أرأيت هذه النفسيات الصادقة والتى خلت عن كل

---

(١) أخرجه الترمذى في البر باب ما جاء فى صنائع المعروف ٨٩/٦ وقال حسن غريب ، وأخرجه ابن حبان في البر باب مدارة الناس صدقة ص ٥٠٧ موارد .

(٢) أخرجه الترمذى فى الشمائل ص ٢٢ رقم ٧ وص ٢٦٥ ، ٢٦٧. وأشار محققه إلى أنه أخرجه الطبرانى والبيهقى.

تعقيد ، ولو صدق دارسوا النفسيات فى أخذ علومهم من سيرته صلى الله عليه وسلم ، لأفادت دراستهم البشرية خيرا كثيرا . وكذلك أصول التربية ، فانظر كيف ربى صلى الله عليه وسلم أمة كان القوى فيها يأكل الضعيف ، وجعل منها أمة منهجها " والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه " (١) حدث هذا فى فترة وجيزة ، نقلهم من عالم التصارع إلى عالم " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه "(٢) أما كان الأجدر بعلماء التربية أن يدرسوا سيرته صلى الله عليه وسلم ، ويأخذوا منها الجانب التربوى ؟ إنهم لو فعلوا ذلك لأفادوا البشرية كثيرا. وكذلك أصول العسكرية ، فكيف كون صلى الله عليه وسلم جيشا قضى على الإمبراطوريات الضخمة القوية ؟ وما منهجه فى مغازيه وجيشه ؟ أليس هذا جديرا ببحث العسكريين ؟

وكذلك منهج الدعوة ، فالأئمة هم أحوج الناس لدراسة منهجه صلى الله عليه وسلم فى الدعوة ، وكيف عامل الناس حتى أحبوه أكثر من أنفسهم ، وكيف دعاهم حتى أصبح دينهم أعز شئ عندهم ؟ إنهم بحاجة لمعرفة منهجه فى معاملة من حوله، ومنهجه فى توصيل دعوته إلى البعيد ، إنهم بحاجة لمعرفة منهجه صلى الله عليه وسلم إزاء كل نوعيات البشر ، وكيف عامل كل نوع .

بل إن الدعاة بحاجة لمعرفة منهجه العلمى صلى الله عليه وسلم ، بمعنى منهجه فى الإلقاء منهجه فى النطق - وأنه كان لا يتكلم إلا فى حالة هدوء منهم ، وصمت جميعهم ، فإذا تكلم تكلم كلاما فصلا ، لو أراد العاد أن يعده لعده - إنهم بحاجه لمعرفة منهجه صلى الله عليه وسلم فى تثبيت المعلومات - وكيف أنه استعان بضرب المثل ، وطرح السؤال وانتظار الجواب - إنهم بحاجة لمعرفة

---

(١) أخرجه مسلم فى الذكر باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن جـ ٤ ص ٢٠٧٤ رقم ٣٨ ، وأخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجة وأحمد .

(٢) أخرجه البخارى فى الإيمان باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ٥٦/١ ، ٥٧ .

منهجه صلي الله عليه وسلم فى الإقناع ، فها هو رجل يأتيه فيقول له " يا رسول الله ، ولد لى غلام أسود - أى وأنا أبيض فكيف يكون منى ؟ - فقال صلى الله عليه وسلم : هل لك من إبل ؟ قال : نعم ، قال : ما ألوانها؟ قال : حمر ، قال : هل فيها من أوراق ؟ [1] قال : نعم إن فيها لورقا ، قال : فأنى ذلك ؟[2] قال : لعل نزعه عرق [3] ، فقال صلى الله صلى الله عليه وسلم : فلعل ابنك هذا نزعه عرق[4] " أرأيت منهجه صلى الله عليه وسلم فى الإقناع ؟ إنه لم يتكلم كثيراً ، وأنطق الرجل بالجواب ، والفكرة واضحة ، وضرب المثل زادها وضوحا .

إن الدعاة بحاجة لمعرفة منهجه صلى الله عليه وسلم فى مراعاة أحوال السامع ، فهو صلى الله عليه وسلم لم يكثر عليهم الكلام خشية السآمة ، وأحاديثه صلى الله عليه وسلم بين أيدينا فى مجموعها لاتتعدى السطرين أو الثلاثة ، وكثير منها فى سطر وكثير منها فى نصف سطر [5] .

خلود سيرته صلى الله عليه وسلم :-

وقد يقول قائل : كيف تكون السيرة مصدراً للعلوم مع أنه قد مضى على وفاته صلى الله عليه وسلم قرابة أربعة عشر قرنا ؟ والجواب : أن السيرة إنما هى سيرة من استقام على شرع الله ، والتشريع إذا كان من عند الله فلا يؤثر فيه زمان ولا مكان ، وإنما هو مصلح لكل زمان وكل مكان ، ذلك أنه من عند الله الذى أحاط بكل شئ علما ، العليم الخبير بأسرار ماخلق ، وسر استقامة من خلق وبيان ذلك أن السيرة والإسلام عموما مبادئ لا تتأثر بطول الزمن ، ولا ببعد المكان ، وقيم لا

---

(١) البعير الأورق هو الذى فيه سواد ليس بحالك ، وإنما يميل إلى الغبرة .

(٢) من أين أتاها هذا اللون المخالف .

(٣) قد يكون فى أصولها ماهو أورق ، فجاءت على لونه .

(٤) أخرجه البخارى فى الطلاق باب إذا عرض بنفى الولد ٩ / ٤٤٢ رقم ٥٣٠٥ وفى غير هذا الموضع وأخرجه مسلم كذلك ، وأخرجه غيرهما .

(٥) راجع فى منهجه صلى الله عليه وسلم فى الدعوة كتابى السنة النبوية صـ .

تختلف ، وإنما لها صفة الثبوت وتشريعات من عند الله العليم الخبير ، فالإسلام أرسى قواعد الفضيلة ، وأقام بنيانها وأجملها يوضح ذلك قوله صلى الله عليه وسلم " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق "[1] وانظر إلى التعبير بـ " مكارم " فإنه ليس فقط لإتمام الأخلاق ، وإنما لإتمام مكارم الأخلاق .

وترك الإسلام للناس سبل الحياة ، يسلكونها حسب تجربتهم الشخصية ، فمثلا لم يحد الإسلام لنا وسيلة التخاطب ، فلنتحدث مباشرة ، أو لنتحدث بالتليفون ، أو بأي وسيلة أخرى ، فهذا موكول لتجربتنا ، وإنما أكد الإسلام أن يكون الحديث صادقا لا غيبة منه ولا نميمة ولا شيئا مما يحرم شرعا فى الحديث . فرسم الجانب الخلقى وترك الجانب التجريبى .

وحينما يحرم الإسلام الكذب ويقبحه ويذمه ، فلن يأتى زمان يكون فيه الكذب ممدوحاً ، ولن يكون ذلك فى أى مكان ، وواقع الناس يشهد بهذا ، فلا تجد قوما يمدحون الكذب ، وإنما الجميع - مهما اختلف الزمان والمكان - يذم الكذب ، حتى الكاذبين لا يقبلون أن يوصفوا بالكذب ، وإنما يصورون أنفسهم بأنهم صادقون .

وحينما يحرم الإسلام شيئا من المطعومات أو المشروبات ، فإنما ذلك لحكمة قد تخفى على الناس وقد تظهر جميعها ، وقد يظهر بعضها ، فحينما يحرم الإسلام الميتة والدم ، تثبت الأيام أن هذين النوعين من الأطعمة يضران بالصحة جداً لما فيهما من ارتفاع نسبة الماء فى الجسم " البولينا " ، وحينما يحرم أكل الخنزير ، فلقد كشفت الأيام أن من أكل لحم الخنزير أصيب بتليف الكبد وهو مرض مهلك .

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك كتاب التاريخ باب دلائل النبوة ٢ / ٦١٣ وقال : صحيح على شرط مسلم . ووافقه الذهبى . وأخرجه البيهقى فى سننه كتاب الشهادات باب بيان مكام الأخلاق ١٠ / ١٩١ ، ١٩٢ باللفظ الذى هنا ، وأخرجه مالك فى الموطأ بلاغا فى حسن الخلق الباب الأول ٢ / ٩٠٤ . وقال ابن عبدالبر : هو حديث مدنى صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبى هريرة رضى الله عنه وغيره .

وحينما ينبه الإسلام على فائدة أمر ، أو يدعو إليه ، ففى ذلك كثير من الفائدة ، ففى باب الأطعمة قال الله سبحانه فى شأن مايخرج من النحلة من عسل وغيره " يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس " فأشار إلى فوائد ما يخرج من النحلة من عسل وغيره ولازال البحث يكتشف بين الحين والحين فائدة من فوائد ما يخرج من النحلة ، فلقد ثبت أنه علاج لكثير من الأمراض ،فهو علاج لكثير من أمراض البطن وعلاج للجروح ، حتى إن جرح مريض السكر أنفع علاج له هو العسل ، وذهب بصبى لايستطيع التنفس لحساسية فى أنفه إلى طبيب من المهتمين بفوائد النحل ، فأعطاه قطعة من الشمع - الذى تصب النحلة فيه العسل - وطلب منه مضغ القطعة فترة ، فاستطاع التنفس فى الحال ومن غريب أمر عسل النحل أن مريض السكر إذا تناوله فإنه لايضره ، وكذا إذا أكل شيئا محلى بالعسل .

وفى باب الوقاية يدعو الإسلام إلى النظافة ، ومنها تنظيف مجرى الطعام بالمضمضة والسواك ، ومجرى التنفس بالاستنشاق ، ولازالت البشرية تكتشف أسرار السواك ، خاصة عود الأراك ، أما الاستنشاق فلقد ثبت أن يقتل أحد عشر نوعا من الميكروبات ، إذا استنشق ثلاث مرات ، وتعود هذه الميكروبات بعد خمس ساعات ، وليس بين فرضين خمس ساعات اللهم إلا العشاء والفجر ، وهذه الفترة يستحب فيها قيام الليل ، وهى أيضاً فترة للنوم .

ولست أريد التطويل فى هذا ، وإنما أريد أن أنبهك إلى أن الإسلام وسيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم لا تتأثر بطول الزمن ، فإنها من عند الله خالق البشر ، وموجد الكون ، والخبير بأسراره . فلا تستكثرن هذه العظمة على الإسلام ، وعلى سيرة رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام ، فإن ذلك من عند الله سبحانه ، وما كان من عند الله فهو الحق ، وماعداه باطل .

وحينما تأتى الاكتشافات العلمية مطابقة للإسلام يفرح بها المسلمون لا لأنها تفيدهم شيئا ، فالمسلمون ممتثلون لأمور دينهم ، دون مراعاة لقضية الحكمة من الأمر ، فالمسلم لا يأكل الخنزير ، ولو لم يظهر ضرر من أكله ، إنه يرفضه امتثالا لأمر الله سبحانه ، فإذا تبين ضرر لحم الخنزير ، فإنه لافائدة من ذلك للمسلم ، وإنما يفرح المسلم بهذا الاكتشاف لأنه يبين شيئا من عظمة دينه ، ويدل على أنه الدين الذى يجب على البشرية أن تتبعه .

إن بعض من أعمى التعصب قلوبهم يعيبون على المسلمين ، أنهم لم يعرفوا مافى دينهم من إعجاز ، وإنما هى اكتشافات معظمها فى الغرب ، وفى المختبرات والمعامل .

ونحن نقول لهؤلاء : إن الاكتشافات العلمية لم تفد المسلم شيئا ، وكذلك لم تفد الإسلام شيئا ، فالمسلم يجتنب الزنا لأن دينه حرمه ، فإذا جاءت الإكتشافات العلمية ، وأظهرت أضرار الزنا وما يترتب عليه من أمراض وأظهرت الدراسات الإجتماعية مايترتب على الزنا من مشاكل ، فإن كل ذلك لم يفد المسلم فى شئ ، ذلك أنه يجتنب الزنا من منطلق دينى ، من منطلق أن الله سبحانه وتعالى حرمه ، ولم يستفيد الاسلام شيئا كذلك من هذه الاكتشافات ، فلا تعاليمه تغيرت ، ولا أحكامه تأثرت والعكس صحيح فإن البحوث العلمية هى التى استفادت من الإسلام فأقل شئ أنه لفت أنظار الباحثين ، وإن كانوا كفارا إلى مسائل وأحكام بدؤوا دراستها فاكتشفوا بعض أسرار الأشياء فحينما يبحثون فى لحم الخنزير ، وتبين ضرره على آكله ، أقل مافى المسألة أن الذى لفت نظرهم لهذا هو الإسلام فالإسلام هو الذى أفاد البحوث العلمية ، ولم يستفد هو من البحوث العلمية .

أضف إلى ذلك أن الإسلام جاء بالنتائج لا بالمقدمات ، فحرم الزنا ، فما جاءت به الاكتشافات العلمية يؤيد الحكم الشرعى الذى هو تحريم الزنا ، ولم يزد له

شيئا ، إن اعتراض هؤلاء يتأتى لو أن الإسلام قال احذروا مرض الزهرى والسيلان، ثم جاءت الاكتشافات العلمية فبينت أن الزهرى والسيلان يأتيان من الزنا لوحدث ذلك لكان لهم أن يقولوا إن الاكتشافات العلمية أفادت الإسلام أما وإنه لم يحدث، وإنما كل ماتفعله الاكتشافات العلمية أنها تؤيد ماجاءبه الإسلام وتتفق معه ، فإنها بهذا لم تفد الإسلام وإنما استفادت منه .

وحينما يحرص المسلمون على هذه الاكتشافات فإنما ذلك كما تقدم من باب أنها تبين شيئا من عظمة الإسلام ، وتشد على يد كل مسلم أن يلتزم بأحكام دينه ، وأن يعتز بدينه ، وهى فى نفس الوقت تدعو أصحاب العقول إلى اتباع الإسلام فهو الدين الحق .

وبعد : فهذه نقاط فى فوائد دراسة السيرة ، ليست على سبيل الاستيعاب ، وإنما من باب الإشارة بالجزء إلى الكل ، والتنبيه بالقليل على الكثير ، ففوائد السير كثيرة وعديدة ، أسأل الله سبحانه أن يعلمنا ، وأن يوفقنا للعمل بما علمنا .

تاريخ السيرة :

الناظر فى تاريخ العلوم الإسلامية يتضح له أن علم السيرة من أقدم هذه العلوم، إن لم يكن أقدمها ، فلقد جمعت مادته العلمية ودرست والرسول صلى الله عليه وسلم حى ، وكانت مجالس الصحابة تقوم على دراسة سيرته صلى الله عليه وسلم ، والتى تتفق فى كثير من موضوعاتها مع سنته صلى الله عليه وسلم ، وظهرت المؤلفات فيها فى وقت مبكر فألف عروة بن الزبير بن العوام مؤلفا فى السيرة ، وعروة هذا مات قبل نهاية القرن الأول الهجرى (٩٢ هـ) ، ومن هنا يتضح لنا ظهور المؤلفات فى السيرة فى وقت مبكر ، وكذلك ألف أبان بن عثمان ابن عفان مؤلفا فى السيرة ، وأبان هذا توفى فى أوائل القرن الثانى الهجرى (١٠٥هـ) وبعد ذلك كثرت المؤلفات .

فى هذا الوقت الذى كثرت فيه المؤلفات فى السيرة ، لم تكن كثير من العلوم ألف فيها فمثلا لم يكن فقه المذاهب قد ظهر بالمرة ، ولم يكن علم الأصول له وجود ، إلى غير ذلك من العلوم الاسلامية .

ومن حق القارئ أن يتساءل : لم نضج علم السيرة وألف فيه قبل بقية العلوم ؟

والجواب: أنه فى هذا الوقت كانت السيرة هى الإسلام ، فلا فقه حنفى ، ولاشافعى ، وإنما يدرس الصحابة دينهم عن طريق سيرته صلى الله عليه وسلم ، فأى نهج نهجه يريدون معرفته للاقتداء به صلى الله عليه وسلم ، لقد سمعوا قول الله سبحانه « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً " (١) فتفهموا قوله سبحانه " فى رسول الله " بأنه فى كل شئونه صلى الله عليه وسلم ، وأن عليهم تمام الاقتداء ، وتفهموا قوله سبحانه "أسوة حسنة " بأنه قدوة طيبة ، فمن كان يرجو رضى الله والسعادة فى الآخرة فليقتد به صلى الله عليه وسلم فى كل شئونه ، وهذا ماكان منهم . فهاهم ثلاثة من الصحابة يذهبون إلى بيته صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته صلى الله عليه وسلم فى السر ، وذلك أن ما يظهر أمامهم قد عرفوه ، فهم يبحثون عما غاب عنهم ، فيذهبون إلى بيوته صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته السرية كى يفعلوا مثل مايفعل صلى الله عليه وسلم ليكونوا قد اقتدوا به صلى الله عليه وسلم تمام الاقتداء ، ومرة أخرى يسأل بعضهم عن هيئة نومه صلى الله عليه وسلم ، وأخر يسأل عن تقبيله صلى الله عليه وسلم وهو صائم ، لقد أرادو الاقتداء به فيما يظهر وما لا يظهر حريصين كل الحرص على الاتباع والاقتداء ، متذكرين قول الله سبحانه " قل إن كنتم تحبون الله فاتبعون يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم (٢) ".

(١) سورة الاحزاب آية ٢١ .
(٢) سورة آل عمران آية ٣١ .

ولم يكن الاتباع والاقتداء فيما يفعل - كما تقدم - فقط ، وإنما كان فيما يترك أيضاً فهاهم يخبرونه بأن اللحم الذى على مائدته إنما هو لحم ضب ، فيتركه صلى الله عليه وسلم ولايأكل منه ، فيمتنع الحاضرون عن الأكل اقتداء به صلى الله عليه وسلم فيخبرهم أنه لم يتركه لتحريمه ، وإنما لأنه يعافه - لا يشتهيه - فهم لمجرد امتناعه صلى الله عليه وسلم امتنعوا ، فعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن خالد بن الوليد - الذى يقال له سيف الله - أخبره أنه دخل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على ميمونة - وهى خالته وخالة ابن عباس - فوجد عندها ضبا محنوذاً (١) قدمت به أختها حفيدة بنت الحارث من نجد ، فقدمت الضب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان قلما يقم يده لطعام حتى يُحدَّث به ويسمى له ، فأهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم يده إلى الضب ، فقالت امرأة من النسوة الحضور : أخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم ماقدمتن له ، هو الضب يارسول الله ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده عن الضب ، فقال خالد بن الوليد : أحرام الضب يارسول الله ؟ قال : لا ، ولكن لم يكن بأرض قومى ، فأجدنى أعافه . قال خالد : فأجتززته فأكلته ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إلىّ (٢)» .

وأيضاً فهاهو أبو أيوب الأنصارى يترك الطعام الذى لم يأكل رسول الله منه ؛

فعن أبى أيوب أن النبى صلى الله عليه وسلم نزل عليه . فنزل النبى صلى الله عليه وسل فى السفل (٣)وأبو أيوب فى العلو . قال : فانتبه أبو أيوب ليلة فقال : نمشى فوق رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم !! فتنحوا ، فباتوا فى جانب . ثم قال للنبى صلى الله عليه وسلم . (٤) فقال النبى صلى الله عليه وسلم : السفل

---

(١) مشويا .

(٢) أخرجه البخارى فى الأطعمة باب ماكان النبى صلى الله عليه وسلم لا يأكل حتى يسمى له فيعلم ماهو صـ٩ صـ ٥٣٤ حيث رقم ٥٣٩١ وفى غير هذا الموضع .

(٣) الدور الأرضى من المنزل .

(٤) أى قال له : يارسول الله اصعد أنت فى العلو .

أرفق . فقال لا أعلو سقيفة أنت تحتها. فتحول النبى صلى الله عليه وسلم فى العلو وأبو أيوب فى السفل . فكان يصنع للنبى صلى الله عليه وسلم طعاماً ، فإذا جئ به إليه سأل عن موضع أصابعه، فيتتبع موضع أصابعه ، فصنع له طعاما فيه ثوم ، فلما رد إليه سأل عن موضع أصابع النبى صلى الله عليه وسلم فقيل له : لم يأكل ، ففزع وصعد إليه ، فقال : أحرام هو ؟ فقال النبى صلي الله عليه وسلم : لا، ولكنى أكرهه قال : فإنى أكره ماتكره ، أو ماكرهت قال : وكان النبى صلى الله عليه وسلم يؤتى »[١] .

وكان الصحابة والتابعون يحرصون حرصا تاماً على معرفة كل أحواله صلى الله عليه وسلم ماجعل مجالس العلم عامرة ، وهم أناس يمتثلون لكل مايعلمون ، فحرصوا على مجالس العلم وحرصوا على العمل بالعلم ، يدرسون ماكان منه صلى الله عليه وسلم فى أمر كذا ، وماكان منه صلى الله عليه وسلم فى أمر كذا ، سواء فى ذلك ماكان فى العقائد وماكان فى المعاملات ، وما كان فى الآآب وماكان فى أمور المعاد ، يدرسون ماكان منه فى السلم وماكان منه فى الحرب ، ماكان منه مع المسلم وماكان مع الكافر ، وماكان مع الإنسان وماكان مع غير الإنسان .

هؤلاء الصحابة ومن بعدهم التابعون الحريصون على معرفة كل ما كان منه صلى الله عليه وسلم ، حتى يستطيعوا الاقتداء السليم والاتباع التام ، هؤلاء توافرت فيهم صفات جعلت السيرة النبوية مصونة من أن يعتريها نقص أو ضياع ، محفوظة من أن يدخل فيها ماليس منها ، وهذه الصفات يمكن إيجازها فيما يلى :

من صفات الصدر الأول :

١- العدالة : فالصحابة كلهم عدول ، لايكذب أحدهم مطلقا ، لا فى حديثه ولا مع الآخرين ولا فى حديثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد مدحهم

(١) أى تأتيه الملائكة بالوحى . وهذا الحديث أخرجه مسلم فى الأشربة باب إباحة أكل الثوم حـ٣ صـ١٦٢٣ رقم ١٧١ طبع عيسى الحلبى .

الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم مايدل على صفاتهم الحميدة ، وسجاياهم الطيبة ، فقال سبحانه .

" محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم
تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلاً من الله ورضوانا ...... الآية [(١)] "

ومن كانوا يبتغون فضلاً من الله ورضوانا لايكذبون فى حديثهم ، وهم يعلمون أن الكذب يهدى الى الفجور ، وأن الفجور يهدى الى النار . ويعلمون أن الصدق مايقرب إلى الله سبحانه وتعالى نص على ذلك رسولهم صلى الله عليه وسلم .

وقال سبحانه :

" والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار . والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ..... الآية [(٢)] ".

ومن رضى الله عنهم ، ورضوا بالله ربا ، لا يسمح لهم دينهم أن يكذبوا ، وتأبى فطرهم هذه الخصلة الذميمة ، أى خصلة الكذب .

ومدحهم الله سبحانه فى غير هاتين الآيتين أيضاً ، ومدحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم [(٣)]، مما يدل على كريم خلقهم ، وصدقهم فى كل أمورهم .

والتابعون ومَنْ بعدهم ، العدالة فيهم ظاهرة ، والخيرية شهد لهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله " خير الناس قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ... الحديث[(٤)] " مما يدل على خيرية صدر هذه الأمة ، وهو الصدر الذى حفظ السيرة وحافظ عليها حتى دونت فى بطون الكتب كاملة لم يضع منها شئ ، سليمة لم يدخلها زيف .

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة الفتح .

(٢) آية ١٠٠ من سورة التوبة .

(٣) راجع هذا الموضوع بتوسع فى كتابى " تاريخ السنة النبوية " صـ٥٣ فما بعدها .

(٤) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود والنسائى عن عمران بن حصين والبخارى ومسلم والترمذى عن عبد الله بن مسعود . أما البخارى فأخرجه فى الشهادات باب لايشهد على شهادة زور إذا أشهد ٢٥٩/٥ .

٢- قوة ذاكرتهم :

ومن صفات الصدر الأول أيضاً قوة ذاكرتهم ، وهذه صفة مهمة فى الحفاظ على العلم فها هو ابن عباس يحفظ فى سمعة واحدة قصيدة عمر بن أبى ربيعة التى مطلعها

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر   غداة غد أم رائح فمهجر (١)

وجاء فى وصف هذه الأمة - الأمة الإسلامية - " أناجيلها صدورها (٢) " أى صحفها صدورها ، أى أنها تعتمد على الذاكرة ، لاعلى المكتوب .

وهذه الصفة لم تك خاصة بالصحابة وحدهم ، بل سارت فى أجيال من الأمة ، يوم أن كان الصفاء يخيم على الحياة اليومية ، والهدوء يملأ على الإنسان حياته ، فهو قتادة - التابعى المشهور - يقول : ماقلت لمحدث قط أعد علىّ ، وما سمعت أذناى شيئا قط إلا وعاه قلبى (٣) . وها هو ابن شهاب الزهرى - التابعى الإمام - يقول : إنى لأمر بالبقيع فأسد آذانى مخافة أن يقع فيها شئ من الخنا ، فو الله مادخل أذنى شئ قط فنسيته (٤)، ويقول : ما استودعت قلبى شيئا قط فنسيته (٥).

ومع قوة الذاكرة فلقد كان صدر الأمة على قدر كبير من الذكاء ، فاستنبطوا من النصوص وتفقهوا فيها (٦) .

---

(١) راجع جامع بيان العلم ١ / ٨٣ .
(٢) أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة صـ٣٠ ، ٣١ عن أبى هريرة ، وأخرجه الزبير بن بكار فى أخبار المدينة ، وأبو نعيم فى دلائل النبوة عن ابن مسعود كذا فى الدر المنثور ٣/١٣٢، وذكره فى فتح البارى ١/ ٢٥
(٣) تهذيب التهذيب ٨ / ٣٥٤ والإلماع صـ ٢٢٠.
(٤) راجع جامع بيان العلم ١ / ٨٣ .
(٥) تهذيب التهذيب ٩ / ٤٤٨ .
(٦) راجع فى هذا كتابى تاريخ السنة النبوية

٣- حبهم لدينهم وحرصهم عليه :

المتتبع لتاريخ صدر الأمة من الصحابة والتابعين يجد أنهم كانوا يحبون دينهم حبا يفوق حبهم لأنفسهم ، فلقد كانوا خير تطبيق لقوله صلى الله عليه وسلم " ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار (١)" فمن كان الله ورسوله أحب إليه من غيرهما ، حتى من نفسه ، فهو مؤمن أدرك قيمة الإيمان ، وعرف سموه ورفعته . فللإيمان عنده حلاوة تفوق حلاوة كل محسوس ومعنوى . يتضح لنا حبهم لدينهم من تضحياتهم بأنفسهم وأموالهم فى سبيل نصرة هذا الدين ، بل كان الابن يسابق أباه ، كل منهما يريد الخروج ، فها هو عبد الله بن عمرو بن حرام والد الصحابى المشهور جابر بن عبد الله ، كان عبد الله هذا له من الأولاد جابر فقط ، ومن البنات سبع ، وكان لا بد من بقائه أو بقاء جابر ابنه فى البيت عندما نادى منادى الجهاد ، فأصر هذا الصحابى على الخروج إلى المعركة وألزم ابنه - جابر -أن يبقى فى أخواته ، وذهب الصحابى الجليل - عبد الله ابن عمرو بن حرام -فاستشهد فى المعركة .

وتشتمل كتب التاريخ والسيرة على صور كثيرة من تضحية الصحابة - رضوان الله عليهم - بأنفسهم وأموالهم وأولادهم فداء لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحرصا على نصرة الإسلام ، وطلبا لرضوان الله سبحانه وتعالى . ومن هنا قال الله سبحانه " الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون " (٢) وبدهى أن من جاد بنفسه وماله فى سبيل نصرة الإسلام يكون حريصا عليه - تعلما وعملا - كل الحرص .

---

(١) أخرجه البخارى الإيمان باب حلاوة الإيمان ١ / ١٢ فى السندى طبع عيسى الحلبى .
(٢) آية ٢٠ من سورة التوبة .

وهذه نماذج أسوقها لك لبيان حرصهم على تعلم أمور دينهم :

فعن أم سلمة - رضى الله عنها - قالت : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بعد العصر ، فصلى ركعتين ، فقلت : ياسول الله ، صليت صلاة لم أكن أراك تصلها ؟ .... الحديث [1] ".

وعن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : كنت أنا وجار لى من الأنصار فى بنى أمية ابن زيد - وهى من عوالى المدينة - وكنا نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل يوما ، وأنزل يوما ، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحى وغيره ، وإذا نزل فعل مثل ذلك ..... الحديث [2] " .

ففى حديث أم سلمة دليل على مراقبة الصحابة تصرفاته صلى الله عليه وسلم حرصا على معرفه دينهم . وفى حديث عمر بن الخطاب دليل على أن أمور الحياة لم تشغلهم عن طلب العلم ، وإن بعدت الدار [3] .

٤- نضج فكرهم :

كان الرعيل الأول على قدر كبير من النضج الفكرى ، فتراهم فى أسئلتهم مقتصرين على النافع المفيد ، وفى حديثهم إيجاز محصور فى هدف محدد ، فلم يسألوا سؤالا تافها ، فلم يسألوا مثلا عن أوصاف سفينة نوح ، ولم يسألوا عن اسم أمرأة العزيز ، ولم يكثروا الأسئلة فى الفتن وأشراط الساعة ، وإنما أوجزوا حديثهم فى معرفة هدفهم الذى هو عبادة الله سبحانه وتعالى ، ليصلوا بذلك إلى جنته ورضوانه سبحانه وتعالى ، فهاهم وفد عبد القيس يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم يارسول الله إنا نأتيك من شقة بعيدة ، وإن بيننا وبينك هذا الحى

---

(١) أخرجه مسلم فى المسافرين باب معرفة الركعتين اللتين كان يصليهما النبى صلى الله عليه وسلم بعد العصر ١ / ٥٧١ رقم ٢٩٧ / ٨٣٤ .

(٢) أخرجه البخارى فى العلم باب التناوب فى العلم ١ / ١٨٥.

(٣) وراجع مزيداً فى هذا فى كتابى " تاريخ السنة النبوية صـ ٦١ فما بعدها .

من كفار مضر وإنا لا نستطيع أن نأتيك إلا فى شهر الحرام ، فمرنا بأمر فصل ، نخبر به من وراءنا ندخل به الجنة ...... الحديث [1] " فانظر إلى قولهم " فمرنا بأمر فصل ، نخبر به من وراءنا ندخل به الجنه » فإنهم أرادوا إجمالى أسس الاسلام ، على أنهم سيبلغونها ، رجاء أن يدخلوا بامتثال ذلك الجنة . وهذا مما يدل على نضج فكر القوم وسلامة فطرهم ، وإدراكهم أن التشريعات إنما جاءت ليعمل بها ، فهم يريدون فقط معرفتها ، فإذا عرفوا امتثلوا وهاهو أحد الصحابة يقول له الرسول صلى الله عليه وسلم اسألنى ماشئت ، فلم يسأل عن أمر دنيوى وإنما سأل ماهو أسمى من ذلك . فعن ربيعة بن كعب الأسلمى قال : كنت أبيتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيتهُ بوضوئه وحاجته ، فقال لى "سل" فقلت أسألك؛ مرافقتك فى الجنة قال : أو غير ذلك ، قلت : هو ذاك . قال : فأعنى على نفسك بكثرة السجود [2] " إنه يعرف هدفه من الحياة ، وهو أن يستقيم فيدخل الجنة ، فلما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اسألنى ، طلب النتيجة فقال أسألك مرافقتك فى الجنة ، أى ادع لى أن يرزقنى الله ذلك ، فأنت مستجاب الدعوة .

وهكذا كان فكرهم ناضجاً ، والهدف أمامهم محدد ، والصدق فيهم عميم .

هؤلاء هم الصحابة الذين يجلسون لدراسة سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم أناس صادقون ، أصحاب ذاكرة قوية وذكاء خارق ، يحبون دينهم ويحرصون عليه أكثر من كل شئ ، فكرهم ناضج ويعرفون هدفهم ، وإن قوما اجتمعت فيهم هذه الخصال جديرون أن يتحملوا تراث رسول الله صلى الله عليه وسلم وينقلوه إلى من بعدهم علما وعملاً ، وقد كان ذلك ، فصينت السيرة وحفظت ، وبلغت وكتبت ، وتناقلتها الأجيال سليمة تامة بفضل الله سبحانه وتعالى .

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الايمان باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم ..... ١ / ٤٦ وأخرجه البخارى فى العلم باب تحريض النبى صلى الله عليه وسلم وفد عبد القيس على أن يحفظوا الإيمان ١ / ١٨٣ ، ١٨٤ .

(٢) أخرجه مسلم فى الصلاة باب فضل السجود والحث عليه ١ / ٣٥٣ رقم ٢٢٦ (٤٨٩) .

ونحن على الدرب :

وإذا كان هذا شأن الصحابة والتابعين ومن بعدهم - رضوان الله عليهم - فى حفظهم السيرة وامتثالها ، فنحن على الدرب سائرون ، ندرس سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم سائلين الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا للتعلم وللتعليم ، وأن يرزقنا فقهها ، والاقتداء به صلى الله عليه وسلم .

ومسلموا اليوم فى أمس الحاجة إلى دراسة سيرته صلى الله عليه وسلم ، حتى تتضح أمامهم الطريق ، ولا تختلف بهم الكتابات والآراء والثقافات ، لقد كان صلى الله عليه وسلم الواقع العملى لما جاء به الوحى من عند الله ، والاقتداء به صلى الله عليه وسلم خير عاصم من تفرق السبل والتخبط فى الطريق .

وهم - أى مسلمى اليوم - فى دراستهم سيرته صلى الله عليه وسلم يحتاجون إلى التحقق من أمور السيرة ذلك أن بعض الكتب قد اشتمل على أمور ليست فى سيرته صلى الله عليه وسلم ، وإنما وضعت زوراً ، ويحتاجون إلى استيعاب سيرته صلى الله عليه وسلم ، ويحتاجون فقه هذه الأحداث ، بمعنى التفكر فيها وأخذ العبرة منها ، فليست سيرته صلى الله عليه وسلم قصة حياة تقرأ للعلم بها وكفى، وإنما حياة من اصطفاه الله ، وقال للإنسانية كلها " لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً »[1] . ، إنها سيرة الذى لا ينطق عن الهوى ، كما قال سبحانه " والنجم إذا هوى . ماضل صاحبكم وماغوى . وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى [2] " إنها سيرة مَنْ قال : " والذى نفسى بيده ماخرج منه إلا حق وأشار إلى فيه [3] " إنها سيرة من قالوا

(١) سورة الأحزاب آية ٢١ .

(٢) سورة النجم آية ١-٤ .

(٣) أخرجه الحاكم ١ / ١٠٤ ، ١٠٥ وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأخرجه أبو داود فى العلم باب كتابه العلم ١٠ / ٧٩. وراجع كتابى " السنة النبوية ".

له يارسول الله إنك تلاعبنا : فقال : " نعم ، غير أنى لا أقول إلا حقا [1] " فليحرص المسلم على دراستها ، والاستفادة بما فيها ، ليحظى برضا الله سبحانه وتعالى .

وإذا كانت السيرة كعلم يُدْرس نشأت فى وقت مبكر - يقوم بتدريسها ودرسها أقوام فيهم من الصفات مايؤهلهم لحمل العلوم ، والحفاظ عليها أتم محافظة - فإن التأليف فيها ظهر - أيضاً - فى وقت مبكر وألفت فيها الكتب الكثيرة .

ويعنينى هنا أن أحدثك عن بعض أوائل المؤلفين ، وعن أشكال التأليف فى السيرة ، وعن مناهج التأليف .

أوائل المؤلفين :

حاز قصب السبق فى التأليف فى السيرة أناس جمعوا بين كثرة العلم ، فهم طلاب علم مؤهلون حريصون ، وبين القرب من مصادر المعرفة بأيامه صلى الله عليه وسلم ، فنجد أسرهم أو شيوخهم على دراية دقيقة وغزيرة بأيام رسول الله صلى الله عليه وسلم : من هؤلاء :

(١) عروة بن الزبير بن العوام ، المتوفى سنه ٩٢هـ .

(٢) أبان بن عثمان بن عفان ، المتوفى سنة ١٠٥ .

(٣) وهب بن منبه اليمنى ، المتوفى سنة ١١٠ .

(٤) عاصم بن عمر بن قتادة المتوفى سنة ١٢٠ .

(٥) شرحبيل بن سعد المتوفى سنة ١٢٣ .

(٦) محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ .

(٧) عبد الله بن أبى بكر بن حزم المتوفى سنة ١٣٥ .

---

(١) أخرجه الترمذى فى البر باب ماجاء فى المزاح ٦ / ١٢٦ تحفة رقم ٢٠٥٨ وحسنه ، وهو عنده فى الشمائل باب مزاحه صلى الله عليه وسلم ص ١٩٨ رقم ٢٢٧ ولفظه الذى هنا ، والحديث أخرجه أيضاً أحمد فى مسنده .

(٨) موسى بن عقبة الأسدى المدنى المتوفى سنة ١٤١ .

(٩) معمر بن راشد المتوفى سنة ١٥٠ .

(١٠) محمد بن إسحاق بن يسار المطلبى مولاهم المدنى المتوفى سنة ١٥١ وقيل غير ذلك .

(١١) زياد بن عبد الله بن الطفيل البكائى العامرى المتوفى سنة ١٨٣ .

(١٢) أبو داود سليمان بن الأشعث السجستانى المتوفى سنة ٢٠٢ وهو صاحب السنن .

(١٣) أبو عبد الله محمد بن عمر الاسلمى الواقدى ، نسبة لجد واقد المتوفى سنة ٢٠٧ .

(١٤) أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميرى مولاهم الصنعانى المتوفى سنة ٢١١ صاحب (المصنف) فى الحديث .

(١٥) أبو محمد عبد الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٨ .

وهذه ترجمة لواحد من هؤلاء - يتبين منها شخصية هؤلاء العلمية :-

عروة بن الزبير :

عالم المدينة ، وأحد الفقهاء السبعه ، الإمام ، التابعى ، الثقة ، أبو عبد الله عروة بن الزبير بن العوام القرشى الأسدى .

أبو الزبير بن العوام ، حوارى [١] رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن عمته صفية ، وأمه : أسماء بنت أبى بكر الصديق ، بطلة الهجرة ، وذات النطاقين ولد عروة سنة ثلاث وعشرين ، وطلب العلم صغيراً ، وأخذ عن كثيرين ، ومنهم أبوه - الزبير - وأمه - أسماء - وخالته أم المؤمنين عائشة وسمع كذلك أم المؤمنين أم حبيبة ، وأم المؤمنين أم سلمة ، رضى الله تبارك وتعالى عن الجميع .

---

(١) أى خاصته من أصحابه وناصره .

روى عن عروة هذا أنه قال : لقد رأيتنى قبل موت عائشة بأربع حجج [1] وأنا أقول : لو ماتت اليوم ماندمت على حديث عندها إلا وقد وعيته ، ولقد كان يبلغنى عن الصحابى الحديث فآتيه فأجده قد قال [2]، فأجلس على بابه ثم أساله عنه .

وقال عنه ابنه هشام : والله ماتعلمنا جزءا من ألفى جزء أو ألف جزء من حديث أبى .

وقال عنه الزهرى : رأيت عروة بحرا لاتكدره الدلاء .

وقال حميد بن عبد الرحمن : لقد رأيت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه . مات عروة سنة ثلاث وتسعين . رحمه الله تعالى [3] .

وبعـــد :

فمن الواضح أن عروة بن الزبير جمع بين الصفتين اللتين سبق الحديث عنهما ، حينما قلت : إن أوائل المدونين فى السيرة جمعوا بين غزارة العلم ، والقرب من مصادر المعرفة بأيامه صلى الله عليه وسلم .

فعروة استقى السيرة من أقرب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم فى نفس الوقت أقرب الناس إليه ، لقد استقى السيرة من أبيه ، حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أمه بنت أبى بكر الصديق . وهو محب للعلم حريص على تحصيلة .

هذا ، وسيأتى التعريف بثان وثالث من أوائل المدونين ، حينما أتكلم عن كتاب ابن إسحاق وابن هشام ، وأترجم لهما .

---

(١) سنين .

(٢) من القيلولة وهى استراحة وسط النهار .

(٣) راجع ترجمته فى : سير أعلام النبلاء ٤ / ٤٢١ . وتهذيب التهذيب ٧ / ١٨٠ ، والبداية والنهاية ٩ / ١٠١ ، والحلية ٢ / ١٧٦ ، وتذكرة الحفاظ ١ / ٥٨ .

أشكال التأليف :-

وظهر للباحث أن التأليف فى السيرة أخذ أشكالاً متعددة .

(أ) فمنهم من ألف مؤلفاً مستقلاً بالسيرة ، حاول أن يجمع كل أحداث السيرة ومواقفها فيه ، كابن اسحاق .

(ب) ومنهم من ألف مؤلفاً غير مستقل بالسيرة ، بأن جعل السيرة جزءاً من مؤلف أكبر وحاول استيعاب السيرة ، وذلك كابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية » والذى لم يفرده للسيرة ، وإنما السيرة جزء منه ، حاول استيعاب كل موضوعاتها . وكذلك ابن سعد فى كتابه « الطبقات الكبرى » وابن عساكر فى « تاريخ دمشق » وأبى الحجاج المزى فى كتابه « تهذيب الكمال فى أسماء الرجال » وأبى عبد الله الذهبى فى « تاريخ الاسلام » .

(جـ) ومنهم من ألف مؤلفاً غير مستقل بالسيرة ، ولم يحاول استيعابها ، وذلك أصحاب كتب السُنّة . جمعو فى كتبهم - التى جمعوا فيها ماعندهم من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم - كثيراً من موضوعات السيرة ، لكن ليس على سبيل الاستيعاب ، بل ولا على التوالى ، وذلك كالإمام البخارى - رحمه الله تعالى - ففى صحيحه كتاب : بدء الوحى ، وكتاب الجهاد والسير ، وكتاب المناقب ، جمع فيه فضائل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، ومناقب الأنصار، وأيام الجاهلية ، وهجرة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة ، وكتاب المغازى ، وهذه كلها من السيرة .

ومن راجع كتاب « الفتح الربانى بترتيب مسند أحمد بن حنبل الشيبانى » للمرحوم الشيخ البنّا الساعاتى ، وجد فيه « كتاب السيرة النبوية » يحوى كثيراً من الأحاديث والآثار .

(د) ومنهم من ألف مؤلفاً مستقلاً للسيرة ، لكنه غير شامل لها ، وإنما فى

موضوع من موضوعاتها [1]، وذلك ك :« أعلام النبوة » لأبى داوود السجستانى، والشمائل النبوية لأبى عيسى الترمذى ، ودلائل النبوة لأبى نعيم الاصبهانى ، وكذلك لأبى بكر البيهقى . وغير هؤلاء ممن ألف فى موضوع واحد من موضوعات السيرة ، فمنهم من ألف فى مولده صلى الله عليه وسلم ، ومنه من ألف فى أسمائه ، ومنهم من ألف فى الصفة النبوية ، ومنهم من ألف فى الأخلاق النبوية ، ومنهم من ألف فى الهدى النبوى ، أو فى الطب النبوى ، أو فى المعجزات ، أو فى الخصائص ، أو فى نَسَبه صلى الله عليه وسلم ، أو فى مكاتباته صلى الله عليه وسلم ، أو فى وفاته صلى الله عليه وسلم ، أو فى أصحابه ، أو فى زوجاته أو فى كُتّابه ومواليه ، أو فى فضل الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم .

السيرة فى عصرنا الحاضر :

المؤلفون فى السيرة فى العصور المتقدمة كانوا يسردون أحداث السيرة سردا حسب الترتيب الزمنى لها ، غير مبالين بجمع المعلومات المتشابهة أو انتشارها ، وكل أمنيتهم جمع أحداث السيرة مرتبة ترتيباً زمنياً ، ويوضحون ما يحتاج إلى إيضاح ، ويناقشون ماثبت مما لم يثبت ، وإلى هنا انتهى عملهم .

أما فى عصرنا الحاضر فالمناهج يمكن تقسيمها إلى منهجين .

(أ) منهج المحافظين :

وهؤلاء منهجهم يقوم على المحافظة على الحقيقة العلمية ما أمكن ، بل وخدمتها فتُحقق وفق قواعد علمية منهجية . والقواعد العلمية فى ذلك هى قواعد علم الدراية والتى أسسها وأتمها علماء السنة .

ومع المحافظة على الحقيقة العلمية فإنهم يضيفون استنباطات واستنتاجات من أحداث السيره لم يتعرض لها السابقون ، وللسابقين وجهة نظرهم فى ذلك ، فهم لم يركزوا على مايستنبط ، نظراً لعدم حاجة زمنهم إليه ، ولكثرة العلم وذيوعه وتفرغ الناس للعلم ، وأيضاً لصفاء الأذهان ، وتوقد القرائح .

---

(١) راجع : « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » للسخاوى ، ص ٨٧ ، تصوير دار الكتاب العربى- بيروت .

" أما المعاصرون ، فرأوا حاجة العصر لذلك ، فركزوا عليه ، وساروا فى طريقه مراعين ظروف العصر من قلة الثروة العلمية ، وقصر نفس القارئين ، وإنشغال الناس بالمادة شغلاً لايتأتى معه التروى المؤدى إلى الاستنباط ، فضلاً عن ضوضاء المدنية ووسائل الإعلام التى جعلت البيوت لا تعرف الهدوء ، وحرمت من الراحة .

وأهل هذا المنهج كتبهم جديرة أن توضع فى سلسلة كتب السابقين ، لما جمعته من أصالة المادة العلمية وجمال الاستنباط ، وحسن الاستنتاج ، وسلامة الدراسة .

من أمثلة ذلك :

كتاب « السيرة النبوية » للشيخ محمد محمد أبو شهبة .

وكتاب « القول المبين فى سيرة سيد المرسلين » للشيخ محمد الطيب النجار .

وكتاب « الرحيق المختوم » لصفى الرحمن المباركفورى .

وكتاب « السيرة النبوية دروس وعبر » لمصطفى السباعى .

وكتاب : « خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم» لفضيلة الامام محمد أبو زهرة.

وكتاب : « السيرة النبوية » لأبى الحسن على الحسنى الندوى .

وكتاب : « فقه السيرة » للدكتور محمد سعيد رمضان البوطى .

وكتاب : « فقه السيرة » لفضيلة الشيخ محمد محمد الغزالى .

وأهل هذا المنهج معظمهم يسير على ترتيب السيرة ترتيباً زمنياً ، ومن أمثلة هؤلاء من سبق ذكرهم .

ومنهم من يرتبها ترتيباً موضوعياً ، وذلك حتى يتسنى له الاستنباط ، واستخلاص الفائدة مجزوماً بها بعد استقراء يطمئن القلب للحكم بناء عليه ، ومن هؤلاء : الدكتور عماد الدين خليل فى كتابه : دراسة في السيرة » .

(ب) منهج مقلدى الغرب :-

ومنهج هؤلاء يجعل العقل حكماً فى كل شئ !! أما كون الخبر لا يحتمل إلا الصدق فلا اعتبار له عندهم ، ولا ميزان لصحة الراواية ولا اعتبار لصحة السند ، وإنما ماوافق عقولهم قبلوه ، وما لم يوافق عقولهم تركوه ، وإن ثبت بأصح السبل .

وهؤلاء يقلدون الغرب فى منهجهم ذا ، فالغرب يخضع الدين للعقل ، ولا يقدم على العقل شيئا ، ولو أن هؤلاء شمُّوا رائحة التَّروىً فى الحقيقة العلمية ما فعلوا ذلك ، فهناك بَوْن شاسع بين مايسميه الغرب دينا ، وبين الاسلام .

فالمسيحية اعتراها من التحريف والتبديل ما لايخفى ، وفوق هذا فهى فى أصح أوضاعها مُصلِحةُ لمجتمع ما فى فترة ما .

أما الاسلام فقد تكفل الله بحفظه ، وأرسل به رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم إلى البشرية جمعاء ، يصلحها ويأخذ بيدها إلى قيام الساعة . فكيف يسوّى هؤلاء بين الإسلام وغيره ؟!! . ويبنون على ذلك أحكاماً ؟!!

راح هؤلاء يكتبون فى السيرة مع أنهم ليسوا من المتخصصين فيها- ويستبدلون بالميزان العلمى - الذى لا يختلف من شخص إلى شخص - ميزان العقل - والذى يختلف من شخص إلى شخص ، وتتدخل فيه نفسية الباحث ورغباته ، ودفين أغراضه .

وخطورة هذا المنهج تتضح حينما تعلم أنهم أنكروا المعجزت والخوارق ، وراحوا يصورون رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه بطل ، وعبقرى ، وأن الاسلام ثورة ، ومبادئه اشتراكية !!! .

ومن أبرز هذه الكتب ما كتبه د / محمد حسين هيكل بعنوان « حياة محمد » وما كتبه محمد فريد وجدى فى مجلة «نور الاسلام» تحت عنوان «السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة» وكذا ماكتبه المستشرقون وتلامذتهم فى السيرة .

ويكفي أن تسمع لقول هيكل هذا إننى لم آخذ بما سجلته كتب السيرة وكتب الحديث لأننى أجرى فى هذا البحث على الطريقة العلمية الحديثة (١) .

---

(١) صـ٤٧ من الطبعة الثامنة .

يكفى أن تسمع هذا لتعرف كيف أنه اعتبر « الطريقة العلمية » - كما يقول - بديلاً عن الحديث . وكيف يقدم هذا على الحديث والله يقول :«فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً »[١]!! ويقول : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، ومانهاكم عنه فانتهوا[٢] » .

يكفى أن تسمع لقول د/ حسين مؤنس : المنامات يستوى فيها كل الناس ، فهى أضغاث أحلام بلا ضابط ١ هـ وكأنه لم يقرأ سورة الصافات أو قرأها دون تفكير وفهم أو قرأها وغلبته ثقافته الغربية ، وإن هذا الكلام منه كان يمكن أن يتغير تماماً لو أنه قرأ فى السورة المذكورة قول الله تعالى " فلما بلغ معه السعى قال يابنىّ إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى . قال ياأبت افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين - فلما أسلما وتلّه للجبين وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين [٣]" .

إن هذه الآيات الكريمة تبين أن رؤيا الأنبياء لايدخلها الوهم ولا الأضغاث ، إنها مصدر من مصادر التكليف .

وينهال د/ مؤنس فينكر الحديث الصحيح ، ويشكك فى عدالة الصحابة ، ويكتب كلمات فى غاية الغرابة ، فيشكك ف« صدق عمر حينما قال : إن الرسول لم يمت ، ويقول : والعباس كان يفكر تفكيراً جاهليا. ويقول : والعباس إلى ذلك الحين كان جاهلى الفكر والإحساس .

ويقع فى أهل السنة والسلف [٤] .

وهذا الفريق من المؤلفين كتابته فى السيرة مجازفة ، فهو غير مؤهل للكتابة

---

(١) سورة النساء آية ٦٥ .
(٢) سورة الحشر آية ٧ .
(٣) سورة الصافات آيات ١٠٢ - ١٠٥ .
(٤) كتاب الدكتور / حسين مؤنس اسمه « دراسات فى السيرة النبوية » وقد كتبت رداً عليه ، نشرفى مجلة الأزهر فى عددى جمادى الأولى - وجمادى الآخرة سنة ١٤٠٧ هـ وفى مجلة منبر الإسلام عددى محرم وصفر سنة ١٤٠٨ هـ .

فـيـهـا ، فليس عنده دراية بمصـادرها الأولى من القـرآن الكـريم والسنة النبـوية ، وماكتبه علماء السير .

ويكفى تدليـلاً على هذا مـاراح هيكل يلوح به فى الآفـاق ، ويعلى من شـأنه ، ويؤكدا أنه القيـاس الصحيح لقبول الحديث ، وذلك هو الحديث « إنكم ستختلفون من بعدى فما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله فما وافقه فمنى ، وما خالفه فليس عنى » راح يعلى من قدر هذا المقياس [(١)] ولم يعلم - لعدم درايته بالحديث أن هذا الحديث غير صحيح [(٢)] !! .

وأيضـاً مـاسبق من خطأ د/ حسين مـؤنس فى حديثه عن رؤيا الأنبيـاء ، وأن جهله بالقرآن الكريم هو الذى أوقعه فى ذلك .

وهناك منهج ثالث بدأ فى الظهر والإنتشار ، هذا المنهج يقوم على جمع الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية المتعلقة بموضوعات السيرة ، وإضافة هذه النصوص إلى كتب السيرة ، والهدف من وراء ذلك :-

١- تأكيـد حقـائق فى السـيـرة ، فـإنه القـصـة إذا قُرنت بالأسانيد ، وعُـرف من أخرجهـا من أئمـة الحديث ، الذين هم أهل الدراية والتـحـقيق ، فإنهـا تكون أكثر ثبوتا عند القارئ والسامع ، وأعلى من ذلك مالو كانت جاءت فى القرآن الكريم .

٢- إضافة جديد إلى السيرة ففى كتب التـفسير ، وفى كتب الحديث زيادات على ما فى كتب السير ، فـإذا اجتهد المؤلف وجمع من هذه العلوم الثلاثة كتـابه فـإنه يضـيف جديدا إلى السـيرة ورحم الله الحـافظ الذهبى إذ يقـول فى أثناء الحديث عن سيرة ابن اسحاق - وثمَّ أحاديث جمّة فى الصحاح والمسانيد مما يتعلق بالسيرة والمغازى ، ينبغى أن تضم إليها وترتب [(٣)] ا هـ .

---

(١) الطبعة الثامنة ص ٥٠ تقديم الطبعة الثانية .

(٢) راجع الرسالة للامام الشافعى صـ١٠٤ ، ١٠٥ فقرات ٦١٧ - ٦٢٣ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٧ / ٥٢ .

٣ - التدقيق فى بعض أشياء فى كتب السير ، فإن الجمع بين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وكلام علماء السير ، مما يزيد الأمر تدقيقاً وتمحيصا ، ويثرى هذه العلوم بعضها ببعض [١] .

وهذا المنهج ليس جديداً ، وإنما هو قديم ، إلا أن المؤلفات فيه قليلة ، منها « الوفا بأحوال المصطفى صلى الله عليه وسلم » لابن الجوزى ، والسيرة النبوية لابن كثير ، التى هى جزء من " البدية والنهاية " .

ومن أهل عصرنا كتب الشيخ محمد أبو شهبة رحمه الله تعالى فى السيرة فى ضوء الكتاب والسنة وعمله هذا جليل ، وكتب محمد عزة دروزة فى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم صوراً اقتبسها من القرأن الكريم .

وكتابى هذا ، بذلت فيه كثيراً من الجهد ، وأتعبت نفسى فى جمع أحاديث كل موضوع مضافاً إلى ماكتب علماء السير وعلماء التفسير ، أسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق ، السداد .

وانما كتبت فى هذه النقطة - السيرة فى عصرنا الحاضر - لأمرين :-

الأول : أن أبيّن لك مصادر السيرة ، فليست السيرة محصورة فى كتب علماء السير ، وإنما منها الكثير فى كتب التفسير ، وفى كتب الحديث .

الثانى : أن أبيّن لك أنه ليس كل ما كتب فى السيرة يقرأ ، وإنما قد تجد كتابا فى السيرة لا يستحق القراءة ، بل لا يصح أن يقرأ ، إذ أن مؤلفه يحمل فكراً مادياً ، والغريب أن الذين درسوا فى جامعات غير إسلامية يحرصون كثيرا على الكتابة فى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكأن أصحاب التخصص قد غابوا !! ولقد سألنى أحد الإخوة فى إحدى المحاضرات ماذا نقرأ فى السيرة ؟

---

(١) راجع استشكال المحدثين فى "مَنْ المرسَل للإتيان بخبر الأحزاب" وقد محصْت ذلك فى القسم الخاص بغزوة الخندق .

فأجبته بأننى لن أقول لك لا تقرأ كتاب فلان ، فلان ، خشية الغيبة أو تجريح الناس بما يمكن الاستغناء عنه ، وإنما أضع ضابطا لما يقرأ ، هذا الضابط هو : أن الكتاب الذى تخرج مؤلفه فى جامعة إسلامية ، يقوم بالتدريس منها أساتذة مسلمون ، وقبلت الأمة الاسلامية فكر هذا المؤلف وأقرته (١) فهو كتاب يقرأ ، أما ماعدا ذلك فإنى لا آمن أقلامهم .

ومجمل القول أن اقرأ فى كتب السيرة ، وانظر ما يغذيها من كتب التفسير والحديث ، ولا تعتمد إلا قول من تعلّم على يد المسلمين ، وقبل المسلمون علمه .

أشهر كتب السيرة

حظيت بعض كتب السيرة قديما وحديثا بالشهرة فى المدرسة الإسلامية ، وهذه الشهرة مبعثها ما اشتمل عليه كل كتاب من تحقيقات وتدقيقات ، جعلته ذا قدر عند العلماء وطلاب العلم . وبمشيئة الله تعالى أعرف ببعض هذه الكتب ، لكني سأطيل الحديث عن ابن اسحاق وكتابه في السيرة نظراً لأنه يعتبر المؤسس لعلم السيرة ، وكتابه أوسع الكتب وأشملها ، وأساسها ومصدرها . فأقول وبالله التوفيق .

١- السيرة النبوية لابن اسحاق :-

إبن اسحاق هو :

أبو بكر محمد بن اسحاق بن يسار المطلبي مولاهم ، لأن ولاءه لقيس بن مخرمه بن المطلب ابن عبد مناف القريشى ، وجده يسار من سبى عين التمر (بلدة قرب الأنبار بالعراق) سباط خالد ابن الوليد سنة ١٢ هـ .

نشأ ابن اسحاق فى المدينة المنورة - علي صاحبها أفضل الصلاة وأتم

---

(١) من أمثلة ذلك الشيخ محمد أبو شهبة ، الشيخ محمد الغزالى ، وفضيلة الشيخ محمد الطيب النجار ، فهؤلاء تخرجوا فى جامعة الأزهر ، وقبلت الأمة علمهم .

التسليم - وكرّس جهده لجمع السنة ، وحفظ الحديث من أفواه الشيوخ ، فتتلمذ على الكثير من الكبار ، ولسوف تدرك ذلك إذا علمت أنه رأى أنس بن مالك صاحب رسول الله صلي الله عليه وسلم ، وهذا يجعله علي حسب رأى البعض (١) من التابعين .

فسمع من القاسم بن محمد بن أبى بكر ، وأبان بن عثمان بن عفان ، وأبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، ونافع مولى ابن عمر ، وابن شهاب الزهرى .

وحل ارتحل وتنقل في كثير من البلدان ، ولقي الكثير من الشيوخ وسمع منهم . ويكفي لتصوير ماجمعه من رحلاته هذه أن تعلم أنه انفرد بأحاديث عن شيوخ لم يروها غيره .

ولقد بلغ في علم الحديث مبلغاً عظيماً ، حتى قال شعبة -وشعبة من هو ؟! :- محمد بن إسحاق أمير المؤمنين - يعنى في الحديث -. وكان أصحاب الزهرى يلجؤون الي محمد بن اسحاق فيما شكُوا فيه من حديث الزهرى ثقة منهم بحفظه .

وهذه الحقائق تجعلك تدرك قيمة ماعند ابن اسحاق من حديث ، فإنه إذا كان حجة فيما عند ابن شهاب الزهرى ، وابن شهاب من أكثر أهل زمانه حفظا للسنة ، حتى قال عمر بن عبد العزيز : « لم يبق أحد أعلم بسنة ماضيه من الزهرى » وقال الإمام مالك : بقى الزهرى وما له فى الدنيا نظير . ومع ذلك تفرد بأحاديث عن شيوخ ، وهو في نفس الوقت قد شهد له شعبة -إمام أهل الجرح والتعديل في زمانه - بأنه أمير المؤمنين فى الحديث ، فإن ذلك يبين أن الرجل كان إماماً جهبذاً

ولذا وَثَّقهُ يحى بن معين ، وأحمد بن حنبل ، ويحى بن سعيد القطاف ، واحتجوا بحديثه وأخرج له مسلم في المتابعات ، واستشهد به البخارى في مواضع

---

(١) على رأى الذين يرون أن من رأى الصحابى فهو تابعى ، وهناك من يقول : مجرد رؤية الصحابى لا تكفى وإنما لابد من المجالسة والسماع .

ولولا قول مالك فيه لأكثر الشيخان عنه ، وروى له أصحاب السنن : أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه .

قال ابن عدى : فَتَّشْتُ أحاديثه الكثيره فلم أجد ما تهيأ أن يقطع عليه بالضعف، وربما أخطأ واتهم فى الشيىء بعد الشيىء كما يخطىء غيره .

وكما أثنى عليه كبار الأئمة ووثقوه ، فلقد تتلمذ أيضاً جهابذة عصره ، فسمع منه سفيان الثورى ، وسفيان بن عيينه ، وشعبة ، وابن جريج ، وحماد بن سلمة ، وحماد بن يزيد ، وشريك بن عبد الله النخعى ، وزياد بن عبد الله البكائى ، وذكر أن يحى بن سعيد الأنصارى - شيخ الإمام مالك - روي عنه أيضاً .

وبعد أن تقدم ابن اسحاق فى السنة ، رأى أن يفرد مؤلفاً خاصاً بصاحب السنه صلى الله عليه وسلم .

فكرَّس كثيراً من جهده لجمع الأخبار والأحاديث والقصص المتعلقة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألف كتابه « سيرة النبى صلى الله عليه وسلم » أو « المغازى والسير» أو « سيره إبن إسحاق » . ولقد بلغ ابن اسحاق في العلم بالمغازى والسير درجة جعلته إمام أهلها ، حتى قال ابن شهاب الزهرى : من أراد المغازى فعليه بابن اسحاق .

وقال الشافعى : من أراد أن يتبحر فى المغازى فهو عيال على ابن اسحاق .

وقال الموزباني : ومحمد بن اسحاق أول من جمع مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم وألفها .

وقال ابن عدى : ولو لم يكن لابن اسحاق من الفضل إلا أنه صرف الملوك عن الإشتغال بكتب لا يحصل منها على شيء للإشتغال بمغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومبعثه ومبتدأ الخلق لكانت هذه فضيلة سبق بها ابن اسحاق .

ولسوف تدرك سر تقدم الرجل فى علم السيرة إذا عرفت أن تتلمذ على كبار أئمة السيرة والمؤلفين فيها ، المتقدمين عليه ، فلقد أكثر من الأخذ عن عروة بن

الزبير ، وأخذ أيضاً عن أبان بن عثمان بن عفان ، وأيضاً عن ابن شهاب الزهرى ، وثلاثتهم من المؤلفين فى السيرة - كما سبق بيان ذلك - .

ومع إمامة ابن اسحاق الحديثية ، فإنه لم يسلم من طعن ، فإن قلة من الأئمة قد طعنت فيه ، إلا أن جرحهم هذا لم تتوفر فيه شروط الجرح المقبول ، ولذا رده الأئمة، واعترفوا بمنزلة ابن اسحاق .

والراجح ان ابن اسحاق ولد سنة ٨٥ هـ ، أما وفاته فاختلفت فيه ، فقيل سنة ١٥٠ ، وقيل ١٥١ ، وقيل ١٥٢ ، وقيل ١٥٣ ، والراجح الثانى (١٥١هـ) .

كتابه فى السيرة :-

المتلمس لمنهج ابن اسحاق في هذا الكتاب يجد أن الكتاب ينقسم إلى ثلاثة أجزاء هى :

١/ المبتدأ : ويتناول التاريخ الجاهلى ، وابن اسحاق لاعني بأسانيد أخبار هذا القسم إلا نادراً ، ويستقي أخباره من أهل الكتاب .

٢/ المبعث : ويشمل حياة النبى صلى الله عليه وسلم فى مكة والهجرة .

٣/ المغازى : ويشمل حياة النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة .

وهو فى القسمين الثانى والثالث يسير علي النهج التالى :

أ / يذكر الإسناد فيما يرويه عن غيره في الغالب ، وربما يعلق . أما ما كان من عنده هو فانه يذكره عن لسان نفسه .

ب/ يبدأ الموضوع بموجز لطيف جداً ، ثم يتبعه بما رواه عن شيوخه وان عَلَوا ، لم يتبعه بما كان من معلوماته .

جـ/ سار علي الترتيب الزمنى ، ولم يراعى شيئاً من الناحية الموضوعية ، فيتكلم عن أولاد الرسول صلي الله عليه وسلم من خديجة ، ولا يتعرض لذكر ابنه صلى الله عليه وسلم ابراهيم الذى من ماريه ، ويتكلم عن السابقين فى الإسلام لكن ليسوا معاً ، وإنما حسب دخولهم الإسلام .

هذا ويلاحظ عليه فى هذين القسمين كثرة تتبعه لأطراف الموقف وان طال ، فتجده يتتبع أسماء للمهاجرين الى أرض الحبشة ، وكذلك يتتبع أسماء أعداء الدعوة الإسلامية من اليهود ، وكذلك يتتبع أسماء من حضر بدراً وهكذا .

وهذا ان كان فيه طول بالنسبة للبعض ، ففيه كثرة فائدة بالنسبة لآخرين ، فمنه تعرف حال الصحابى ، أمن البدرين أولاً ، وهل شهد معركة كذا أولاً ، وكل ذلك عظيم الفائدة نافع لمن يبحث في علم الرجال وغيره .

العلماء وسيرة ابن اسحاق :

جازت سيرة ابن اسحاق ثقة كثير من الأئمة والعلماء ، مما جعلهم يقبلون عليها، وينتفعون بها ، ويبدو لى - والله أعلم - أن الكتاب النافع يستفيد به العلماء ، ويستفيد هو أيضاً من العلماء ، فلما كانت سيرة إبن إسحاق نافعة ، استفاد العلماء بها ، واستفادت منهم ، فخدمها العلماء خدمات جليلة مابين مهذب مختصر ، ومحقق مدقق ، وشارح مفصل مدقق .

ومن أبرز من خدمها الإمام أبو محمد عبد الملك بن هشام - وسيأتى التعريف به إن شاء الله تعالى - .

٢- سيرة ابن هشام :

يعتبر ابن هشام من أصحاب اليد البيضاء ، والباع الطويل في خدمة علم السيرة ، ساعد في خدمتها بأسهم اكتسبها من علمه باللغة والأنساب ، وكثير درايته بالشعر .

وهذه الكنيه « ابن هشام » وان كانت تطلق علي عديدين ذكر السيوطى سبعة من أشهرهم [١] ، فابن هشام صاحبنا هو : أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى البصرى المصرى » .

---

(١) فى كتابه « بغية الوعاة فى طبقات اللغوين والنحاة » .

مشهور بحمل العلم ، وذو باع طويل في النحو ، واللغة العربية ، عارف بالأنساب والشعر ، له كتاب فى أنساب حمير وملوكها اسمه «التيجان لمعرفة ملوك الزمان [1] » وله كتب فى شرح ما وقع فى أشعارالسير من الغريب .

توفى سنة ٢١٨ ، وقبل ٢١٣ بمصر .

كتابه فى السيرة :

لم يؤلف ابن هشام كتاباً فى السيرة مستقلاً، وانما هذب كتاب ابن اسحاق [2] ، فأزاح كثيراً ما يؤخذ عليه ، وأضاف اليه كثيراً مما يزينه ، مما به أصبح الكتاب صورة أخري تفوق الأصل كثيراً ، ولعل هذا هو السرفى أن أصبح يطلق علي هذه السيرة «سيرة ابن هشام » واشتهرت بذلك أكثر من اشتهارها بسيرة ابن اسحاق .

ويظهر دور ابن هشام فى تهذيب سيرة ابن اسحاق مما قاله فى المقدمة [3] ، فقد قال : « وأنا إن شاء الله مبتدىء هذا الكتاب بذكر اسماعيل بن ابراهيم ، ومن ولَدَ رسولَ الله صلي الله عليه وسلم من ولده ، وأولادهم لأصلابهم ، الأول فالأول، من اسماعيل الى رسول الله صلي الله عليه وسلم ومايعرض من حديثهم ، وتارك ذكر غيرهم من ولد اسماعيل على هذه الجهة للإختصار ، الي حديث سيرة رسول الله صلي الله عليه وسلم ، وتارك بعض ماذكره ابن اسحاق فى هذا الكتاب ، مما ليس لرسول الله صلي الله عليه وسلم فيه ذكر ، ولا نزل فيه من القرآن شىء ، وليس سبباً لشىء فى هذا الكتاب ، ولا تفسيراً له ، ولا شاهداً عليه ، لما ذكرت من الإختصار ، وأشعاراً ذكرهم لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ، وأشياء بعضها يشنع الحديث به ، وبعض يسوءُ بعض الناس ذكرُه ، وبعض لم يقر لنا

(١) وهو مطبوع .

(٢) روى بن هشام سيرة بن اسحاق عن زياد البكائى عن ابن اسحاق ، أى أنه بين ابن هشام وابن اسحاق واحد ، هو زياد بن عبد الله الطفيل البكائى العامرى ، الإمام الثقة ، أخرج عنه البخارى ومسلم ، توفى سنة (١٨٣)

(٣) فى أوائل الكتاب بعد أن سرد النسب الزكى من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى آدم عليه السلام .

البكائي بروايته ، ومُسْتَقْصٍ إن شاء الله تعالى ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له والعلم به » أ. هـ .

ومن قول ابن هشام هذا يتضح لنا ما يأتي :

١/ أن اختصر اختصاراً غير مخل ، إذ حذف ما لا تدعو الحاجة إليه ،وكذا ما يسوء ذكره ، وما لم يثبت .

٢/ أن زاد على الكتاب زيادات من عنده .

والمتتبع لما فعله ابن هشام يتبين له أنه وضح كثيراً من مسائل الكتاب ، وجلّي كثيراً من غوامضه ، وكذلك شرح كثيراً من غريبه ، وخدم الكتاب فيما يتعلق باللغة ، وكذا ما يتعلق بالأنساب والأعلام . ولا غرابة في الأمر بعد أن عُلم - مما تقدم - أن ابن هشام إمام فى العربية والأنساب .

ويجد المتتبع لما فعله ابن هشام أيضاً أنه قد يتعقب ابن اسحاق فى بعض المسائل ، فيبدى رأيه بعد ذكر رأى ابن اسحاق ، وفى أسلوب عالمٍ ذى خلق [١] . وأيضاً قد يستدرك عليه بعض شيء فاته [٢] .

هذا ولقد سلك ابن هشام مسلكاً فى غاية الدقة ، إذ مَيَّز كلامه عن كلام ابن اسحاق . فما أضافه من عنده بدأه بـ« قال ابن هشام » فإذا انتهى قال : « قال ابن اسحاق » فأصبح القارىء يعرف ما كان من الكتاب الأصلى مما هو من كلام ابن هشام .

قال ابن خلكان [٣] : وابن هشام هذا ، هو الذى جمع سيرة رسول الله صلي الله عليه وسلم من المغازى والسير لإبن اسحاق ، وهذبها ولخصها ، وهي السيرة الموجودة بأيدى الناس ، والمعروفة بـ « سيرة ابن هشام » أ.هـ .

---

(١) راجع تعريف البَحَيرَة والسائبة والوصيلة والحامى فى أوائل الكتاب .
(٢) راجع الحديث عن أبنائه صلى الله عليه وسلم ، وكذلك وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم .
(٣) فى « وفيات الأعيان » ترجمة عبد الملك بن هشام .

العلماء وسيرة ابن هشام :

وبقيت سيرة ابن هشام هذه يتناولها العلماء بالشرح والتمحيص والإختصار والنظم ، فشرحها شرحاً مطولاً أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أصبغ الخثعمى السهيلى [1] المولود سنة ٥٠٨ هـ ، والمتوفي فى شعبان من سنة ٥٨١ هـ عن اثنين وسبعين عاماً في كتابه « الروض الأنف » الذى أكثر فيه من التحقيق والشرح والزيادة ، حتى أصبح كتاباً ثالثاً بجانب كتاب ابن اسحاق ، وكتاب ابن هشام .

وشرح غريبها مع نوع تحقيق أبو ذر الخشنى المتوفى سنة (٦٠٤) في كتابه : «شرح السيرة النبوية » .

واختصرها مع زيادة ماتدعو الحاجة اليه برهان الدين ابراهيم بن محمد المرحل الشافعى فى كتابه « الذخيرة في مختصر السيرة » فرغ منه سنة (٦١١) .

واختصرها كذلك أبو العباس أحمد بن إبراهيم الواسطى فى كتابه « مختصر سيرة ابن هشام »فرغ منه سنة (٧١١) .

ونظمها أبو محمد عبد العزيز بن محمد الديرينى المتوفى سنة (٦٠٧) .

ونظمها كذلك أبو نصرالفتح بن موسى المغربى المتوفى سنة (٦٦٣) .

ولا زالت أقلام العلماء تتناولها حتى يومنا هذا ، فاختصرها الأستاذ عبد السلام هارون فى كتابه « تهذيب سيرة ابن هشام » . ولقد سار فى إختصاره هذا على نهج علمى جدير بالتقدير .

٣- سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم للحافظ بن كثير :-

الحافظ بن كثير من العلماء المشاهير ، فهو صاحب التفسير الذى يعد أشهر كتب التفسير ، ومؤلفاته في المكتبة الإسلامية تجعل اسمه على الألسنة كثيراً .

---

(١) نسبة الى واد بالأندلس اسمه سهيل ، فيه قرى .

والحافظ ابن كثيراً من علماء القرن الثامن الهجرى فلقد عاش في الفترة من ٧٠١ الى ٧٧٤ وكان من العلماء المعدودين فى التفسير والحديث والتاريخ والفقه واللغه .

كتابه في السيرة :-

ألف الحافظ ابن كثير كتابة البداية والنهاية في التاريخ « فجعله ثلاثة أقسام :

الأول : تاريخ البشرية من بدء الخليقة الى بعثة سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم .

الثانى : تاريخ دولة الإسلام ، بدأه بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة ، ثم تناول سيرة صلي الله عليه وسلم فى المدينة ، متحدثاً عن كل سنة على حدتها ، بما فيها من أحداث ووفيات المشاهير ، وبعد أن انتهى كتاب [١] السيرة عقد كتاباً لشمائله [٢] صلى الله عليه وسلم ، ثم كتاباً لدلائل نبوته [٣] صلى الله عليه وسلم ، ثم سار في التاريخ الإسلامى يذكر كل سنة على حدتها ، بأحداثها ووفياتها حتي وصل الي عصره [٤] .

الثالث : ما سيكون في نهاية الدنيا في فتن وملاحم ، وكذلك البعث والنشور الى آخر السمعيات [٥] .

وواضح من هذا أن كتاب البداية والنهاية إشتمل على سيرة رسول الله صلي

---

(١) معنى كتاب هنا القدر الخاص بالسيرة وكيثرا ما يجعل علماء الآ سلام المؤلف من مؤلفاتهم مشتملا على كتب ، هى بمثابة الأبواب فى التأليف الحديث .

(٢) الشمائل هى الصفات الخلقية - بكسر الخاء - والخلقية - بضم الخاء .

(٣) دلائل نبوته صلي الله عليه وسلم يراد بها الأمور الخارقة للعادة التى أيده الله سبحانه وتعالى بها .

(٤) وصل بالتاريخ الى سنة سبع وستين وسبعمائة ، أى قبل وفاته بسبع سنوات ، وهذا القسم يسمى « البداية » ويقع في أربعة عشر جزءاً .

(٥) وهذا القسم يسمى « النهاية » أو « الفتن والملاحم » وقد طبع مستقلاً ، وفى الحقيقة هو تكملة البداية ، وهو يقع فى جزئين .

الله عليه وسلم وعلى شمائله ، وعلي دلائل نبوته صلي الله عليه وسلم . أى أن كتاب سيرة ابن كثير الذى أتحدث عنه هنا لم يؤلفه ابن كثير مستقلاً ، وإنما هو جزء من البداية والنهاية .

وابن كثير فى القدر الخاص بسيرته صلى الله عليه وسلم شأنه فى بقية مؤلفاته محقق مدقق ، جمع فى كتابه بين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وكلام علماء السير ، مع تحقيق فى المسائل ، وبعد عن الأخبار الموضوعية ، وربما ذكرها ليبين أنها موضوعة لا أساس لها من الصحة . وهذا المنهج أعلى فدر الكتاب ، ذلك أنه اشتمل على حقائق فى السيرة أكثر من كتب السير ، وخلا عن الموضوعات والأباطيل .

وسيرة الرسول صلي الله عليه وسلم لابن كثير جزء من كتاب البداية والنهاية ، وقد طبع هذا القدر فى ثنايا البداية والنهاية ، وطبع مستقلاً عن البداية والنهاية .

هذا ولابن كثير كتاب آخر فى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إختصره من الكتاب السابق ، وسماه « الفصول في إختصار سيرة الرسول الله صلى الله عليه وسلم ».

وهو مختصر جداً ، يصلح تذكرة لمن قرأ الموسوعات فى السيرة .

٤- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد صلى الله عليه وسلم :-

مؤلف هذا الكتاب هو الإمام شمس الدين أبو عبدالله محمد بن يوسف الصالح الشامى ، أحد علماء القرن العاشر الهجري ، إذ توفي سنة ٩٤٢ .

وشمس الدين الشامي أحد أئمة عصره المبرزين فى علوم القرآن الكريم والسنة النبوية ، وصاحب التصانيف النافعة ، وأجل تلاميذ الحافظ الأسيوطى ، وكان - رحمه الله تعالي - محدث الديار المصرية ومسندها .

كتابه فى السيره :-

الإمام الشامي من علماء القرن العاشر الهجرى ، وعلى ذلك تقدمه كثيرون في التأليف فى السيرة النبوية ، فرأى أن يجمع ما تفرق فى هذه الكتب ، مع بيان مايحتاج الى بيان ، وتحقيق القول فيما اختلف فيه ، ولقد بذل جهداً كبيراً في الجمع ، حتي جاء كتابه أجمع كتب السيرة .

وهو يذكر الموضوع نقولا من الكتب عازياً إليها ، ثم يعقب ذلك ببيان الغريب ، فيشرح الكلمات الغريبة ، ويبين ماورد فيما نقله من الكتب وقد يكون غامضاً ، فإذا كانت حادثة بيّنها ، وإن كان شخصاً عرف به ، ثم يذكر تنبيهات يبين فيها مايحتاج الى تحقي ، ويبذل جهده في هذا (١) .

وهذا الكتاب يقوم بطبعه الآن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وقد ظهر منه سبعة أجزاء

٥- زاد المعاد فى هدى خير العباد:

مؤلف هذا الكتاب الإمام أبو عبدالله شمس الدين محمد إبن أبى بكر بن أيوب الدمشقى ، المعروف بابن قيم الجوزيه ، من أجلة علماء القرن الثامن الهجرى ، وأجل تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية .

ومدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية التى نشأ فيها ابن قيم الجوزية من المدارس التي إبتعدت عن البدع والخرافات ، بل حاربت البدع والخرافات ، وأخذت بيد الكثيرين الى المسلك القويم .

لقد تقدم ابن القيم فى علوم الإسلام ، فكان عالماً بالتفسير ، وبأصول الدين ، وبالحديث متونه ورجاله ، وبالفقه وأصوله ، وبالعربية .

---

(١)راجع كتابى « طرق تخزيج حديث رسول الله صلي الله عليه وسلم » صـ ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

ولقد تتلمذ عليه الكثيرون ، وألف الكثير من المؤلفات النافعة ، التى جمعت بين أصالة القديم ، وجدة الحديث .

عاش - رحمه الله تعالى - فى الفترة من ٦٩١ إلى ٧٥١ .

كتابه فى السيرة :

قرأ ابن قيم الجورية الكثير من كتب السيرة ، وهو إمام مجتهد ، له فكرة ورأيه في ترتيب المادة العلمية . فرأى أن يمزج بين السيرة والسنة ، بل وبين كثير من علوم الإسلام ليبين للقارىء هَدْى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل أمور الحياة ، يبين له المنهج الذى سلكه صلي الله عليه وسلم ،، كى يسهل علي المسلم أن يسير سيره صلي الله عليه وسلم .

لقد ضمن كتابه موضوعات السيرة والسنة ، غير حريص علي الترتيب الزمنى - شأن علماء السير - ولا على التبويب الفقهى - شأن علماد الفقه والسنن - وإنما أراد رسم صورة واضحة لما كان عليه صلي الله عليه وسلم . فجاء كتابه جديداً في المكتبة الإسلامية عظيم النفع ، عالي القدر .

والكتاب مطبوع عدة طبعات ، وهو شائع ذائع ، جزي الله مؤلفه خيراً .

حالة العالم قبل بعثته صلى الله عليه وسلم

ولد الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم فى عام (٥٧٠) للميلاد [٢]، وبعث فى عام (٦١٠) للميلاد ، فكيف كان حال العالم فى هذه الفترة ؟ .

فائدة الموضوع :

سؤال يطرح نفسه ، لأنه إذا عرف الدارس حال العالم وقتذاك ، فإنه يعرف مدى حاجة البشرية إلى رسول ، ويعرف أيضاً دور الدعوة وأثرها فى هذا المجتمع الإنسانى .

ومن ناحية أخرى فانه يعرف المناخ الذى ولدت فيه الدعوة ، والصعوبات التى واجهت رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم فى سبيل نشر الدعوة فى هذا الوسط.

منهج دراسة الموضوع :

ولسوف أستعرض أحوال كل دولة أو مجموعة على انفراد ، لأخلص إلى رؤية عامة لحال البشرية آنذاك ، هذه الرؤية تُظْهر للقارىء مدى حاجة البشرية إلى رسالة وقتذاك .

أما إذا قارن القارىء بين حال البشرية هذه ، وبين حالها بعد الإسلام فانه يعرف قدر الإسلام ، ويعرف مدى ضرورة الإسلام لحياة البشرية .

هذا وسيتضح للقارىء أيضاً -إن شاء الله تعالى- من هذا العرض، الصعوبات التى كانت أمام الدعوة ورسولها صلى الله عليه وسلم .

وعمدتى فى هذه الدراسة : القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، إذ هما أصح وأثبت مايمكن أن يعتمد عليه باحث . ومالم يرد له ذكر فى القرآن ولا فى السنة فسآخذ بقول من يوثق فيه .

---

(١) وراجع الإعلان بالتوبيخ للسخاوى صـ ٨٧ - ٩٢ .

(٢) لم يؤرخ المسلمون المتقدمون لمولده صلى الله عليه وسلم بالتاريخ النصرانى (الميلادى) وانما عرف ذلك عن طريق حساب الفلكيين ، وهؤلاء منهم من يؤرخ بماذكرته هنا ، ومنهم من يقول : ولد صلى الله عليه وسلم سنة (٥٧١) ، وقد يكون الفرق يوماً واحداً بين القولين .

اليهودية = ديانة مجموعات مبعثرة =

كانت اليهودية فى هذه الفترة - القرنين السادس والسابع - ديانة مجموعة من البشر يجوز لى أن أسميها " المجموعة المتسلقة " إذ أنها لاتعتمد على نفسها ، وانما تعتمد على غيرها كما قال الله سبحانه : " ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله ، وحبل من الناس " (١) واليهود قوم بينهم وبين الوثنية جاذبية خاصة ، فلقد كان بينهم رسول الله موسى ، وهم يطلبون الوثنية منه نفسه فقالوا له : " اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة (٢) " وذهب موسى عليه السلام لمناجاة ربه ، فعاد فوجدهم عاكفين على عبادة عجل قائلين : " لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى (٣) " .

والحال هو الحال بعد موسى كما قال الله تعالى " ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ، قالوا : سمعنا وعصينا ، وأشْربواً فى قلوبهم العجل بكفرهم ... (٤) " .

وعقيدتهم فى الله تطغى عليها الوثنية :

يصور ذلك قولهم لموسى عليه السلام فيما حكاه القرآن عنهم " أرنا الله جهره" (٥) وقولهم "نحن أبناء الله وأحباؤه (٦)" وقولهم "يد الله مغلولة غُلّت أيديهم(٧) " ويصوره أيضاً قول الله سبحانه " وقالت اليهود عزير ابن الله (٨) " .

---

(١) آل عمران آية ١١٢ .
(٢) الأعراف آية ١٣٨ .
(٣) طه آية ٩١ .
(٤) البقرة آية ٩٢ ، ٩٣ .
(٥) النساء آية ١٥٣ .
(٦) المائدة آية ١٨ .
(٧) المائدة آية ٦٤ .
(٨) التوبة آية ٣٠ .

أما مع الرسل فهم مكذبون قتلة :

قال الله " أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقا كذبتم ، وفريقاً تقتلون " (١) وقال سبحانه " كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق " (٢) وفى قوله سبحانه " واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله ، قالوا : نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم ، قل : فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين " (٣) - فى هذه الآية بيان لكثير من صفات اليهود وموقفهم من الرسل .

وهم إذ يكذبون الرسل ويقتلونهم : يُألّهون الأحبار :« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله» (٤) .

أما مع الكتب السماوية فمحرفون مختلقون :

يصور ذلك قول الله تعالى : " فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً . فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون " (٥) وقوله سبحانه : " أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون " (٦) .

ومن هذه النصوص يتضح لنا حال أتباع هذه الديانة ، والتى أصبحت لاتعدو مجموعة من الطقوس والتقاليد ، وضاع منها ركائز الدين الأساسية ، فلا توحيد ، ولا إيمان برسل الله ، ولاتقديس ولا احترام لوحى الله .

أما الشريعة والتى ترعى ماترعى جانب المعاملات فى المجتمعات ، فدخلها التحريف والوضع ، فوحى السماء حُرِّف ، والأحبار قد وضعوا وشَرَّعوا .

---

(١) البقرة آيه ٨٧ .
(٢) البقرة آيه ٦١ .
(٣) البقرة آيه ٩١ .
(٤) التوبة آيه ٣١ .
(٥) البقرة آيه ٧٩ .
(٦) البقرة آيه ٧٥ .

وان حالاً كهذه لتظهر مدى ماترددت فيه هذه المجموعات من البشر ، وما أصاب هذه الديانة [١] .

المسيحية : ديانة الروم

أما المسيحية - والتى كانت ديانة الامبراطورية الرومانية - فأصابها ماأصاب اليهودية وبين مصيبتها بأهلها ومصيبة اليهودية شبه كبير .

فعقيدتهم عمها التثليث ، وعمها أن المسيح ابن الله ، كما قال سبحانه " لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم " [٢] وقال سبحانه " لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة " [٣] وقال سبحانه " ياأهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم ، ولاتقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فأمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له مافى السموات ومافى الأرض ، وكفى بالله وكيلا " [٤] .

وقال سبحانه " وقالت النصارى المسيح ابن الله " [٥] وهم فى ذلك متفقون مع اليهود فى قولهم " عزير ابن الله " [٦] .

وبين القرآن أنهم يشاركون اليهود فى عبادة الأشخاص ، وقولهم إنهم أبناء الله وأحباؤه فقال سبحانه " اتخذوا أحباوهم ورهبانهم أرباباً من دون الله " [٧]

وقال عز وجل : " وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه " [٨] .

(١) راجع تفصيل آيات القرآن الحكيم وضع حول لابوم صـ ٥٥ ، الباب الرابع ، وراجع الملل والنحل للشهرستانى بتحقيق محمد سيد كيلانى صـ ٢١٠ .
(٢) المائدة آيه ٧٢ .
(٣) المائدة آيه ٧٣ .
(٤) النساء آيه ١٧١ .
(٥) التوبة آيه ٣٠ .
(٦) التوبة آيه ٣٠ .
(٧) التوبة آيه ٣٠ .
(٨) المائدة آيه ١٨ .

وهكذا يتضح أن التثليث الذى هدم العقيدة صَاحَبَهُ عبادة الرهبان ، يحلون ويحرمون ، وهو ماهدم جانب الشريعة .

ولقد بلغ الجهل بهذه الديانة حداً أصبح معه أتباع المسيحية فريقين متصارعين متخاصمين فى حقيقة المسيح وطبيعته ، وأصبحت الحرب على قدم وساق بين نصارى الشام والعراق ونصارى مصر ، وتحولت المدارس والكنائس والبيوت معسكرات متنافسة ، يكفر بعضها بعضاً ، ويقتل بعضها بعضاً ، كأنها حرب بين دينين متنافسين ، أو أمتين متحاربتين .

الفرس :

أما الفرس فديانتهم المجوسية ، والتى تقوم من قديم الزمان على عبادة العناصر الطبيعية . وهى : الماء ، والنار ، والشمس ، والقمر ، والمعادن ، وأعظمها النار ، وأهلها أغلب الفرس .

وعباد النار يبنون لها هياكل ومعابد ، انتشرت فى طول البلاد وعرضها ويصلون إليها ، ولايتركونها تنطفىء ، ولا يدعون الماء ينساب عليها ، إنها إلههم !! لكنه إله يحتاج لمن يحميه ويدافع عنه !!

وعباد الشمس يقدسونها ويقسمون بها ، حلف يزدجرد مرة قائلاً " أحلف بالشمس التى هى الإله الأكبر " .

وعباد الماء يعظمونه ، ولا يتركون النار تمسه .

وعباد القمر يقدسونه .

وعباد المعادن يقدسون المعدن ، فلا يتركونه يصدأ ، ولا يعرضونه للضياع .

هذه هى العقيدة ، وبدهى أن عقيدة مثل هذه يستحيل عليها أن توجد أخلاقاً ثابتة ، فضلاً عن مجتمع فاضل . من ثم ظهر فيهم من المذاهب الخلقية ماعجز عن إصلاح مجتمعهم ، والعجيب أنهم قدسوا هذه المذاهب ، وجعلوها ديناً مع أنهم

يعلمون أنها من وضع البشر ، إلا أن العجب يتبدد عند تذكر وثنيتهم ، وأنهم عباد شمس وعباد معدن .

فكانت الزرادشتية : والتى اعتنقها أصحاب النفوذ والسلطان ، وتقوم على أن للوجود إلهين ، إله الخير وإله الشر ، وكلاهما يتنازع النفس البشرية والكون ومافيه . والصراع بينهما دائم مستمر .

وكان من فلسفة الزرادشتيه تفضيل زواج الرجل بأمه أو ابنته أو اخته ، وكذلك الإيمان بالقوة وعدم الإيمان بالضعف ، فالقوة هى الحق ، ولاعبرة بالضعفاء ، وهم لايصلحون للبقاء ، فالحق مع القوة دائماً ، والباطل مع الضعف دائماً .

وكانت المانوية ، وهى مذهب يحسب أن الوجود الانسانى كله شر يجب أن لايبقى ، ويجب العمل على إفناء الإنسان ، وكذلك يمنع الزواج استعجالا لافناء البشرية .

وكانت المزدكية ، وهى مذهب يقوم على الإباحية المطلقة فليفعل الانسان مايشاء ، فالأموال لاحرمة لها ، ومن حق الانسان أن يستولى على مايشاء لايقيده إلا قوة غيره . والنساء مباحة كالماء والهواء ، فلازواج ولا ارتباط .

وهذا المذهب ظن واضعه "مزدك " أنه بذا قد حل مشاكل البشرية ، لأن الخصام لا يأتى إلا من اختصاص الأفراد بزوجات أو مال .

ولقد صادف هذا المذهب قبولاً عظيماً لدى أصحاب الرعونات والأهواء، وهؤلاء فى كل طبقات المجتمع موجودون ، حتى اعتنقه أحد الأكاسرة !! وساد وازدهر مدة حكم هذا الكسرى ، والذى زال ملكه قبيل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم .

وفى ضوء هذه المذاهب الخلقية والتى سادت فى بلاد فارس على أنها أديان يدرك الانسان مدى ماوصلت اليه الأخلاق من ترد ، وماساد المجتمع من فساد ، ويدرك كذلك أن هذه المذاهب والتى استغل فيها العقل كانت أعجز ماتكون عن انقاذ الانسان من شقائه .

الهنـد :

وكان دين الهند الشائع فى هذه الفترة هو "البرهمية" نسبة لإلههم "براهما" وهذه وثنيـة متعددة ، تقوم على فكرة تعدد الآلهة ، ويميلون إلى التفاضل بين الآلهة المختلفة ، والتفكير فى كل منها بدوره كأنه أسمى من غيره .

ولقد بلغ عدد الأوثان فى القرن السادس من جراء فكرة تعدد الآلهة هذه ، بلغ ثلاثين وثلاثمائه مليون وثن !!! حتى ارتقت صناعة التماثيل ، وتأنق فيها المتأنقون ، وشملت صورة كل ماهو نافع ، وشكل ماهو رائع ، ورسم ماهو هائل .

ومن مبادىء هذه الديانة ، التفرقة بين طبقات الانسانية ، فالناس خمس طبقات من حيث العبادة والزلفى لبراهما ، وكل طبقة لها مهنة تتوارث ، وليس من حق شخص أن يرتقى من طبقة إلى التى أعلى منها ، فابن الثالثة لايرتقى إلى الثانية ، كما أنه مهما أساء شخص لاينزل عن طبقته ، فمهما أساء ابن الثالثة لاينزل إلى الرابعة ، وأقصى مايحققه الانسان بطاعته وامتثاله أن يكون من أهل الخير .

وهذه الطبقات هى :

١/ طبقة البراهما: وهم رجال الدين ،ويزعمون أنهم خلقوا من رأس الإله "براهما".

٢/ طبقة الجند : وهم المحاربون والحراس ، ويزعمون أنهم خلقوا من مناكب ويدى "براهما" ولقرب المنكب واليد من الرأس كانت هذه الطبقة قريبة من سابقتها .

٣/ طبقة الزراع والتجار : ويزعمون أنهم خلقوا من ركبتى إلههم ، ولبعد الركبة عن المنكب ، فهذه الطبقة ليست قريبة من سابقتها .

٤/ طبقة الخدم والرقيق : ويزعمون أنهم خلقوا من قدمى إلههم ، لذا فهى أحط الطبقات .

٥/ المحرومون والمنبوذون الأنجاس : وهؤلاء فريق من سكان البلاد الأصليين ، حال

انحطاط شأنهم دون اعتبارهم حتى من الطبقة الدنيا من الخدم والأُجَراء ، وهؤلاء وكل من ليس بهندى أنجاس نجاسة عينية حسية ، فمن لمس منبوذاً تنجس ، ومن مر فى أحياء المنبوذين تنجس [1] !!

وتفرع من البراهمية البوذية ، وهى مشتهرة فى الصين أكثر من اشتهارها فى الهند وسأتحدث عنها - إن شاء الله تعالى - فى أثناء الكلام عن أحوال الصين ، وهو مايلى :

الصين :

وفى الصين انتشرت ثلاثة أديان هى :

(١) البوذية: نسبة إلى بوذا ، أحد أفراد الطبقة الأولى فى البراهما . وهذا الشخص أسس مذهباً يقوم على السلب لا الايجاب . فينهى عن كثير من الأشياء لكنه لا يأمر بأى شيء من الأشياء حتى العقيدة فى وجود إله خالق كان بوذا ينكرها ، وأنكر كذلك ماكان فى ديانة الصين القديمة ممايشبه الصلاة .

إنه يرى أن الحقيقة الأساسية فى هذا الكون هى "ناموس العلة والمعلول" فالكون مجموعات تؤثر السابقة فى اللاحقة ، أما العلة الأولى والتى هى بداية الكون ، فلم يفكر فيها ، ولافى من أنشأها ، بل ومحظور على البوذى أن يفكر فى ذلك .

واذا كان الأمر كذلك - لاتفكير فى موجد الكون وخالقه - فلا عبرة بطاعة أو عبادة لهذا الخالق . والمهم فى نظرية هذا الرجل أن يتجرد الإنسان عن كل الأمانى والرغبات .

ورغم أن هذا مذهب خلقى ولايَمُتُّ إلى الدين بصلة ، إلا أنه سرعان ماتحول إلى وثنية تحمل معها الأصنام حيث سارت ، وتبنى الهياكل ، وتنصب تماثيل "بوذا" حيث حلت .

---

(١) راجع ذيل الملل والنحل للشهر ستانى ، تحقيق محمد سيد كيلانى صـ ٩ .

(٢) الكونفوشيوسية: نسبة إلى الفيلسوف " كونج فوتس " والذى حرف اسمه فى لغة الفرنجة إلى " كونفوشيوس " .

وكونفوشيوس هذا سياسى ، أديب ، فيلسوف ، موسيقى ، متعبد ، لم يَدَّع النبوة ، وانما دعا إلى مذهب خلقى يمكن أن نقول إنه البوذية بشىء من التعديل فى الجانب الخلقى العملى ، إنه يدعو إلى العمل البناء الجديد بإصلاح المجتمع وينادى بالتمسك بما كان عليه القدماء ، فلينقل التراث القديم إلى أبناء العصر وليبعث هذا التراث ويعمل به .

وراجت مبادىء هذا الرجل بين الصينيين ، فاعتقدوه قد فُوِّضَ من قبل السماء لهداية البشرية ، وأنه صار نبياً رسولاً ، على عادتهم فى فهم النبوة والرسالة .

وبعد أن مات كونفوشيوس عبده الصينيون ، وقدسوا كتبه ، وأقاموا له المعابد الفخمة فى كل المدن والقرى .

(٣) التاوزمية: نسبة إلى الفيلسوف "لاوتز" وهذه الديانة قريبة الشبه بمذهب وحدة الوجود ، فهى تقوم على مبدئين .

الأول: القانون السماوى الأعظم ، وهو أصل الموجودات ، لكنه ليس متعالياً عليها وانما هو فيها نفسها .

الثانى: الاستقبال " أن الأشياء تستقبل حياتها ونشاطها وشكلها بفضل الاستقبال .

وهذه الديانة تتجه اتجاهاً سلبياً ، فالفضيلة عندهم عدم العمل ، والتدخل فى شئون الأفراد رذيلة ، والثراء الفاحش مذموم .

اليونان :

وفى اليونان شاعت الفلسفة التى تعتمد على العقل المجرد ، فراحت تبحث عما وراء الطبيعة طوراً ثم نزلت إلى الانسان ، فتاهت فى معرفة مقياس الفضيلة ،

فمن قائل هو المعرفة ، ومن قائل هو الحكمة والعدالة والشجاعة والعفة ، ومن قائل هو اللذة أو المنفعة ، ومن قائل الخير وسط بين رذيلتين .

وفوق هذا ، فان الفلسفة عجزت تماماً عن معرفة العقيدة الصحيحة ، ولم تهتد إلى إدراك سر الوجود . وزاد الأمر سوءاً ظهور السفسطة التى تشكك فى حقائق الوجود ، فمنهم من أنكر حقيقة الوجود ، ومنهم من شك فى كل شيء (اللاأدرية) ، ومنهم طائفة العندية ، وهى التى ترى أن الحق مايعتقده كل امرىء فى نفسه فليس فى الأشياء حقيقة ، وإنما الأمر فيها إلى اعتقاد وجودها .

وهكذا عجزت الفلسفة عن رسم مسلك خلقى ، وعجزت عن معرفة العقيدة الصحيحة ، بل إنها ضللت الفكر حتى جعلته مضطرباً شاكاً فى حقائق الأشياء ولذا كانت وبالاً على أهلها ، خالية عن الخير والنفع .

أفريقية :

أما أفريقية فكانت فى معظمها مجاهيل ، لاتسير على هدى ولاتتبع دينا وانما يعيش من فيها دون منهج مرسوم ، ودون مسلك معلوم .

يستثنى من ذلك بعض مناطق منها كانت فيها نوع حياة معلومة المنهج ، وهذه كانت تحت سيطرة الروم ، وقد تقدم بيان حال هذه الامبراطورية ،

أوروبا :

كانت أوروبا فى الفترة مابين القرن الخامس إلى العاشر فى ظلام الجهل والأمية والحروب الدامية ، كانت بعيدة عن قافلة الحضارة الأنسانية والعلوم والآداب لاشأن لها بالعالم ، ولا شأن للعالم بها ، أجسامهم قذرة ، ورؤوسهم مملوءة بالأوهام يغالون فى تعذيب الأجسام ، والفرار من الانسان ،يبحثون فى أن المرأة حيوان أم إنسان ؟ وهل لها روح خالدة أو لا ؟ وهل لها حق الملكية والبيع والشراء أو لا ؟

واذا كانت اوروبا تملك حضارة قديمة قبل هذه الفترة ، أشهرها ماكان فى فرنسا

وايطاليا ، فان هذه الحضارة لم تنفعهم ، ولم تؤثر على ماوصلوا إليه من جهل . بل إنها انطمست تماماً ، وأصبحت أوروبا لاتعرف عن الأخلاق شيئاً ، وهى بمنأى عن الدين ، شأنها فى ذلك شأن مجاهيل أفريقية .

الجزيرة العربية :

أما العرب فى جزيرتهم ، وهم الذين كانوا يتعبدون على دين الخليل ، وكانت الحنيفية أساس خير عليهم ، فإنهم لم يسلموا من أمراض زمنهم الخُلقية والعَقَدية ، وبرغم أنهم كانوا لايحبون الاختلاط حفاظاً على لغتهم ، فان الأسفار ، وشيوع التيار الوثنى وصلهم ، فشاعت الوثنية وانتشرت ، وصاروا يعظمون الأصنام ، ويتوسلون بها إلى الله سبحانه .

وضعف الجانب الخلقى ، وذلك إما بالوقوع فى الرذيلة كالخمر والقمار وزواج من شاء من النساء ، وقتل الأولاد خشية الفقر ، وأما بالمغالاة فى الفضيلة حتى تحولت إلى رذيلة كوْاد البنات ، وكثرة الحروب ، وأخذ الثأر .

ويصور جهل العرب وانحرافهم الآيات من أخر سورة الأنعام ، من أول قوله تعالى " وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا (١) .

ولذا يقول ابن عباس - فيما أخرجه البخارى عنه : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ مافوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام " قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاًبغير علم " - إلى قوله - " قد ضلوا وماكانوا مهتدين " (٢) .

والمراد بقتل الأولاد قتل البنات ، وهو ماجاء فى أكثر من سورة :

" وإذا الموؤدة سئلت ، بأى ذنب قتلت ؟ (٣) " .

" وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم " (٤)

---

(١) رقم ١٣٦ ومابعدها .
(٢) أخرجه البخارى فى المناقب باب قصة زمزم وجهل العرب ٦/٥٥١ رقم ٣٥٢٤ .
(٣) سورة التكوير آيه ٨ ، ٩ .
(٤) سورة الزخرف آيه ١٧ .

" وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء مابُشِّر به ، أيمسكه على هُون «أم يدسه فى التراب ، ألاساء مايحكمون »[1]

كما يصور جهلهم عدد آخر من الآيات تسمعها فى ثنايا القرآن الكريم ، سواء منها ماهو فى الجانب الخلقى أو الجانب العقدى . من ذلك قوله سبحانه :

" واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا " [2]

وقوله سبحانه " لاتقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقهم وإياكم " [3]

وقوله سبحانه حكاية عنهم "أجعل الآلهة إلهاً واحداً، إن هذا لشىء عجاب" [4]

وأيضاً " مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى " [5]

وإن الخمر والميسر كان شائعاً فيهم " يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ، لعلكم تفلحون " [6]

وفي السنة بيان لكثير من أحوالهم هذه ، أكتفي بذكر حديث السائب بن عبد الله ، وأبى رجاء العطاردى فعن مجاهد عن مولاه السائب بن عبد الله أنه حدثه أنه كان فيمن يبنى الكعبة في الجاهلية قال : ولي حجر نحتُّه بيدى أعبده من دون الله تعالى ، فأجىء باللبن الخاثر[7] الذى أنفسه[8]على نفسى ، فأصبُّه عليه فيجىء الكلب فيلحسه ثم يشغر [9] فيبول ... الحديث [10] .

---

(١) سورة النحل آيه ٥٨ ، ٥٩ .
(٢) سورة آل عمران آيه ١٠٣ .
(٣) سورة الإسراء آيه ٣١ .
(٤) سورة ص آيه ٥ .
(٥) سورة الزمر آيه ٣ .
(٦) سورة المائدة آيه ٩٠ .
(٧) الذى ثخن واشتد
(٨) أبخل به
(٩) يرفع إحدى رجليه .
(١٠) أخرجه أحمد فى مسنده ٣ / ٤٢٥ ، وراجع الفتح الربانى ٢٠ / ٢٠٠ رقم ٢٤ وفي بلوغ الأمانى ٢٠/ ٢٠١ قال أخرجه الحاكم وصححه على شرط مسلم وأقره الذهبى .

وعن أبى رجاء العطاردى قال كنا في الجاهلية إذا لم نجد حجرا جمعنا حثية من التراب ، وجئنا بالشاة فحلبناها عليه ، ثم طفنا بها (١).

وجاءت آيات غير هذه تعيب عليهم أموراً ، كما جاءت أحاديث فى هذا الأمر حتى استعملت كلمة "الجاهلية" - والتى تطلق على ماقبل الاسلام - فى القرآن الكريم ، والسنة النبوية فيما يعاب من دين وخلق .

وبعـــد :

فهذا وصف موجز لحال العالم قبل البعثة المحمدية ، يتضح منه أن العالم كان ينتحر ، لما ساده من اضطراب عقدى ، وهمجية خلقية ، فما أودعه الله في الإنسان من قُوَىً قد استخدم في الشر ، وما فطره عليه قد تبدل وتغير ، فالحق هو القوة ، والقوة هى الحق ، والعقل مطية تبرير الباطل ، لامناصرة الحق . والحاجة إلى الدين قد أشبعت بعبادة غير الله ، فعُبدت الأحجار والأشجار ، والأبقار والنار والأشخاص ، واستعبد الأنسانُ الانسان ، حتى باع المستعْبَدُ ابنه لأداء ما يطلب المستبعد ، وقامر الرجل علي امرأته ، وتزوج ما شاء من النساء ، وتَبَنّى ما ليس من نسله ، وأصبحت الديانات لعبة في يد المنحرفين ، ونتاج أهواء المتلاعبين .

والإنسان هو الإنسان ، في كل عصر ومصر ، يحب الأَستقرار ، ويحرص علي معرفة العقيدة ، ويسعد بالسمو الخلقى .

من هنا اشتدت حاجة المجتمع الي رسالة تأخذ بيد العقل الحائر الي الحقيقة ، وتخلصه مما هو فيه من حيرة واضطراب .

وهذا هو السر في سرعة الفتوحات الاسلامية ، فانسابت الدعوة بعد أن تأسست في الجزيرة انسابت في البلاد أنسياب الماء فى الأرض السهلة المستوية ، فوجدنا الفتوحات الاسلامية تمتد شرقا وغربا ، وتتصل أطراف الأرض ، ولم يمض من سنى الهجرة عشرون عاما بعد .

(١) ذكره في البداية ٢ / ٢٠٥ وعزاه الى الصحيح .

ومن حق قائل أن يقول : إذا كانت البشرية وقتها كانت في أمس الحاجة الي رسول وإلا انتحرت ، فما بالنا نجد المجتمعات غير المسلمة لم تنتحر ، ولازالت معمرة إلي الان ؟

والجواب

١/ أن كثيراً من هذه المجتمعات قد انتهت ، فراحت دولة الأكاسرة وراحت دولة القياصرة .

٢/ أن البشرية الآن تعيش فى ضيق وضنك ، تعيش حياة لايريدها الإسلام للإنسانية ، وإنما رسم لها حياة لايمكن أن تذوقها إلا إذا اتبعته ، إن الإسلام يرسم حياة بر الوالدين ، والإنسانية الآن غير هذا تماما ، والأسلام رسم حياة « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه [1] » « إنما المؤمنون إخوة [2]» . فالبشرية تشقى بمقدار بعدها عن الإسلام ، وتسعد بمقدار قربها من الأسلام .

٣/ أن المجتمعات التى لم تُسلم استرعى انتباهها قوة المسلمين ، فجاءوا الي الأسلام فأخذوا منه الكثير ، ويكفي دليلا علي ذلك أن بعض الدول غير المسلمة أخذت بنظام الميراث الإسلامى ، والمنظمات القانونية العالمية اعتبرت الشريعة الإسلامية مصدرا من مصادر التشريع عندها .

وفي الجانب الاجتماعى استفادوا من الأسلام كثيرا ، وفي جانب البحث العلمى استرعى انتباههم أوامر الإسلام ونواهيه فبحثوا فتبين لهم عظيم الحكمة الإسلامية فتركوا بعض ما كانوا يأكلون ، واستفادوا في أمور حياتهم .

إن المجتمعات التي لم تسلم ، وصلتها أنوار الإسلام فى حياتها ، وإن لم تتبعه في عقيدتها . ويوم أن تتبعه في عقيدتها ستحيا حياة طيبة ، كما كانت أمة الإسلام يوم أن طبقت الأسلام كاملا .

والحذر كل الحذر أن تأخذ أمم الكفر بأمة الأسلام إلى أبعد من ذلك ، فحينئذ

(١) أخرجه البخارى في الإيمان باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ١ / ٥٦ ، ٥٧ رقم ١٣ .
(٢) سورة الحجرات آية ١٠ .

يحل غضب الله بالجميع ، والذي نرجوه أن تنتبه أمة الأسلام فتكمل امتثالها ، وتنتبه أمم الكفر فتسرع الى الإسلام ، بعد أن تبين لها من واقع بحوثها أنه الدين الحق الجدير بالاتباع .

الإسلام والمجتمع المعاصر :

وإذا كنت قد بينت لك أن مجتمع زمن البعثة المحمدية لم تنفعه آثار الأديان التي كانت فيه ، ولم تأخذه بيده الفلسفات التى زادت في بعض طوائفه ، ولم تسعده المناهج الخلقية التي وضعها بعض أفراده ، فإني حريص علي أن تعرف قدر الأسلام للإنسان المعاصر ، وللمجتمعات المعاصرة وما يقدمه لهم من أمور هم في أمس الحاجة إليها ، واوجز القول فى ذلك النقاط الأتية :

أ- الإسلام والجانب الروحى :

- إن إنسانية هذا الزمان تقبل علي الماديات بحرص شديد ، وتتفاني فى الحصول عليها وكأنها كل حياتهم ، وهذا خطأ شديد فالإنسان ليس مادة فقط وليس في طوق الماديات أن تسعده ، والدليل علي ذلك أن الدول التي تقدمت في الماديات واستكثرت منها لم تنته مشاكل الإنسان فيها ، ولم يحظ بالسعاده التي كان يظن أنه حاصل عليها بالماديات ، بل علي العكس من ذلك وجدنا الإنسان في هذه المجتمعات قتلته المشاكل النفسية ، حتي كثرت حالات قتل الأنسان نفسه فوصلت في بعض هذه الدول إلي النصف ، أي أن نصف من يموت فى هذه الدول يموت قاتلا نفسه .

وهذا دليل قوي علي أن المادة ليست كفيلة لسعادة الأنسان ، وأن الإنسان يحتاج مادة ويحتاج لغذاء روحى .

إن الإنسان خلق من طين ، لكنه لم يصر إنسانا ناطقا سميعا بصيرا إلا بعد أن نفخ الله فيه الروح، فهو مادة وروح ، وإذا غذيت المادة والروح عاش سعيدا وغذاء المادة من جنسها ، فما أنبتته الأرض ، وما عاش علي نبات الأرض يغذي الجانب

المادى من الإنسـان ، أمـا جانب الروح فـهـذا يغـذي بما يكون من عند الله ، يغـذى بالحق من عبادات ، وأمر بمعروف ، ونهى عن منكر .

ولما كان الأسلام هو الدين الحق ، وهو الدين الخاتم فـهو وحده بعقيدته وشريعته القـادر علي إشبـاع الجانب الروحى في الإنسـان ، ومن هنا فـالأسلام يقـوم بغـذاء جـانب الروح في الإنسـان ، فـهـو ضـرورى للأنسـان ضـرورة الماديات ، بل حـاجـة الأنسـان إليه أقوى وأشد من حاجتـه للماديات . وذلك أن الأنسـان لو غذى الجانب الروحى منه قَلّت حاجاته للجـانب المادى ، يتـضح هذا من حديثـه صلي الله عليـه وسلم حينمـا واصل في الصيـام بمعنى أن صـام الأيام المتـتـاليـة دون تناول طعام أو شراب أثناء الليل - « إنى أبيت يطعمني ربي ويسقينى [1] » فلقد استغرق صلي الله عليه وسلم في طاعـة ربه وعبادته سبحانه وتعالى استغراقا جعله يستغنى عن الطعام والشراب فترة لا يألفها البشر .

لقد رعى الإسلام الجانب الروحى في الإنسان خير رعاية حينماأوصاه بطاعة الله ودوام ذكره، وحثه علي التفكر فى آيات الله الدالة على وجوده وكماله سبحانه فإن ذلك يسعده روحيا غـايـة السعادة ، ومن هنا قـال الله تبـارك وتعالى «إن الصلاة تنهي عن الفحشـاء والمنكر ولذكـر الله أكبـر[2] » وقـال صلي الله عليـه وسلم «وجعلت قرة عيـني في الصلاة [3] » و«كـان صلي الله عليـه وسلم إذا حزبه أمر صلى [4] » لقـد كـان يجـد صلي الله عليـه وسلم في الصـلاة راحـة من كل عناء، وهكذا كل مسلم ، وهكذا تكون الراحة الحقـة ، والطمأنينة الصحيحة ، كما قال ربنا سبحانه وتعالى « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب [5] » .

(١) أخرجه البخارى في الصوم باب التنكيل لمن أكثر الوصال ٤ / ٢٠٥ حديث ١٩٦٥
(٢) سورة العنكبوت آية ٤٥ .
(٣) أخرجه أحمد في مسند ٣ / ١٢٨ والنسائى في عشرة النساء باب حب النساء ٧ / ٦١ ، ٦٢ .
(٤) أخرجه أبو داود فى الصلاة باب وقت قيام النبي صلي الله عليه وسلم من الليل ٣٥/٢ طبعة عيسى الحلبي وأخرجه أحمد ٥/ ٣٨٨ .
(٥) سورة الرعد آية ٢٨ .

لقد أخطأت البشرية حينما راحوا يطلبون السعادة النفسية فيما يسمونه الترفيه بآلات اللهو واللعب ، والأسفار لغيرغرض ، فليس فى شىء من ذلك طمأنينة ، وإنما الطمأنينة في طاعة الله تعالي وذكره ، وتغذية الجانب الروحى في الإنسان بطاعة خالق الأنسان سبحانه وتعالى .

ولسوف أوضح أيضا شدة حاجة الإسان للإسلام ، وأنه محتاج إلى الإسلام أكثر من حاجته إلى المادة فى النقطة الآتية .

ب - الإسلام والجانب المادى :

وإذا كان الإسلام يشبع الجانب الروحي فى الإنسانى بمايحقق له السعادة فيه ، فإنه أيضا ضرورى للجانب المادى، ذلك أن الإنسانية لو ابتعدت عن الإسلام لأصبح الجانب المادى في غاية العناء ، فيظهر الغش فى الطعام والشراب ، وكل الماديات أما إذا اقتربت من الأسلام فإن الإسلام يحفظ عليها هذه الماديات ، فإن المسلم لايغش ولايحتكر ، وإنما هو نظيف طاهر صادق مخلص .

وليس في طوق أي قانون مهما كان أن يوفر للجانب المادى ما يوفره الإسلام من نظافة وصدق ، ذلك أن القانون مهما كان يحتال عليه ، وعلي منفذيه ويُرشى منفذوه ، أما الرقيب فى الإسلام فهو الله الذى يعلم السر وأخفى فغير المسلم يغش في غيبة القانون ، ويغش بالتحايل علي القانون . أما المسلم فإنه يتقى الله فى كل شىء في السر وفى العلن، فى الصغيرة والكبيرة مع أهله ومع كل المخلوقات.

جـ - الإسلام والجانب النفسى :-

ولم يقتصر دور الإسلام على تغذية الجانب الروحى ، والحفاظ علي الجانب المادى في الإنسان ، وإنما تعدى ذلك إلى الجانب النفسى ، فعلم أهله من الأخلاق ما يسعدهم ، ومن الآداب ما يرفعهم ، لقد أوصى الوالد بتعهد ابنه وتربيته وأوصى الأبن أن يكون بارا بأبيه ، وأوصى الجار بجاره خيرا، وأوصى المسلم بأخيه

خيرا ، وماذا بعد قول الله سبحانه وتعالى « إنما المؤمنون إخوة [١] » وماذا بعد قوله صلى الله عليه وسلم «لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه[٢] » وقوله صلى الله عليه وسلم « تبسمك في وجه أخيك لك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر لك صدقة ، وإرشادك الرجل فى أرض الضلال[٣] لك صدقة ، وبصرك للرجل الردىء البصر لك صدقة ، وإماطتك[٤] الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة [٥] » .

لقد حارب الإسلام فى أمته كل خلق ذميم ، وغرس كل خلق كريم ، بما معه يشعر الإنسان أنه يعيش مع إخوة يحرصون عليه ، ويتمنون سعادته ، يحبونه ويحبون له ما يحبون لأنفسهم ، وهذا أمر يسعد الإنسان أيما إسعاد وهو ضرورى لحياة الإنسان .

ومن هنا يتضح لنا أن الأسلام كما كان ضرورياً لمجتمع ما قبل البعثة ، فهو ضروري للبشرية في كل زمان ومكان ، يحفظ عليها سعادتها واستقرارها النفسى، ويصون عليها الجانب المادي ، ويسعدها في الجانب الخلقى ، إنه الدين الذي نظم كل نواحي الحياة ، وعلم الأنسان ما ينفعه قبل أن يعرف أن هذا ينفعه ، كما قال سبحانه « إن هذا القرآن يهدى للتي هى أقوم [٦] »

الدروس المستفادة :

ويستفاد من دراسة أحوال العالم قبل الإسلام ، ومعرفة حاجاته إلي الإسلام ما يلي :

---

(١) سورة الحجرات آية ١٠ .
(٢) أخرجه البخارى فى الإيمان باب من الأيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ١ / ٥٧ .
(٣) أى الأرض التي لايعرف فيها أين يتجه .
(٤) إبعادك .
(٥) أخرجه الترمذى في البر باب ما جاء فى صنائع المعروف وقال : حسن غريب ٦ / ٨٩ تحفة الأحوذى .
(٦) سورة الإسراء آية ٩ .

١ - إن العقل البشري جدير بالتقدم في المجال التجريبي ، يجرى بحوثه ويتوصل إلي نتائجها ، أما الجانب الخلقى فهذا فوق قدرته ، ولذا فإنه لما تولى زمامه شقيت البشرية ، وعليه فالبشرية لابد لها من دين من عند الخالق سبحانه وتعالى .

٢ - هذا الدين الكفيل بإسعاد البشرية هو الإسلام ، فإنه خاتم الأديان، وتكفل ربنا سبحانه وتعالى بحفظه ، قال تعالى « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون [١] » فسعادة البشرية بمقدار التزامها بالإسلام .

٣ - إذا كانت البشرية تتعصب لمعتقداتها وسلوكها ضد الإسلام فهذا من قصور فكرها ، فإن كل عاقل يعلم أن الإسلام هو الدين الكفيل بإسعاد البشرية ، دل علي ذلك الواقع والإكتشافات العلمية .

٤ - علي كل مسلم أن يفهم دينه ، وأن يلتزم به ليسعد في الدنيا والآخرة ، فإن السعادة بالدين تكون بفهمه والعمل به ، وليس بمجرد الانتساب إليه ، فإن الأمم السابقة انتسبت لدينها فلم ينفعها الانتساب بعد أن حرّفت وخالفت .

---

(١) سورة الحجر .

محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

- موطنه « الجزيرة العربية »
- قومه « العرب »
- قبيلته « بنو هاشم القرشيون »

" نشأته صلي الله عليه وسلم "

- أبواه .
- ولادته . كفالة جده ثم عمه .
- رضاعته . استرضاعه في البادية .
- رعيه الغنم . المرسلون جميعاً رعوا الغنم !!
- شق صدره .

موطنه وقومه وقبيلته صلى الله عليه وسلم

كان العالم كله في حاجة الى بعثته صلي الله عليه وسلم ، واختار الله لنبيه صلي الله عليه وسلم الجزيرة لعربية موطناً ، واختار له العرب أهلا ، واختار له قريشا قبيلة ، واختار له من قريش بني هاشم عائلة .

ويتسائل الدارس لسيرته صلي الله عليه وسلم :

أ- لماذا الجزيرة العربية بالذات هي التى يبعث منه الرسول الخاتم بالرسالة العامة الخالدة ؟

ب- لماذاالعرب بالذات هم الذين يكونون حماة ودعاة لهذا الدين في أول الأمر ؟

ج- لم اصطفى الله تبارك وتعالى رسوله صلي الله عليه وسلم قرشياً هاشمياً ؟

والجواب :

أ - الرسالة الخاتمة من جزيرة العرب

أفعال الله سبحانه وتعالى محكمة لأنه الحكيم ، ويجد العقل البشرى أسمى متعة في تلمس حكمة الفعل الإلهى والتشريع الربانى ، إذ هذا يشبع غريزة التدين ، ويرتقى بالعقيدة والفطرة .

وفى موضوعنا هذا يتلمس العقل حكمة اختيار الجزيرة مهبطاً لوحى الرسالة الخاتمة فيقف علي الآتى :-

أولاً : الجزيرة أرض النبوات : فلاغرابة أن تكون مهبط وحي الرسالة الخاتمة :

ففي الجزيرة أرسل هود عليه السلام الى عاد من العرب البائدة ، والتى كانت بالأحقاف كما قال سبحانه « واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه [(١)] »

---

(١) سورة الأحقاف آية ٢١ .

ومن قول الله سبحانه « وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه » دلالة علي ما كان من رسل سابقين ولاحقين .

وأرسل صالح عليه السلام الي ثمود ، والتي تسكن الحجر الذى بين الحجاز وتبوك كما قال سبحانه « ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين . . . الآيات [١] »

وأرسل شعيب عليه السلام لمدين ، وأهل مدين كان مسكنهم قريب من أرض معان من أطراف الشام مما يلى من ناحية الحجاز ، قريباً من بحيرة قوم لوط . كما قال سبحانه عن لسان شعيب « وياقوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد [٢] »

وفي الجزيرة كان نبي الله إدريس الذي قال الله فيه «واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبيا، ورفعناه مكانا عليا[٣] » وأرجح الأقوال أنه كان فى جزيرة العرب . وفي الجزيرة أنبياء الله الى سبأ - أهل اليمن وملوكها - وكان أهل سبأ فى نعمة وغبطة في بلادهم وبعث الله اليهم الرسل ، فلم يستجيبوا لهم فعوقبوا بزوال ماهم فيه من نعمة ، - نسأل الله العافية - يصور ذلك قول الله تعالي «لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور » [٤]

وفى الجزيرة كان نبى الله اسماعيل ، والذى شارك فى بناء بيت الله الحرام ، وهو أبو العرب . كما قال الله سبحانه حاكيا عن ابراهيم الخليل عليه السلام " ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ... " [٥]

(١) من سورة الحجر آية ٨٠ - ٨٤ .
(٢) سورة هود آية ٨٩ .
(٣)سورة مريم آية ٥٦ ، ٥٧ .
(٤) سورة سبأ آية ١٥ - ١٧ وراجع تفسير ابن كثير .
(٥) سورة ابراهيم آيه ٣٧ - ٤١ .

وفى الجزيرة عاش ابراهيم الخليل فترة، وقضى موسى فيها فترة ليست بالقصيرة ونوح مدفون بالجزيرة على أرجح الأقوال مما يفيد أنه عاش فيها فترة .

وفى قول الله تعالى " ولقد أهلكنا ماحولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون "(١) مايفيد أنه سبحانه أرسل رسلا الى الأمم التى حول مكه ، وهذا دليل واضح على أن الجزيرة أرض النبوات فلا غرابة أن تكون مهبط الرسالة الخاتمة .

ثانياً : الكعبة والتى هى بيت الله الحرام فى جزيرة العرب :

إن العقل الذى يعرف الكعبة يحكم أن الرسالة الخاتمة لابد أن تكون من جزيرة العرب، فإن الكعبة هى بيت الله الحرام - الذى وصفه الله بأنه مبارك ، وأنه مثابة للناس وأمنا - جديرة بأن تبدأ الرسالة من حولها ، لتكون قبلة كل مستضىء بهذا الوحى ، وقبلة للمقتدين بهذا الوحى .

ثالثاً : فى الجزيرة من آثار الأمم السابقة مايورث العبرة :

فآثار الأمم السابقة والتي تفيد نتيجة تكذيب الرسل باقية موجودة فى جزيرة العرب ، وهذا من شأنه أن يورث العبرة والعظة . ولذا نجد القرآن يذكرنا بماحل لهم ويلفت الأنظار إلى سنة الله سبحانه فى المكذبين لرسله كما قال سبحانه " أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون " (٢)

وقال سبحانه " أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم " (٣)

وبعد أن قص القرآن قصة سبأ قال سبحانه " فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور " (٤)

(١) سورة الأحقاق آيه ٢٧ ، وراجع تفسير ابن كثير .
(٢) سورة السجدة آية ٢٦ .
(٣) سورة الروم آية ٩ .
(٤) سورة سبأ آية ١٥ - ١٩ .

رابعاً : موقع الجزيرة يؤهلها لذلك :

فالجزيرة تتوسط العالم ، ويسهل على من فيها الاتصال بكل أنحاء العالم شرقه وغربه ، وشماله وجنوبه ، وهذا يناسب الدين العام الخالد ، فهو ممايسر انتشاره فى كل أنحاء المعمورة .

خامساً : الجزيرة آمنة :

فالجزيرة بتضاريسها التى تجعل ساكنها أقوى من أى معتد يعتدى عليه ، هى بذلك توفر الأمن لأهلها . إن تضاريس الجزيرة تمنع أى معتد أن يفكر فى غزو الجزيرة لما يناله جيشه من إرهاق ومصاعب جديرة بالقضاء عليه دون حروب .

ولذا نجد أن الجزيرة على مر التاريخ لم يغزها أجنبى ، وكل الحروب التى وقعت فيها انما كانت من أهلها فيما بينهم .

الدروس المستفادة :

ويستفاد من خصائص الجزيرة هذه مايلى :

- المكان يكتسب من صفات أهله ، فالمكان الآهل بالصالحين عالى القدر يحرص عليه .
- على الأمة أن تحرص على صلتها بالأنبياء، وبالعهد الذى أخذه الله على ذرية آدم ، فهذه أصولها ، وهى بها متصلة .
- إن كل مافيه عبرة وعظة على المسلمين أن يستفيدوا به، فإنه ممايفيدهم فى دينهم .
- على الأمة الإسلامية أن تقوم بالدعوة إلى الله تعالى حتى توصلها إلى أهل الأرض جميعا ، وهذا يستلزم أن تمتلك الأمة أقوى وسائل الإعلام، وجميع وسائل المعرفة ، إنها أمة معلمة فلتأخذ بكل أسباب التعلم والتعليم أفراداً وجماعات .

- للأمن دوره فى سعادة المجتمعات، ولبعض الأماكن دخل فى الأمن ، ويختار آمن الأماكن لعزيز الأشياء ، ويحرص على الأمن عموما فإنه سبيل انتشار الإسلام ، وذيوع تعاليمه .

ب- العرب هم الدعاة لهذا الدين وحماته فى أول الأمر :

ويحكم العقل وتسبقه الفطرة أن لله سبحانه وتعالى حكمة فى اختيار العرب لينتشر هذا الدين بينهم ، ثم يصبحوا حماته والدعاة له ، ويتلمس العقل الحكمة فيقف على مايلى :

أولاً : كان العرب آنذاك أصحاب قلوب صافية ، فما كانوا أهل فلسفة وجدل ولا أهل عقد نفسية أو فكرية ، من ثم كان مابينهم وبين الحق مجرد معرفة الحق أما غيرهم من أصحاب الفلسفات فكان بينهم وبين الحق ازالة ماعندهم من عقد ثم تهيئتهم لقبول الحق ، ثم معرفة الحق .

ثانياً : العرب أصحاب ارادة قرية ، إذا لم يقتنعوا بأمر ولم يسلموا به حاربوه أما إذا اقتنعوا وسلموا استماتوا فى سبيل نصرته .

يوضح ذلك أخبارهم بعد الاسلام وكيف أنهم بعد أن اقتنعوا بهذ الدين أصبحوا من أشد الناس استمساكا به ، ودفاعا عنه . وها هو عكرمة ابن أبى جهل تشتد حملة الأعداء عليه فى معركة اليرموك فيستميت ويقول " قاتلت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل موطن وأفر منكم اليوم ؟ ثم نادى من يبايع على الموت ؟ فبايعه من بايعه ، ثم لم يزل يقاتل حتى أثبت جراحا وقتل شهيدا » .

ثالثاً : العرب أهل صراحة وصرامة ، لا يخدعون أنفسهم ولاغيرهم ، وانما واقعيين جادين قال البراء : أتى النبى صلى الله عليه وسلم رجل مقنع بالحديد فقال يارسول الله أقاتل أو أسلم ؟ قال : أسلم ثم قاتل . فأسلم ثم قاتل فقتل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عمل قليلاً وأجر كثيراً (١) " .

---

(١) أخرجه البخارى فى الجهاد باب عمل صالح قبل القتال ٢٤/٦ رقم ٢٨٠٨ فتح البارى .

ويكفى فى ذلك ثناء عليهم قول الله سبحانه " من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، ومابدلوا تبديلا[1] ".

رابعاً : كانوا أصحاب خشونة وقوة ، لم تصبهم أدواء المدنية ، ولم تضعفهم أمراض الترف ، ومثل هؤلاء هم الذين يستطيعون القيام بالمسئوليات الجسام ، والمهام العظام .

خامساً : كانوا لايزالون بخير فكانوا يؤثرون الفضائل ، ويعتقدون بسمو الأخلاق ، ويقدرون صاحبها . وهذه صفات حماة المبادىء السليمة وسمات الداعين اليها .

يوضح ذلك ماورد فى حديث هرقل مع أبى سفيان [2] - والذى كان مازال فى شركه - والذى وجه فيه هرقل عدة أسئلة إلى أبى سفيان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى هذا يقول أبوسفيان بعد إسلامه " فوالله لولا الحياء من أن يؤثروا على كذبا لكذبت عنه " لقد استحيا أبو سفيان أن يقال إنه كذب ، مع أنه يتحدث عن إنسان هو من أشد الناس كراهية له .

وحينما نزل الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعانى منه شدة خاف ، فطمأنته زوجته ، معللة أن من كان على شاكلته الخلقية فإن الله لايخزيه . قالت :

والله مايخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق [3] .

لقد آمنت المصونة أن من كانت هذه أخلاقه ، فالله لن يضيعه ، وهذا له ماله من الدلالة على ماكان فى القوم من خلق وخير .

سادساً : كانوا أمة بكراً لم تستهلك قواهم العلمية والفكرية ومواهبهم الفطرية

(١) سورة الأحزاب آيه ٢٣ .
(٢) حديث هرقل مع أبى سفيان أخرجه البخارى فى بدء الوحى ٣١/١ حديق رقم ٧ .
(٣) حديث خديجة هذا أخرجه البخارى فى بدء الوحى ٢٢/١ حديث رقم ٣ .

فى فلفسات خيالية أو مذاهب كلامية ، أو حروب اقليمية سياسية ، وانما تفتقت أذهانهم بمايرهف الحس ويهذب النفس، فبرعوا فى علوم الأدب، والتى هى من أدق العلوم ، فنظموا ونقدوا ويكفى فى الدلالة على قوة هذه الأمة العقلية ماثبت من أنهم كانوا على استعداد لحفظ أى شىء يسمعونه ؛

فها هو ابن عباس يحفظ فى سمعة واحدة قصيدة عمر بن أبى ربيعة والتى مطلعها

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر ∴ غداة غد أم رائح فمهجر (١)

وها هو قتادة يقول : ماسمعت أذناى شيئاً قط الا وعاه قلبى (٢)

ويقول ابن شهاب الزهرى إنى لأمر بالبقيع فأسد آذانى مخافة أن يدخل فيها شىء من الخنا فوالله مادخل أذنى شىء قط فنسيته (٣) .

وهذه القوى وتلك الملكات لها مالها فى حفظ هذا الدين ، الذى يتطلب فى أصحابه مثل هذه المواهب ، ليستوعبوا نصوصه وينشروها على مسامع البشرية .

سابعاً : كانوا أصحاب حرية ، لم يألفوا الرق والعبودية لحاكم أو قوى ، ولايخضعون لذل ، وإنما يتبعون ويعطون فى هداية ورشد مختارين ، وممايصور ذلك قول عمر بن الخطاب ، مثل العرب كمثل جمل أنف فليعلم قائده أين يقوده .

ولم يحدث فى تاريخ العرب أن اتخذ حكامهم فى أى وقت من الأوقات صفة الألوهية التي اتخذها ملوك وأباطرة البلدان الأخرى كأباطرة الروم، وبراهما الهند .

بل إن العرب لايدينون لمجرد قوى ، وإنما يشترطون فى الحاكم الذى يمكن أن يسمعوا ويطيعوا له ست خصال : السخاء ، والنجدة ، والصبر، والحلم ، والتواضع والبيان .

---

(١)جامع بيان العلم ٨٣/١ .

(٢) علل الحديث للترمذى ، و الإلماع صـ ٢٢٠ .

(٣) جامع بين العلم ٨٣/١ . .

والفهم الحرية هذا عامل أساسى فى أمة ستحمل دينا يعلى قدر الإنسان " ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البروالبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تصيلا "(١)

دين يلهم الانسان أنه عبد لله وحده ، لايحني جبينه الا له سبحانه ، وربه الذى خلقه سخر له كثيرا من العوالم ، فى حين كلفه بطاعته .

ثامنا : كانوا أصحاب لغة واحدة ، فلقد كان أهل الجزيرة - رغم طول المسافات واختلاف الأوساط من بدو وحضر ورعاة وتجار - يتكلمون لغة واحدة ، وإن اختلفت لهجاتها إلا أنها اتحدت أصولها .

وهذا عامل مهم فى سهولة ويسر انتشار الدعوة الإسلامية .

تاسعاً : كانت فطرهم أقرب إلى الصواب من غيرهم ، فرغم أن الوثنية دخلت بلادهم إلا أنهم كانوا يعرفون الله سبحانه خالقا عليما بصيرا رزاقا . كانوا يعرفونه سبحانه بكثير من صفاته اللائقة به سبحانه كما قال الله سبحانه .

" قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر الأمر فسيقولون الله " (٢)

وقال سبحانه " ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله " وقال سبحانه " ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله " (٣)

وهذه الفطر السليمة هى السر فى ظهور من أنكر الأصنام منهم ، وأعلن أنه لابد لهذا الكون من إله !! من هؤلاء :

أمية بن أبى الصلت الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم " وكاد أمية

---

(١) سورة الاسراء آية ٧٠ .
(٢) سورة يونس آيه ٣١ .
(٣) سورة العنكبوت آية ٦١ ، ٦٣ .

بن أبى الصلت أن يسلم " وفى هذا الحديث أيضاً يقول صلى الله عليه وسلم : أصدق كلمة قالها شاعر ، كلمة لبيد " ألا كل شيء ماخلا الله باطل (١) .

ومنهم أيضاً زيد بن عمرو بن نفيل الذى رفض اليهودية والنصرانية وكان على دين ابراهيم الخليل كما أخرج البخارى ذلك عن ابن عمر (٢)

وكان زيد هذا يقول إنى لست آكل مماتذبحون على أنصابكم ، ولا آكل الا مما ذكر اسم الله عليه ، وكان يعيب على قريش ذبائحهم يقول : الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء الماء ، وأنبت لها من الأرض ، ثم تذبحونها على غير اسم الله ؟! إنكارا لذلك وإعظاما له .

وكان يقول : يامعشر قريش ، والله مامنكم على دين ابراهيم غيرى ، وكان يحيى الموءودة يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته : لاتقتلها ، أنا اكفيك مؤنتها فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها : إن شئتَ دفعتها إليك وان شئتَ كفتيك مؤنتها " (٣)

ومنهم أيضاً قُسّ بن ساعدة الإيادى (٤) .

ومنهم أيضاً ورقة بن نوفل الذى خرج مع زيد بن عمرو بن نفيل يبحث عن دين يرتضيه فتنصر ورقة ، وتعبد زيد على دين الخليل ابراهيم .

وورقة هذا هو الذى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم (حينما أخبره الرسول بخبر الوحى) ، هذا الناموس الذى أنزله الله على موسى ، ياليتنى فيها جذعا ، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مخرجى هم ؟ قال نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزراً ..... الحديث " (٥)

---

(١) أخرجه البخارى فى مناقب الأنصار باب أيام الجاهلية ١٤٩/٧ رقم ٣٨٤١ .

(٢) عقد البخارى فى صحيحه بابا عن زيد بن عمرو بن نفيل، راجع مناقب الانصار١٤٢/٧ . ٣٨٢٦-٣٨٢٨

(٣) البخارى فى الموضع السابق ، وراجع مجمع الزوائد ٩ / ٤١٧ والسيرة لابن كثير ١٥٣/١.

(٤) راجع سيرة ابن كثير ١٤١/١ .

(٥) أخرجه البخارى فى بدء الوحى٢٢/١رقم٣، وراجع الشرح ففيه تعريف بورقة وماكان منه فى شأن الدين.

وورقة هذا هو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم "لاتسبواورقة فإنى رأيت له جنة أو جنتين " (١)

وقال صلى الله عليه وسلم فيه أيضاً لماسئل عنه " يبعث يوم القيامة أمة وحده " (٢)

إن وجود مثل هذه الشخصيات - والتى ذكرت بعضا منها - يبين مدى سلامة الفطرة العربية ، لدرجة أن ينكر أحدهم اليهودية لمانالها من تحريف ، والنصرانية لما أصابها من تزييف كماسبق فى الكلام على زيد بن عمرو بن نفيل ، وراجع بقية مصادره .

عاشراً : كان فكرهم سليما ، وفهمهم مستقيما ، يحسنون الاستنباط ، ويجيدون الاستنتاج ومن ثم نجد القرآن خاطبهم بناء على ذلك .

قال سبحانه " قل انظروا ماذا فى السموات والأرض " (٣)

وقال سبحانه " أو لم يتفكروا " (٤)

وقال " أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وماخلق الله من شىء " (٥)

وقال " سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق " (٦)

وهذا يختلف تماماً عما سجله القرآن عن بنى إسرائيل من قول الله سبحانه " واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة " (٧)

حادى عشر: الثبات على المبدأ ، فالعرب رغم أنهم لم يأتهم رسول منذ إسماعيل ، وغيرهم أتاهم من الرسل الكثير ، رغم ذلك كانت فطر العرب أسلم ،

---

(١) ذكره فى مجمع الزوائد ٤١٦/٩ وعزاه للبزار عن عائشة ورجال اسناده رجال الصحيح .
(٢) ذكره فى مجمع الزوائد ٤١٦/٩ وعزاه للطبرانى عن أسماء بنت أبى بكر ورجاله رجال الصحيح .
(٣) سورة يونس آيه ١٠١ .
(٤) سورة الأعراف آية ١٨٤ .
(٥) سورة الأعراق آية ١٨٥ .
(٦) سورة فصلت آية ٥٣ .
(٧) سورة الأعراف آية ١٧١ .

ومعرفتهم بالله سبحانه وتعالى أكثر ، وهذا يدل على شدة تمسكهم وثبوتهم ، وهذا مايناسب الدين الذى أراد الله له الخلود .

ثانى عشر : كانت مهنتهم الاساسية التجارة يليها الرعى ، وهاتان المهنتان أهلهما أقدر الناس على نشر الدين . إذ أن التجار ذو دراية بالمسالك الفكرية لأنواع البشر ، والرعاة مهنتهم مهنة الرسل ، والتى تهيىء لتحمل أعباء رسالة ، وتربى خلق الصبر ، وفضيلة الرحمة ، والتجار والرعاة ليسوا أهل التصاق بأوطانهم ، وإنما ذو تعود على الترحال وهذا له شأنه فى خدمة الدعوة ، ونشر هذا الدين .

الدروس المستفادة :

ومن خصال العرب هذه نستفيد الدروس الآتية :

- يجب أن يسند الأمر إلى أهْل له ، فإنه الجدير بالقيام به .
- على المسلمين أن يحرصوا على سلامة ملكاتهم ، وذلك بالبعد عما يضعفها والحرص على مايقويها ، فالبعد عن الضوضاء والجدل ممايورث سلامة الفكر. والعدل والإنصاف ممايورث سلامة الإرادة، وقوة الشخصية، والعزة والكرامة .
- على الأمة أن تحرص على سلامة الأخلاق ، وذلك بإشاعة الفضيلة ومحاربة الرذيلة .
- على الداعية أن يكون ملما بأحوال المجتمعات والأشخاص الذين يدعوهم فإن هذا ممايؤهله لدعوتهم .

جـ- نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم :

- شـــرف نسبه صلى الله عليه وسلم .
- التعريف بنسبه صلى الله عليه وسلم .
- تفسيـر نسبه صلى الله عليه وسلم .

والمتأمل فى سيرته صلى الله عليه وسلم يتساءل :لم اصطفى الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم من بنى هاشم ، من قريش ؟

والجواب :إن الله تبارك وتعالى اختار لنبيه صلى الله عليه وسلم هذا النسب ، لأنه أشرف الأنساب ، وتفصيل هذا الإجمال فيمايلى :

أولاً : شرف نسبه صلى الله عليه وسلم :

اصطفى الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم من أشرف الأنساب وأسماها ، وأطهرها وأعلاها ، ونسبه صلى الله عليه وسلم فى الأنبياء عريق ، فهو من ذرية اسماعيل بن الخليل ابراهيم عليهم الصلاة والسلام .

يوضح شرف نسبه صلى الله عليه وسلم .

أ- من القرآن الكريم :

١ - قول الله تعالى « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » [١] بفتح الفاء روى ابن مردويه عن أنس قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم " لقد جاءكم رسول من أنفسكم " بفتح الفاء " وقال ؛ أنا أنفسكم نسبا وصهراً وحسباً [٢] .

وقرأ عبد الله بن قسيط المكى بفتح الفاء . قال أبو الفتح بن جنى : معناه من خياركم ومنه قولهم هذا أنفس المتاع أى أجوده وخياره ، واشتقه من النفس وهى أشرف مافى الإنسان [٣] .

٢ - قول الله تعالى " الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ان الله سميع بصير " [٤] واصطفاء الله سبحانه أزلى ، فيهىء لمن سيطفيه مايؤهله لذلك من أول الخليقة .

---

(١) سورة التوبة آية ١٢٨ .

(٢) سبل الهدى ٢٧٧/١ .

(٣) راجع المحتسب لابن جنى ٣٠٧/١ ط المجلس الأعلى سنة ١٣٨٦ .

(٤) سورة الحج آية ٧٥ .

٣ - قول الله تعالى " أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون " (١)

وفى هذا دليل على معرفتهم إياه صلى الله عليه وسلم بمافيه من فضائل ، من كريم خلق ، وطهارة نسب ، إذ الاستفهام إنكارى ، ينكر عليهم سبحانه تجاهلهم للنبى صلى الله عليه وسلم مع أنهم يعرفونه حق المعرفة .

ويتضمن تعبير "يعرفوا" معانى عديدة كما تلهمه روح الآية ، أى أنهم يعرفونه صلى الله عليه وسلم بإيجابياته الشخصية ، والنسبية ، وماطبع ونشأ عليه .

إنهم يعرفون أنه الصادق الأمين ، ويعرفون آباءه وماكان فيهم من خير وعفة ، فلم التكذيب ؟

٤- قول الله تعالى " وتقلبك فى الساجدين " (٢) قال ابن عباس فى تفسيرها " من صلب نبى الى نبى حتى صرت نبياً " (٣)

ب- من السنة النبوية :

١- فى حديث هرقل مع أبى سفيان وسؤاله إياه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هرقل كيف نسبه فيكم ؟ فقال أبو سفيان - وكان مشركاً حينذاك - هو فينا ذو نسب .

ثم قال هرقل " فكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها " (٤)

٢- أخرج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا حتى كنت من القرن الذى كنت منه " (٥) .

---

(١) سورة المؤمنون آية ٦٩ .

(٢) سورة الشعراء آية ٢١٩ . .

(٣) مجمع الزوائد ٢١٤/٨ وقال رواه البزار ورجاله ثقات .

(٤) حديث هرقل مع أبى سفيان تقدمت الإشارة اليه وهو عند البخارى فى بدء الوحى جـ ١ صـ ٣١ حديث رقم ٧ وراجع شرحه فى فتح البارى من صـ ٣١ - ٤٥ .

(٥) أخرجه البخارى فى الأنبياء باب صفة النبى صلى الله عليه وسلم ٥٦٦/٦ رقم ٣٥٥٧ .

٣- أخرج مسلم عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله اصطفى كنانه من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشامن كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم " [١]

٤- وأخرج الترمذى عن واثلة " إن الله اصطفى من ولد ابراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » وقال : حسن صحيح [٢] .

٥- وأخرج الترمذى وأحمد عن المطلب بن أبى وداعة قال : جاء العباس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكأنه سمع شيئاً فقام النبى صلى الله عليه وسلم على المنبر فقال من أنا ؟ فقالوا : أنت رسول الله عليه السلام قال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إن الله خلق الخلق فجعلني في خيرهم ، ثم جعلهم فرقتين فجعلنى فى خيرهم فرقة ، ثم جعلهم قبائل فجعلنى فى خيرهم قبيلة ، ثم جعلهم بيوتا فجعلنى فى خيرهم بيتا وخيرهم نفساً قال الترمذى: حسن صحيح غريب.[٣]

٦- وأخرج الترمذى وحسنه عن العباس بن عبد المطلب قال قلت يارسول الله إن قريشا جلسوا فتذاكروا أحسابهم بينهم فجعلوا مثلك [٤] مثل نخلة فى كبوة [٥] من الأرض فقال النبى صلى الله عليه وسلم . إن الله خلق الخلق فجعلنى من خيرهم فرقة وخير الفريقين . ثم خير القبائل فجعلنى من خير القبيلة .ثم خير البيوت فجعلنى من خير بيوتهم فأنا خيرهم نفسا وخيرهم بيتا [٦] .

---

(١) أخرجه مسلم من الفضائل باب فضل نسب النبى صلى الله عليه وسلم ١٧٨٢/٤ رقم ٢٢٧٦ وأخرجه الترمذى فى الموضع الآتى ٧٧/١٠ .

(٢) أخرجه الترمذى فى المناقب باب ماجاء فى فضل النبى صلى الله عليه وسلم ٧٤/١٠ تحفة .

(٣) أخرجه الترمذى فى الموضع السابق ٧٦/١٠ وأخرجه أحمد ٤/ ١٦٥ .١٦٦ ورجاله رجال الصحيح مجمع ٢١٥/٨ ، ٢١٦ .

(٤) أى صفتك .

(٥) مجتمع الأتربة التى تخرج من البيوت وتكون خارج القرية مكانا مرتفعا من اجتماعها .

(٦) أخرجه الترمذى ، الموضع السابق ٧٥/١٠ .

٧- وعن عبد الله بن عمر- رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مابال أقوال تبلغنى عن أقوام ؟ إن الله تبارك وتعالى خلق السموات فاختار العليا فأسكنها من شاء من خلقه ، ثم خلق الخلق فاختار من الخلق بنى آدم واختار من بنى آدم العرب ، واختار من العرب مضر ، واختار من مضر قريشا واختار من قريش بنى هاشم ، واختارنى من بنى هاشم ، فأنا من بنى هاشم ، من خيار إلى خيار ، فمن أحب العرب فبحبى أحبهم ، ومن أبغض العرب فببغضى أبغضهم (١) .

٨ - وروى الحاكم والبيهقى عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال لى جبريل قلبت الأرض من مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلاً أفضل من محمد ، وقلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد بنى أب أفضل من بنى هاشم (٢) .

جـ- العقل :

والعقل يدل على شرف نسبه صلى الله عليه وسلم ، فإن الذى يصطفيه الله تعالى يهيىء له من الكمال الذاتى مايؤهله للقيام بالمهام الموكولة إليه - فمحمد صلى الله عليه وسلم مكمل بالمكامل الذاتية ومنها شرف النسب ، حتى لايعترض أحد عليه بسلبية نسبية .

د- الواقع :

ويدل الواقع أيضاً على شرف نسبه صلى الله عليه وسلم ، فلقد كان أهله صلى الله عليه وسلم على قدر كبير من الخلق والفضيلة ، وكانوا على الخير قادة ، فهم

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك ٧٣/٤ من طريقين وأخره الطبرانى فى الكبير والأوسط ، وفيه حماد بن واقد ضعيف يعتبر به ، وبقية رجاله وثقوا ، راجع مجمع الزوائد ٢١٥/٨ .

(٢) ذكره فى الخصائص ٩٦/١ وذكره فى سبل الهدى والرشاد ٢٧٦/١ وعزاه للطبرانى والبيهقى وابن عساكر ثم نقل عن الحافظ فى أماليه قوله " لوامع الصحة ظاهرة على صفحات هذا المتن ، وذكره فى مجمع الزوائد ٢١٧/٨ وعزاه للطبرانى فى الأوسط وفيه موسى بن عبيده الربذى وهو ضعيف .

الذين جمعوا قريشا ولموا شعثها ، وهم القائمون على خدمة البيت الحرام ، وإطعام وسقى الحجيج ، وهم أبرز أهل حلف الفضول ، إلى غير ذلك من المكارم .

واعتراض بعض القرشيين على نسبه صلى الله عليه وسلم لايمثل عيبا فى نسبه أو منزلته صلى الله عليه وسلم ، وانما يمثل خطأ فى فهمهم النبوة والرسالة .

وقد حكى القرآن الكريم عنهم ذلك ورد عليهم .

قال سبحانه " وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أهم يقسمون رحمة ربك " (١)

إن هؤلاء فهموا أن الجدير بالرسالة من اتصف بالزعامة والسطوة !! والعنجهية والثروة !! وهذا فهم خاطىء فنّده القرآن الكريم فى غير ماموضع مبينا أن الزعامة الدنيوية مناط المفاسد والمسالب والغنى والثروة يقربان الفرد من المهالك والمتالف .

يقول سبحانه " وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها " (٢)

ويقول " وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها " (٣)

قرىء " أمَّرْنا " وقرىء " أمَرنا "

والقراءة الأولى دليل على أن تأمير المترف الثرى -الذى لاخلق له - سبب هلاك وفسق ، والقراءة الثانية دليل على أن المترفين أقرب للفسق من غيرهم مالم يردع دين أو يهذب خلق .

إن الذين زعموا هذا الزعم - الرسول لابد أن يكون من أهل السطوة والثروة - فهموا أن الرسالة زعامة ، لامنهج تربوى وأسوة وقدوة ، وفهموا أنها تكون لمن له عظيم الحظ من حطام الدنيا ، وهذا فهم خاطىء، وبالتالى فالحكم المبنى عليه

---

(١) سورة الزخرف آية ٣١ ، ٣٢ .

(٢) سورة الأنعام آية ١٢٣ .

(٣) سورة الإسراء آية ١٦ .

خاطىء ، وهو حكمهم المثل فى قولهم ، «لولا انزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم " .

إنه ليس عظيما فى نظركم الخاطىء أما عند الله فهو عظيم صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

ثانياً : التعريف بنسبه صلى الله عليه وسلم :

ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم صدر نسبه فى حديث المطلب بن أبى وداعة الذى أخرجه الترمذى وأحمد - وقد تقدم - فقال صلى الله عليه وسلم " أنا محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب " .

وعن الأشعث بن قيس (١) قال : قلت يارسول الله إنّا نزعم أنا منكم أو أنكم منا - شك أبو بشر(٢) - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نحن بنو النضر ابن كنانة ، لانتنفى من أبينا ، ولانقفوا أمّنا (٣)، فقال الأشعث : لا أجد أحداً - أولا أوتى بأحد - نفى قريشا من كنانة إلا جلدته الحد (٤) .

وعن كليب بن وائل قال حدثتنى ربيبة النبى صلى الله عليه وسلم زينب ابنة أبى سلمة قال : قلت لها أرأيت النبى صلى الله عليه وسلم أكان من مضر ؟ قالت فممن كان الا من مضر ؟ من بنى النضر بن كنانة » (٥) .

وأخرج البيهقى فى دلائل النبوة عن أنس قال : بلغ النبى صلى الله عليه وسلم أن رجالاً من كندة يزعمون أنهم منه ، وأنه منهم ، فقال : انما كان يقول ذلك

---

(١) هو الأشعث بن قيس بن معدى كرب الكندى من ملوك كندة ، واسمه معد يكرب ولقب بالأشعث لأنه كان أبداً أشعث الرأس . راجع الاصابة ٨٧/١ - ٨٩ رقم ٢٠٥ .

(٢) أحد الرواة .

(٣) أى لانترك النسب إلى الآباء ، وننتسب الى الأمهات ، وقيل : لا نتهم أمنا .

(٤) أخرجه الطيالسى فى مسنده صـ ١٤١ رقم ١٠٤٩ واللفظ له ، وأخرجه ابن ماجه فى الحدود باب من نفى رجلا من قبيلة ٨٧١/٢ رقم ٢٦١٢ ، ونقل عن الزوائد أن اسناده صحيح ، وعزاه ابن كثير فى البداية ٢١٩/٢ لأحمد وابن ماجه وقال : هذا اسناد جيد قوى .

(٥) أخرجه البخارى فى المناقب باب يا أيها الناس أنا خلقناكم ... ٥٢٥/٦ رقم ٣٤٩١ ، ٣٤٩٢ .

العباس وأبو سفيان بن حرب فَيأْمَنَا بذلك ، وإنا لن ننتفى من آبائنا ، نحن بنو النضر بن كنانة . قال : وخطب النبى صلى الله عليه وسلم فقال :

أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مَنَاف بن قُصَىّ بن كِلاب ابن مُرّة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فِهْر بن مالك بن النَّضْر ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مُضَر بن نزَار بن مَعَدّ ابن عدنان .

وماافترق الناس فرقتين الاجعلنى الله فى خيرها ، فأخرجت من بين أبوىّ فلم يصبنى شىء من عهر الجاهلية ، وخرجت من نكاح ، ولم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبى وأمى فأنا خيركم نفسا وخيركم أبا (١) .

وهذا النسب منه صلى الله عليه وسلم الى عدنان بهذه الصفة لاخلاف فيه بين العلماء . وقد ذكره البخارى - رحمه الله تعالى - فى صحيحه بدون إسناد فى كتاب مناقب الأنصار باب مبعث النبى صلى الله عليه وسلم (٢) .

مابعد عدنان :

ولاخلاف أن عدنان من سلالة إسماعيل بن إبراهيم ، لكن اختلف فى عدد الآباء بينه أى عدنان وبين إسماعيل على أقوال كثيرة ، فأكثر ماقيل أربعون ، وأقل ماقيل أربعة . وهذا الأخير هو الراجح عندى لشهادة المرفوع له ، فقد أخرج الحاكم فى المستدرك عن أم سلمة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : معد بن عدنان ابن أُدَد بن زَنْد بن يراء بن أعراق الثرى قالت ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أهلك "عادا وثمود وأصحاب الرس وقرونابين ذلك كثيراً»(٣) لايعلمهم إلا الله . قالت : وأعراق الثرى إسماعيل عليه السلام ، وزند هميسع ويراء نبت (٤) " صححه الحاكم وأقره الذهبى .

---

(١) قال الحافظ ابن كثير (السيرة ١٨٩/١) وهذا حديث غريب جداً من حديث مالك ، تفرد به القُدامى ، وهو ضعيف ، ولكن سنذكر له شواهد من وجوه أخر ١٠ هـ وذكر له شواهد .

(٢) صحيح البخارى بشرحه فتح البارى صـ ٧ صـ ١٦٢ .

(٣) سورة الفرقان آية ٣٨ .

(٤) صححه الحاكم وأقره الذهبى ، الفتح الربانى ١٨٠/٢٠ .

وأخرجه الدولابى من طريق موسى بن يعقوب بنحو ماأخرجه الحاكم (١) .

ومن الأئمة من رفض ذكر مابين عدنان وإسماعيل ، من هؤلاء :

عروة بن الزبير-خبيرالسير-قال:ماوجدنا أحداً يعرف مابين عدنان واسماعيل(٢)

وابن عباس قال : بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبا لايعرفون .

وعمر بن الخطاب قال : إنما ننتسب إلى عدنان ومافوق ذلك لاندرى ماهو . (٣)

وهؤلاء قولهم مبنى على عدم علمهم بذلك ، فلو وجد من يعلم فهى زيادة علم ، وزيادة العلم مقبولة . ومماهو معلوم أن العرب اهتموا بأنسابهم اهتماما منقطع النظير يغبطهم عليه أهل الأجناس الأخرى ، وكان فيهم النسابون أولوا الخبرة بالأصول والفروع ، وكان هذا العلم متوارثا فيهم .

يقول أبو على الجيانى : خص الله هذه الأمة بثلاثة أشياء لم يعطها من قبلها : الإسناد ، الأنساب ، الإعراب (٤) .

وجاء الاسلام فأقر هذا كمافى قوله صلى الله عليه وسلم : تعلموا من أنسابكم ماتصلون به أرحامكم ... الحديث (٥)

وإقرار الاسلام لهذا العلم جعله مستمراً حيا ، فلا غرابة أن يوجد من النسابين من يستطيع الإخبار ، ولعل الحديث المرفوع لم يبلغ هؤلاء . ولو بلغهم لقالوا به وحديث أم سلمة هذا يخالفه أقوال المؤرخين ، فإنهم يقولون إنه يستحيل فى العادة أن يكون بينهما أربعة آباء ، أو سبعة كما ذكره ابن اسحاق ، أو عشرة أو عشرون فإن المدة أطول من ذلك كله .

---

(١) الفتح الربانى ٢٠ / ١٨٠ .

(٢) راجع الروض الأنف .

(٣) راجع سيرة ابن كثير ١/٧٥ .

(٤) قواعد التحديث صـ ٢٠٠ .

(٥) أخرجه الترمذى فى البر والصلة باب ماجاء فى تعليم النسب ٦/١١٣ الأحوذى وقال : غريب من هذا الوجه وأشار فى التحفة إلى أن الحاكم أخرجه وصححه ، وأخرجه أحمد ٢/٣٧٤ كلاهما عن أبى هريرة .

وقول المؤرخين والإخباريين هذا لايقوى على معارضة النص خاصة أنهم يؤيدون قولهم بقول بعض ، فالمعول عليه الحديث ، ودورنا أن نتثبت من صحته فقط ، فإن ثبت الحديث لزمنا القول به ، ولاعبرة بقول قائل مهما كان .

وقد علق أحد المحققين لكتاب من كتب السيرة على هذا الحديث بأنه مكذوب ، وعلل الحكم بأمور لاعلاقة لها بعلم الدراية مطلقاً . وهذا منهج لايقبله عاقل ، ووزره على صاحبه ومن قبل كلامه . وعليه فإنى أسلم بالحديث - حديث أم سلمة - وأقبله ، وبذا يصبح نسبه صلى الله عليه وسلم معلوما إلى إسماعيل .

نسبه صلى الله عليه وسلم وقريش :

ونسب رسول الله صلى الله عليه وسلم المتفق عليه منه صلى الله عليه وسلم الى عدنان ، والمتفق على أنه من سلالة إسماعيل ، يوضح لنا قول ابن عباس فى تفسير قول الله تعالى " قل لا أسألكم عليه أجراً . الا المودة فى القربى »[1] فإنه قال إن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا وله فيه قرابة ، فنزلت عليه فيه إلا أن تصلوا قرابة بينى وبينكم [2]» قال ابن كثير :- وصدق ابن عباس رضى الله عنه فيما قال وأزيد مما قال ، وذلك أن جميع قبائل العرب العدنانية تنتهى إليه بالآباء ، وكثير منهم بالأمهات أيضاً ، كما ذكره محمد بن اسحاق وغيره في أمهاته وأمهات آبائه وأمهاتهم مايطول ذكره [3] .

رفع النسب :

الكاتبون فى السيرة ممن اطلعت علي كتبهم يجعلون الأئمة فريقين في موضوع رفع النسب ، فريق يرى ذلك - رفع النسب - ، وفريق يمنعه .

---

(١) سورة الشورى آية ٢٣ .

(٢) أخرجه البخارى في المناقب باب « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » ٦ / ٥٢٦ رقم ٣٤٩٧ وفى التفسير باب « إلا المودة فى القربى » ٨ / ٥٦٤ رقم ٤٨١٨ . وأخرجه أحمد ١ / ٢٢٩ ، ٢٨٦ .

(٣) البداية ٢ / ٢٧٧

والمانعون لرفع النسب - فيم يرى هؤلاء الكتاب - هم الإمام مالك . ولم يذكروا غيره .

يقول السهيلي - في الروض الأنف - : وإنما تكلمنا في رفع هذه الأنساب علي مذهب من يرى ذلك ولم يكرهه كابن اسحاق والبخارى ، والزبير بن بكار ، والطبرى وغيرهم . وأما مالك رحمه الله فقد سئل عن الرجل يرفع نسبه إلى آدم فكره ذلك ، وقال: من أين له علم ذلك ؟ فقيل له فإلى إسماعيل ؟ فأنكر ذلك أيضا وقال ومن يخبره به ؟ . ١ هـ

وفى رأيى أن الأمر أيسر من ذلك . فلا خلاف بين العلماء ، غاية الأمر أن الإمام مالك يستبعد وجود من يعلم ذلك ، ويجعل العلم شرطا والثقة ضرورية فى الحكم بذلك . ولاأظن أن أحدا يخالفه فى ذلك .

فإذا وجد من يعلم ، وتوفرت أسباب الثقة فلا يمنعه الإمام مالك كما لايمنعه غيره .

ومن ثم يقول ابن عبد البر : والمعني عندنا فى هذا غير ما ذهبوا إليه ، والمراد أن من ادعى إحصاء بنى آدم فإنه لايعلمهم إلا الله الذى خلقهم ، وأما أنساب العرب فإن أهل العلم بأيامها وأنسابها قد وعوا وحفظوا جماهيرها ، وأمهات قبائلها ، واختلفوا في بعض فروع ذلك .

ولعل سر قول مالك هذا أنه لم يكن من أهل العلم بالأنساب ؛ سأله أبو نعيم ما كان اسم عبد المطلب؟ قال : شيبة قال : فهاشم؟ قال : عمرو ، قال: فعبد مناف؟ قال : لاأدرى (١) .

ثالثاً : تفسير نسبه صلى الله عليه وسلم .

* جده صلى الله عليه وسلم عبد المطلب :-

اسمه شيبة ، سمى بذلك :

(١) الروض الأنف ١ / ٤٧ ط الوكيل ، وراجع البداية ٢ / ٢١٣ .

١ - لشيبة كانت فى رأسه ولد بها .
٢ - وقيل إن أباه أوصى أمه بذلك ففعلت .
٣ - وقيل كانوا يسمون بذلك تفاؤلا ببلوغ سن الحنكة .

وكانوا يقولون له « شيبة الحمد » لكثرة جوده . قلت : هذا التعليل يصح إن كان لقب بذلك كبيرا ، وأما إن كان يعرف به صغيرا فإنما ذلك رجاء أن يكبر ويشيخ ويكثر حمد الناس له .

وعللوا إطلاق عبد المطلب عليه بأحد أمور :-

١ - أن أباه هاشما لما حضرته الوفاة قال لأخيه المطلب بن عبد مناف أدرك عبدك ، قاله استعطافا ، أو علي عادة العرب في إطلاقهم على اليتيم المربى فى حجر شخص إنه عبده .

٢ - أن عمه المطلب جاء به إلي مكة رديفه وهو بهيئة رثة فكان يسأل عنه فيقول هو عبدى حياء من أن يقول ابن أخى ، فلما أدخله مكة وأحسن من حاله أظهر أنه ابن أخيه .

٣ - أن أباه هاشما لما مر بالمدينه المنورة في تجارته إلي الشام نزل على عمرو بن زيد ابن لبيد بن حرام الخزرجى النجارى ، وكان سيد قومه، فأعجبته ابنته «سلمى» فخطبها الى أبيها فزوجها منه ، واشترط عليه مقامها عنده ، وقيل بل اشترط عليه أن لا تلد إلا عنده بالمدينة فلما رجع من الشام بنى بها ، وأخذها معه إلي مكة فلما خرج في تجارة أخذها معه وهى حبلى ، فتركها بالمدينة ودخل الشام فمات بغزة ووضعت سلمى ولدها فسمته « شيبة » فأقام عند أخواله بنى عدى بن النجار سبع سنين ، ثم جاء عمه المطلب بن عبد مناف فأخذه خفية من أمه فذهب به إلى مكة فلما رآه الناس وراءه علي الراحلة قالوا من هذا معك ؟ فقال : عبدى ثم جاءوا فهنؤه به ، وجعلوا يقولون له عبد المطلب لذلك فغلب عليه .

ولا أتصور أن يكون عمرو بن زيد قد اشترط علي هاشم أن تقيم ابنته عنده ، أو أن لاتلد إلا عنده فإن طباع العرب ، وظروف معيشتهم تأبى ذلك ، وإنما الذى أميل اليه أنه لم يشترط شيئا ، وصادف أن كان هاشما خارجا في تجارة ستمر علي المدينة فأخذ زوجته يزيرها أهلها ، ووضعت في المدينة .

أما الأقوال الثلاثة في سر إطلاق عبد المطلب على شيبة فإن صاحب المواهب رجح الثانى وأرى أن الأول أرجح ، وأستسيغ الثانى والثالث علي اعتبار أن قريشا لما رأته خلف المطلب قالوا عبد المطلب ولم يقل المطلب عبدى .

ولقد ساد عبد المطلب هذا في قريش سيادة عظيمة ، وذهب بشرفهم ورآستهم ، فكان جماع أمرهم عليه وكانت إليه السقاية والرفادة بعد عمه المطلب ، وهو الذى جدد حفر زمزم بعد ما كانت مطمومة من عهد جرهم (١)، وهو أول من طلى الكعبة بذهب فى أبوابها من تينك الغزالتين اللتين من ذهب ، وجدهما ما فى زمزم مع تلك الأسياف .

وكان عبد المطلب رجلا سليم الفطرة ، لم تأخذ الأصنام فطرته ، ولم تستول علي قلبه ، كان يعرف ربه ، ويؤمن بأنه علي كل شيء قدير، يوضح هذا ما روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : أقبل اصحاب الفيل حتى إذا دنوا من مكة استقبلهم عبد المطلب فقال لملكهم ما جاء بك إلينا ؟ ألا بعثت فنأتيك بكل شيء أردت ؟ فقال : أخبرت بهذا البيت الذى لايدخله أحد إلا أمن فجئت أخيف أهله ، فقال : إنا نأتيك بكل شيء تريد فارجع ، فأبى إلا أن يدخله ، وانطلق يسير نحوه وتخلف عبد المطلب فقام على جبل فقال : لاأشهد مهلك هذا البيت وأهله ثم قال :

اللهم إن لكل إله ∴ حلالا فامنع حلالك
لايغلبنّ محالهم ∴ أبدا محالك
اللهم فإن فعلت ∴ فأمرُ ما بدالك

(١) راجع سيرة ابن كثير في البداية ٢ / ٢٦٦ .

فأقبلت مثل السحابة من نحو البحر حتى أظلتهم طير أبابيل التى قال الله عز وجل ترميهم بحجارة من سجيل ، قال : فجعل الفيل يعج عجا ، فجعلهم كعصف مأكول (١) .

وأمر آخر يدل علي سلامة فطرة عبد المطلب ، وهو أنه بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر ، وكان صغيرا فغاب عنه فأخذ يطوف بالكعبة ويسأل الله أن يرد عليه ابن ابنه محمد صلي الله عليه وسلم (٢) .

هاشم :

اسمه عمرو العلا ، وانما سمى هاشما لأنه أول من هشم الثريد لقومه بمكة وأطعمه ، وكان ذلك فى وقت شدة ، فكان يذبح كل يوم ويصنع ثريدا لأهل مكة حتى استكفوا .

وهو أول من سن رحلتى الشتاء إلي اليمن والصيف الي الشام ، وكانت اليه السقاية والرفادة بعد أبيه .

وإلي هاشم هذا وإلي أخيه المطلب نسب ذوو القربى . فيقال ذوو القربى - قربي النبى صلي الله عليه وسلم - هم بنو هاشم وبنو المطلب .

وهاشم هذا وإخوته المطلب وعبد شمس ونوفل يقال لهم : «المجيزون » لأن هاشما أخذ الأمان لهم علي قيصر الروم بالذهاب الي بلاده والاتجار ، ونوفل أخذه على الأكاسرة بالعراق ، والمطلب أخذه على حمير باليمن ، وعبد شمس أخذه علي النجاشى بالحبشة .

---

(١) ذكره فى الدر المنثور ٦ / ٣٩٤ وعزاه لابن المنذر والحاكم وصححه وابى نعيم والبيهقى . قلت : هو فى مستدرك الحاكم ٢ / ٥٣٥ في كتاب التفسير تفسير سورة الفيل وصححه وأقره الذهبى وراجع الدر فى الموضوع المذكور ففيه روايات مفيدة .

(٢) سيأتى هذا عند الكلام علي نشأته صلي الله عليه وسلم .

عبد مناف :

اسمه المغيرة منقول من الوصف من أغار علي الأعداء ، أو من أغار الحبل أحكمه والهاء فيه للمبالغة كعلامة ونسابة ، أى أنه يكثر الإغارة على الأعداء ، أو يكثر الإحكام . أو الهاء للتأنيث وهو منقول من وصف كتيبة أو خيل مغيرة .

كانت أمه (حُبّى بنت حُلَيْل بن حُبْشية بن سَلُول بن كعب بن عمرو الخزاعى) قد أخدمته مناة، وكان صنما عظيما لهم، فسمى «عبد مناة» ، ثم نظرقصى فرآه يوافق عبد مناة بن كنانة فحوله عبد مناف .

كان عبد مناف هذا يلقب قمرالبطحاء وذلك لشدة جماله وكان قد رأس فى زمن والده ، وذهب به الشرف كل مذهب وكان مطاعا في قريش ، وإياه عنى القائل .

كانت قريش بيضة فتفلقت فالمُـحُّ خالصه لعبد مناف

وكان عبد مناف تقيا يوصى الناس بتقوى الله ، وصلة الرحم ، وكانت له السقاية والندوة (١) .

قصى :

اسمه زيد ، وسمى بذلك لأن أمه فاطمة بنت سعد بن سَيَل تزوجت بعد أبيه بربيعة بن حزام فسافر بها ومعها ابنها صغير إلى بلاده قضاعة ، فنشأ بعيدا عن مكة فسمى بذلك لذلك . وقيل سمى «قصيا» لأنه قصا قومه أى تقصاهم بالشام فنقلهم إلى مكة .

عادقصى الى مكة وهو كبير ولم شعث قريش وجمعها من متفرقات البلاد وأزاح يد خزاعة عن البيت وأجلاهم عن مكة ورجع الحق إلي نصابه وصار رئيس قريش على الإطلاق ، وله الرفادة والسقاية والسدانة والحجابة واللواء ودار الندوة . وهو الذى فرض الرفادة (٢) علي قريش إذ قال لهم : يامعشر قريش إنكم جيران

---

(١) سبل الهدى ١ / ٣٢١ - ٣٢٦ .

(٢) الرفادة :إطعام الحجيج أيام الموسم إلى أن يخرجوا راجعين إلي بلادهم .

الله (١) وأهل مكة وأهل الحرم ، وإن الحجاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق بالضيافة ، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج حتى يصدروا عنكم . ففعلوا، فكانوا يخرجون ذلك في كل عام من أموالهم خرجا فيدفعونه إليه ، فيصنعه طعاما للناس أيام منى ، فجري ذلك من أمره فى الجاهلية حتى قام أمر الإسلام ، ثم جري في الإسلام ، وهذا مما يجب أن يحرص علي استمراره علي أن يكون من بيت مال المسلمين ، ومن أطهر الأموال ، يستعين به ابن السبيل ، ممن لم يجد مالا، أو ضاع ماله . فهذا أمر طيب فعله قصى ، وجاء الإسلام فأقره ، بل والأولي أن يحرص عليه .

قال قائلهم في مدح قصى :

قصى لعمرى كان يدعى مجمّعاً   به جمع الله القبائل من فهر
هموا ملؤا البطاح مجدا وسؤددا   وهم طردوا عنا غواة بنى بكر (٢) .

وبرغم ما في قصي من اعتدال فكرى ، وجرأة وحزم إلا أنه لم يقض علي مفاسد خزاعة التي فعلوها ونشروها فى الناس ، فبقيت الأصنام تعبد ويذبح لها ، وظلت منصوبة حول الكعبة ، حتي جاء الإسلام فهدمها ، وأخذ الناس إلي عبادة الله سبحانه وتعالى وحده .

كلاب :

بكسر الكاف والتخفيف « كِلاب» منقول من المصدر بمعنى المكالبة ، أو من الكلاب جمع كلب ، لإرادة الكثرة لقب به لحبه الصيد .

اسمه حكيم ، أو حكيمة ، أو عروة ، أو المهذب ، والصحيح الأول وكنيته أبوزهرة باسم أحد أبنائه الذى هو جد النبى صلى الله عليه وسلم لأمه .

وهو أول من حلّى السيوف بالنقد (الذهب أو الفضة) نقلا عن والد زوجته سعد بن سَيَل .

(١) أى جيران بيت الله .

(٢) البداية ٢ / ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

مُرَّه :

بضم الميم وتشديد الراء المفتوحة ، كنيته أبو يقظة ، واسم « مُرَّة » يجوز فى أصله ما يلى :

١- منقول من وصف الحنظلة والعلقمة ، وكثيرا ما يسمون بحنظلة وعلقمة والهاء للتأنيث .

٢ - الهاء فيه للمباغة ، منقول من وصف الرجل بالمرارة ، وقد سمى بـ « مر » من هؤلاء [تميم بن مر] .

٣ - مسمى باسم نبات . قال أبو حنيفة الدينورى : المرة بقلة تقلع فتؤكل بالخل والزيت ، يشبه ورقها ورق الهندباء .

٤ - مأخوذ من القوة كما قوله تعالى « ذو مرة » أى قوة ويقال : مَرَّ الرجل إذا أحكم صنعته .

٥ - منقول من قولهم : مر الشيء إذا اشتدت مرارته قال تعالى « والساعة أدهى وأمرُّ » .

كَعْب :

كنيته أبو هصيص ، وكعب منقول إما من الكعب الذى هو قطعة من السمن أومن كعب القدم الذى يشبه به فى الثبوت والرسوخ . وهذا الثانى هو الأظهر لقولهم ثبت ثبوت الكعب ، وجاء فى خبر ابن الزبير أنه كان يصلى عند الكعبة يوم قتل وحجارة المنجنيق تمر بأذنيه ، وهو لايلتفت كأنه كعب راتب .

وكعب هذا هو أول من قال « أما بعد » وأول من جمع يوم العروبة يعنى الجمعة، كان يجمع قريشا يومها فيخطبهم ويذكرهم ويبشرهم بمبعث النبى صلى الله عليه وسلم .

وكان عظيم القدر عند العرب ، ولهذا أرخو بموته الى أن كان عام الفيل فأرخوا به ، ثم أرخوا بموت عبد المطلب .

لُؤَى :

بضم اللام ، وهمزة ، وقد تسهل . ولُؤَىْ إما تصغير لأى - بوزن عصا - وهو الثور الوحشى . وإما تصغير لأى - بوزن عَبْد - وهو البُطْء ، كأنهم يريدون معنى الأناة وترك العجلة . كنيته أبو كعب ، وكان حليما حكيما نطق بالحكمة صغيرا .

غالب :

مشتق من الغلب ، وكنيته : أبو تيم ، وهو المعروف بتيم الأدرم، لأن أحد لحييه كان أنقص من الآخر .

فِهْر :

بكسر الفاء ، وسكون الهاء . واسمه قريش ، وإليه تنسب قريش ، فما كان فوقه فكِنانى . وقيل اسمه فهر ، ولقبه قريش . والفهر من الحجارة الطويل وقيل الصغير . وكنيته أبو غالب ، وكان رئيس أهل مكة

مالك :

كنيته أبو الحارث ، كان حكيما ، ومن حكمه : رب صورة تخالف المخبرة ، قد عزت بجمالها ، واختبر قبيح فعالها ، فاحذر الصور ، واطلب الخبر .

النّضر :

بفتح فسكون ، اسمه قيس ، ولقب بالنضر لنضارة وجهه وجماله . ويكنى أبا يَخْلُد .

كنَانة :

بكسر ففتح ، سمى بلفظ وعاء السهام إذا كان من جلد ، لأنه كان سترا علي قومه كالكنانة التى يصان فيها النبل ، وذلك لأنه كان عظيم القدر يحتج اليه العرب لعلمه وفضله وكنيته أبو النضر .

خُزَيْمة :

بوزن التصغير ، وهو تصغير حَزَمة واحدة الخزم وهو شجر تتخذ من لحائه الحبال

أو تصغير خَزْمة ، المرة الواحدة من الخَزْم وهو شد الشيء وإصلاحه . كنيته أبو أسد وكانت له علي الناس مكارم أخلاق وأفضال كثيرة ، وكان علي دين إبراهيم ، قال ابن العباس : مات خزيمة علي ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلم [1] »

مدركة :

بضم فسكون وكسر المهملة اسمه عمرو ، وقال ابن اسحاق : عامر . وانما أطلق عليه مدركة لأنه أدرك أرنبا عجز عنها رفقاؤه . كنيته أبو هذيل .

إلْياس :

قال ابن الأنبارى (ت ٣٢٨) : إلياس بكسر الهمزة - وهى أصلية - وجعله موافقا لاسم إلياس النبي صلى الله عليه وسلم ، وجعل فى اشتقاقه أقوالا منها :

١ - فعْيَال من الألس ، وهو الخديعة ، أو اختلاط العقل .

٢ - إفعال من رجل أليس أى شجاع لا يفر.

وذهب غير ابن الأنباري إلي أنه «اليأس» بهمزة وصل ، وأل فيه للتعريف سمي بضد الرجاء .

وكنية إلياس أبو عمرو. وهو وصى أبيه ،وكان ذا جمال بارع .

وهو أول من أهدى البدن للبيت ، وأنكر علي بنى إسماعيل ما غيروا من سنن آبائهم وسيرهم ، وبان فضله عليهم ، وجمعهم رأيه ، ورضوا به فردهم إلى سنن آبائهم وسيرهم ، ولم تزل العرب تعظمه تعظيم أهل الحكمة ، كتعظيمها لقمان وأشباهه .

مُضَر :

بضم ففتح معدول عن ماضر ، اسمه عمرو ، وكنيته أبو إلياس .

ومضر من المضيرة وهى شيء يصنع من اللبن .

---

(١)ذكره فى السبل ١ / ٣٣٩ وعزاه لأبن حبيب بسند جيد .

أو من اللبن الماضر أى الحامض . سمى بذلك لبياضه أو لأنه كان يمضر القلوب أى يأخذها لحسنه وجماله ، أو لأنه كان يحب اللبن الحامض .

وكان يعرف بـ « مضر الحمراء » لأن العرب تسمى الأبيض أحمر ، أو لأن أباه أوصى له بقبة حمراء ، أو لأنه كان من نصيبه من تركة أبيه الذهب .

كان مضر هذا من أحسن الناس صوتا ، وكان صاحب فراسة وقيافة ، وهو أول من علم العرب حداء الإبل ، وكان صاحب عقل راجح وحكمة (١) ، ومن حكمه : من يزرع شرا يحصد ندامة ، وخير الخير أعجله ، فاحملوا أنفسكم علي مكروهها فيما يصلحكم ، واصرفوها عن هواها فيما أفسدها ، فليس بين الصلاح والفساد إلا صبر فواق (٢).

وفيه قال رسول الله صلي الله عليه وسلم « لاتسبوا مضر ، فإنه كان قد أسلم (٣) »

نزار :

بكسر النون والتخفيف من النزر وهو القليل ،لأن أباه حين ولد له ونظر إلى النور بين عينيه ، وهو نور النبوة الذى كان ينقل في الأصلاب فرح به فرحا شديداً، ونحروا وأطعموا شيئاً كثيراً ، وقال هذا نزر قليل في حق هذا المولود فسمى نزاراً لذلك وقيل سمى بذلك لأنه كان فريد عصره ، أو سمى به لنحافته ، وكان اسمه خلدان وكنيته أبو إياد وقيل أبو ربيعة . وكان مقدما وانبسطت له اليد عند الملوك .

مَعَدّ :

بفتح الميم والعين المهملة وتشديد الدال المهملة . مفعل من العد ، أو فعلّ من

---

(١) راجع في حكمته سبل الهدى صـ ٣٤٢ - ٣٤٣ .

(٢) الفواق ما بين الحلبتين من الوقت وذلك أن الناقة تحلب ثم تترك سويعة يرضعها الفصيل لتدر ثم تحلب .

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١ / ٥٨ عن عبد الله بن خالد التيمى مولاهم المدنى مرسلا وذكره في الجامع الصغير وعزاه لابن سعد ورمز لضعفه .

وذكره صاحب سبل الهدى عن ابن حبيب بسنده عن سعيد بن المسيب أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال لاتسبوا مضر فإنه كان علي ملة إبراهيم وقال بسند جيد مرسلا ص ٣٤٤ .

معد في الأرض إذ أبعد في الذهاب ، أو من المعدين وهما موضع عقبى الفارس من الفرس وأصله على القول الثانى والثالث من المعْد بسكون العين وهو القوة ومنه اشتقاق المعدة .

كنيته أبو قضاعة ، وقيل أبو نزار .

قال الماوردى : ان بخت نصر أراد قتل معد حين غزا بلاد العرب فأنذره نبى من أنبياء الله تعالى كان فى وقته بأن النبوة فى ولده فاستبقاه وأكرمه (١) .

وعن أبى أمامة الباهلى قال سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول : لما بلغ ولد معد بن عدنان أربعين رجلاً وقفوا في عسكر موسى فانتهبوه فدعا عليهم موسى عليه الصلاة والسلام فأوحى الله تعالى إليه «لا تَدْعُ عليهم فإن منهم النبى الأمى النذير البشير ومنهم الأمة المرحومة أمة محمد يرضون من الله باليسير من الرزق ويرضي منهم بالقليل من العمل فيدخلهم الجنة بقول لا إله إلا الله نبيهم محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب المتواضع فى هيبته ، المجتمع له اللين فى سكوته ، ينطق بالحكمة ويستعمل الحلم ، أخرجته من خير جيل من أمة قريش ثم أخرجته من صفوة قريش فهو خير من خير إلى خير هو وأمته إلى خير يصيرون (٢)

وإلى معد هذا جاءت الإشارات إلى ما ينبغى أن تكون عليه الأمة المسلمة من جلادة وتقشف ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه :-

اتزروا وارتدوا وانتعلوا والقوا الخفاف والسراويلات وألقوا الركب وانزوا نزوا وعليكم بالمعدية وارموا الأغراض وذروا التنعم وزى العجم وإياكم والحرير فإن رسول الله صلي الله عليه وسلم قد نهى عنه وقال :-

«لا تلبسوا من الحرير إلا ما كان هكذا وأشار رسول الله صلي الله عليه

---

(١) أعلام النبوة ص ١١٨ .

(٢) أخرجه الطبرانى ، وفيه حسن بن فرقد وهو ضعيف مجمع ٨ / ٢١٨ وذكره فى سبل الهدى والرشاد ١ / ٣٤٨ وعزاه للطبرانى والنص المكتوب هنا مصحح من الكتابين المجمع والسبل

وسـلم بأصبعيه »[1] وفي رواية وتمعددوا واخشوشنوا »[2] وقد جاءت عند الطبراني مرفوعة .

والمعنى أن الأمة يجدر بها أن تحافظ على خشونة شبابها ورجالها وأن تكون لها شخصيتها المستقلة فلتكن قوية بقوة رجالها ولتكن عزيزة بالحفاظ علي سماتها المميزة .

قـال في النهاية في شرح تمعـددوا يقـال تمعدد الغـلام إذا شب وغلظ وقـيل أراد تشبهوا بعيش مَعَد بن عدنان وكانوا أهل غلظ وقشف أى كونوا مثلهم ، ودعوا التنعم وزى العجم [3] .

عَدْنان :

من عدن بالمكان يعنى أقام فيه ووزنه فعلان وكنيته أبو مَعَدّ ، ويقال هو أول من كسا الكعبة كساها أنطاع الأدم .

وإلى عـدنان هذا ينسب رسـول الله صلى الله عليـه وسلم فـيـقـال النبى العدنانى [4] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده ١ / ٤٣ ، وابن الجعد فى مسنده ١ / ٥١٧ رقم ١٠٣٠ والقدر الخاص بنهيه صلي الله عليه وسلم عن لبس الحرير جاء في الصحيحين وغيرهما فاخرجه البخارى فى اللباس باب لبس الحرير للرجال وقدر ما يجوز منه ١٠ / ٢٨٤ ومسلم في اللباس باب تحريم الذهب والحرير علي الرجال ٤/ ٧٧٩ ، ٧٨٠ .وأخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجه ، راجع ابن الجعد بتحقيقى .

(٢) هى رواية ابن الجعد المذكور تخريجها سابقا .

(٣) النهاية ٤ / ٣٤١ ، ٣٤٢ .

(٤) من مراجع هذا البحث – نسبه صلي الله عليه وسلم :-

- فتح البارى ٧ / ١٦٢ . - الروض الأنف ١ / ٤٤ – ٦٥ ط الوكيل .
- الفتح الربانى بشرحه ٢٠ / ١٧٧ – سيرة ابن كثير الجزء الأول في مواضع .
- سيرة ابن هشام الجزء الأول فى مواضع – عيون الأثر جـ ١ ص ٢١ .
- سبل الهدى والرشاد الجزء الأول .
- الطبقات الكبرى لابن سعد الجزء الأول .

والداه صلى الله عليه وسلم

ب - عبد الله والد الرسول صلى الله عليه وسلم :

حينما عزم عبد المطلب على حفر زمزم ماكان له سوى ولد واحد هو الحارث ولعل هذا هو الذى جعل قريشاً تعترض سبيله فإنهم كانوا يهابون صاحب الرهط الكبير شأنهم فى ذلك شأن غيرهم كما قال أهل مدين لشعيب " ولولا رهطك لرجمناك " .

ولقد قال عبد المطلب لابنه الحارث هذا زد عنى حتى أحفر فوالله لأمضين لما أمرت به وهذا يصور مدى حاجة عبد المطلب إلى الولد فابن واحد لايقوى على موقف مثل هذا ولقى عبد المطلب من قريش مالقى مماجعله يتضرع إلى ربه وخالقه أن يرزقه كثرة أولاده ليحمل هذا الشرف الذى أنعم الله به عليه على خير وجه .

وكان عبد المطلب على ذكر من هَمِّ إبراهيم الخليل عليه السلام -جده- بذبح ولده إسماعيل عليه السلام فنذرلئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه ليذبحن أحدهم لله عز وجل عند الكعبة واستجاب الله القريب المجيب لعبد المطلب ورزقه ماطلب من الأولاد وهم .

الحارث ، والزبير ، وحجل ، وضرار ، والمقوم ، وأبو لهب ، والعباس ، وحمزة وأبو طالب ، وعبد الله .

وأراد عبد المطلب أن يوفى بنذره فجمع أولاده وأخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء لله عز وجل فأطاعوه واستقسموا بالقداح فخرج القدح على عبد الله وكان أحب أولاده إليه . وأبى المحيطون بعبد المطلب أن يذبح عبد الله وقالوا لعبد المطلب أرض ربك وافد ابنك ففداه بمائة ناقة ومن هنا يلقب بالذبيح .

روى الحاكم بسنده عن عبد الله بن سعيد الصنابحى قال :

حضرنا مجلس معاوية بن أبى سفيان فتذاكر القوم إسماعيل وإسحاق بن إبراهيم فقال بعضهم الذبيح إسماعيل وقال بعضهم بل إسحاق الذبيح فقال معاوية

سقطتم على الخبير كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاه أعرابى فقال يارسول الله خلفت البلاد يابسة والماء يابسا هلك المال وضاع العيال فعد على بمافاء الله عليك يا ابن الذبيحين فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينكر عليه ، فقلنا ياأمير المؤمنين ومالذبيحان ؟ قال إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الله أمرها أن ينحر بعض ولده فأخرجهم فأسهم بينهم فخرج السهم لعبد الله فأراد ذبحه فمنعه أخواله من بنى مخزوم وقالوا أرض ربك وافد ابنك قال ففداه بمائة ناقة قال فهو الذبيح وإسماعيل الثانى (١) .

وسلم عبد الله من الذبح كماسلم كل إخوته ووفّى عبد المطلب بنذره وعبد الله فى ريعان الشباب فعزم عبد المطلب على أن يزوجه وكأن للفرحة بنجاة ابنه دخلاً فى هذا فخرج به إلى من يثق فى شرفهم وسيادتهم ذهب به إلى وهب بن عبد مناف بن زهرة ابن كلاب بن مرة وهو يومئذ سيد بنى زهرة سنا وشرفا وخطب إليه ابنته آمنة لابنه عبد الله .

عن ابن عباس- رضى الله عنهما- قال : إن عبد المطلب قدم اليمن فى رحلة الشتاء فنزل على حبر من اليهود قال فقال لى رجل من أهل الزبور -يعنى أهل الكتاب - ممن الرجل ؟ قلت : من قريش ، قال من أيهم ؟ قلت من بنى هاشم قال ياعبد المطلب : أتاذن لى أن أنظر إلى بعضك قال نعم ، إذا لم يكن عورة ، قال : ففتح أحد منخرى ثم فتح الأخر فقال : أشهد أن فى إحدى يديك ملكا . وفى الأخرى نبوة وإنا نجد ذلك فى بنى زهرة فكيف ذلك ؟ قلت لا أدرى قال هل لك من شاعة ؟ قلت وما الشاعة ؟ قال الزوجة قلت : أما اليوم فلا قال فإذا رجعت فتزوج

(١) ذكره ابن كثير فى التفسير ١٨/٤ وعزاه لابن جرير والأموى فى مغازيه ، وقال: وهذا غريب جدا وأخرجه الحاكم فى المستدرك ٥٥٤/٢ وتعقبه الذهبى بأن إسناده واه ، وانما ذكرته لأنى أرى والله أعلم أنه يصلح فى السير ، وراجع كشف الخفا ١٩٩/١ والمقاصد الحسنة صـ١٤ رقم ١٣والإسرائيليات للشيخ أبو شهبة صـ ٤٦٧ ، ٤٦٨ .

فيهم فرجع عبد المطلب إلى مكة فتزوج هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة فولدت حمزة وصفية وتزوج عبدالله بن عبد المطلب آمنة بنت وهب فولدت له رسول الله صلى الله عليه وسلم ووهب ووهيب أخوان فقالت قريش حين تزوج عبد الله فلج[١]عبد الله على أبيه[٢] ولقد كان عبد الله رجلا على خلق عال كريم ، دعته امرأة ليزنى بها فامتنع كل الامتناع ، وكان الزنا مستقبحا فى الجاهلية ، لايفعله إلا أراذل القوم ومعدوموا الأخلاق .

فعن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال : لما انطلق عبد المطلب بابنه عبدالله ليزوجه مر به على كاهنة من أهل قبالة متهودة ، قد قرأت الكتب ، يقال لها فاطمة بنت مر الخثعمية ، فرأت نور النبوة فى وجه عبدالله فقالت : يافتى هل لك أن تقع علىّ الآن وأعطيك مائة من الإبل ؟ فقال عبد الله :

أما الحرام فالممات دونه ∴ والحل لاحل فأستبينه

فكيف بالأمر الذى تبغينه ∴ يحمى الكريم عرضه ودينه [٣]

كما كان مطيعا لوالده ، وهذا إن دل فإنما يدل على أدب جمٌ ، يسير كما أمره أبوه ، وماذا بعد أن أراد والده ذبحه فامتثل دون تبرم أو تضجر فضلا عن الرفض والإنكار ؟القد أنكر الناس ذبحه ولم ينكر هو وأصروا على الفداء ولم يطلب هو .

وهو على هذا الخلق الكريم كان ماهرا حازما ، حكيما عاقلا ، فبعد زواجه بأيام اختير ليخرج على رأس قافلة تجارية لمكة ، وهذا دليل على مهارته ، وثقة

---

(١) أى فاز وغلب .

(٢) أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة ص ٨٨ ، ٨٩ - وأخرجه الحاكم فى المستدرك ٦٠١/٢ وتعقبه الذهبى براويين ضعيفين فيه وهما يعقوب بن محمد الزهرى وعبد العزيز بن عمران وهما فى إسناد أبى نعيم .
قلت يعقوب مختلف فيه ويكفى أن عدله أبو حاتم وغيره - وقال فيه الذهبى فى الكاشف : وهاه أبو زرعة وغيره وقواه أبو حاتم وذكره ابن حبان فى الثقات أ . هـ كاشف ٢٩٤/٣ وقال فيه الحافظ ابن حجر صدوق كثير الوهم والرواية عن الضعفاء - تقريب ٣٧٧/٢ أما عبد العزيز فقال أبو حاتم يكتب حديثه على الاعتبار - تهذيب ٦/ ٣٥٠ ، ٣٥١ وعليه فالحديث يصلح فى السيرة فإنه ضعيف يعتبر به ، ومثل هذا يصلح فى السير وماشاكلها .

(٣) ذكره ابن كثير بداية ٢٧٢/٢ عن أبى بكر محمد بن جعفر الخرائطى ، وراجع طبقات ابن سعد ٩٥/١ .

المحيطين فيه ، وفوق هذا فإنه كان حازما عاقلا لم يرفض هذا الأمر من أجل قرب زواجه أو من أجل أن يقيم ببلده بجوار زوجة جديدة .

وكان يعرف قدر أهله ونسبه ، وكان هذا يدعوه إلى معالى الأخلاق ، ومحاسن الفعال ، انظر اليه يقول :

لقد حكم الساروُن فى كل بلدة ∴ بأن لنا فضلاً على سادة الأرض
وأن أبى ذو المجد والسؤدد الذى ∴ يشار به مابين نشز إلى خفض
وجدى وآباء لـه أثّلوا العُلَى ∴ قديما بطيب العرق والحسب المحض [1]

وبعد زواج عبدالله بآمنة بفترة قصيرة خرج عبدالله على قافلة تجارية متجهة إلى الشام ، فماذا كان ؟ أترك الحديث لابن سعد فى طبقاته إذ يروى عن محمد بن كعب وأيوب بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة قالا : خرج عبدالله بن عبدالمطلب إلى الشام إلى غزة فى عير من عيرات قريش يحملون تجارات ، ففرغوا من تجاراتهم ثم انصرفوا ، فمروا بالمدينة وعبدالله ابن عبدالمطلب يومئذ مريض، فقال : أنا أتخلف عند أخوالى بنى عدى بن النجار ، فأقام عندهم مريضا شهرا ومضى أصحابه فقدموا مكة ، فسألهم عبدالمطلب عن عبدالله ، فقالوا خلفناه عند أخواله بني عدى بن النجار وهو مريض فبعث إليه عبدالمطلب أكبر ولده الحارث فوجده قد توفى ودفن فى دار النابغة ، وهو رجل من بنى عدى بن النجار ، فى الدار التى إذا دخلتها فالدويرة عن يسارك ، وأخبره أخواله بمرضه ، وبقيامهم عليه ، وماولوا من أمره ، وأنهم قبروه ، فرجع إلى أبيه فأخبره ، فوجد[2] عليه عبدالمطلب وإخوته وأخواته وجدا شديداً ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ حمل ، ولعبد الله يوم توفى خمس وعشرون سنة [3] . أهـ

---

(١) راجع سبل الهدى والرشاد جـ١ ص ٢٩٠ .
(٢) حزن .
(٣) الطبقات الكبرى ٩٩/١ .

قال الواقدى : هذا هو أثبت الأقاويل والرواية فى وفاة عبدالله بن عبدالمطلب وسنه عندنا (١) .

توفى عبدالله خارج مكة ، ورسول الله مازال جنينا فى بطن أمه ، فرثته آمنة بقولها :

عفا جانب البطحاء (٢) من ابن هاشم ∴ وجارو لحداً خارجا فى الغماغم (٣)

دعته المنايا (٤) بغتة فأجابها ∴ وماتركت فى الناس مثل ابن هاشم

عشية راحوا يحملون سريره (٥) ∴ يعاوره (٦) أصحابه فى التزاحم

فإن بك غالته المنايا وريبها ∴ فقد كان معطاء كثير التراحم (٧)

وقالت أيضاً :

أضحى ابن هاشم فى مهماء (٨) مظلمة ∴ فى حفرة بين أحجار لدى الحصر

سقى جوانب قبر أنت ساكنه ∴ غيث أحمّ (٩) الذّرى(١٠)ملآن ذو درر.

فعن قيس بن محزمة أنه ذكر ولادة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : توفى أبوه وأمه حبلى به (١١) .

وحدد بعضهم أنه توفى وأمه حبلى به لشهرين (١٢) .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) الأرض ، والمعنى أصبحت الأرض خالية من عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم .

(٣) الأغطية .

(٤) جمع منية وهى الموت .

(٥) السرير المحمول عليه ليدفن .

(٦) يتبادلونه .

(٧) الطبقات ١/١٠٠ .

(٨) مفازة وهى المكان البعيد الواسع .

(٩) قريب .

(١٠) الذرى اسم لما ذرته الريح ، والمعنى سقى قبرك غيث قريب المصدر ملآن بالمطر شديد الإدرار .

(١١) أخرجه الحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبى مستدرك ٢/٦٠٥ .

(١٢) سبل الهدى ١/٣٩٨ .

ب- والدته صلى الله عليه وسلم :

هى آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة ، بن كعب ، تلتقى مع زوجها - عبد الله والد الرسول صلى الله عليه وسلم - فى كلاب ، وبينها وبين كلاب جدان ، وبين عبدالله وبينه ثلاثة .

هى أشرف نساء قومها ، وأعلاهم خلقا ونسبا .

ودخل عبدالله - والد الرسول صلى الله عليه وسلم - بزوجته ، وحملت منه برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبعد فترة قصيرة خرج عبدالله الى الشام الى غزة فى عير من عيرقريش يحملون تجارات ، ففرغوا من تجاراتهم ثم انصرفوا فمروا بالمدينة المنورة ، وعبدالله يومئذ مريض ، فقال : أتخلف عند أخوالى بنى عدى بن نجار ، فأقام عندهم مريضا شهراً ، ومضى أصحابه فقدموا مكة ، فسألهم عبدالمطلب عن ابنه عبدالله فقالوا خلّفناه عند أخواله بنى عدى بن النجار وهو مريض ، فبعث إليه عبدالمطلب أكبر ولده الحارث ، فوجوده قد توفى ودفن ، فرجع إلى أبيه فأخبره ، فوجد عليه عبد المطلب وإخوته وأخواته وجدا شديداً - كماتقدم- .

توفى عبد الله وهو ابن خمس وعشرين سنة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أمه حبلى به .

وأصبحت أمه صلى الله عليه وسلم بدون زوج ، لا أمل لها فى الحياة سوى الحمل فى بطنها ، ولعل الله سبحانه أراد بها أن لاتحزن فأراها من العلامات ما يبعث على طمأنينتها بل وسعادتها، فرأت ماترى أمهات الأنبياء، وماآلمها حملها ولاشعرت بما تسمع به من النساء من آلام وضعف .

عن العرباض به سارية السلمى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنى عند الله فى أم الكتاب لخاتم النبيين وإن أدم لمنجدل فى طينته ،

وسأنبئكم بتأويل ذلك ، دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى قومه ، ورؤيا أمى التى رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام ، وكذلك ترى أمهات النبيين صلوات الله عليهم (١) .

ومن عتبة بن عبد السلمى " أن أمه صلى الله عليه وسلم قالت : إنى حملت به فلم أر حملاً قط كان أخف ولا أعظم بركة منه ، ثم رأيت نوراً كأنه شهاب خرج منى حين وضعته ، أضاءت له أعناق الإبل ببصرى ، ثم وضعته فماوقع كماتقع الصبيان ، وقع واضعا يده بالأرض ، رافعاً رأسه إلى السماء . (٢)

وأخرج ابن سعد عن ابن عباس أن آمنة بنت وهب قالت : لقد علقت به - تعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم - فماوجدت له مشقة حتى وضعته ، فلما فصل منى خرج معه نور أضاء له مابين المشرق إلى المغرب ثم وقع على الأرض معتمدا على يديه، ثم أخذ قبضة من التراب فقبضها ورفع رأسه الى السماء، وقال بعضهم: وقع جاثيا على ركبتيه رافعا رأسه إلى السماء ، وخرج معه نور أضاءت له قصور الشام وأسواقها ، حتى رأيت أعناق الإبل ببصرى (٣) .

وأخرج البيهقى عن عثمان بن أبى العاص قال : حدثتنى أمى أنها شهدت ولادة آمنة بنت وهب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة ولدته ، قالت : فما شىء أنظره فى البيت إلا نور ، وإنى أنظر النجوم تدنوا حتى إنى أقول لتقعنَّ علىّ(٤).

---

(١) أخرجه أحمد ١٢٩/٤والحاكم فى التاريخ باب ذكر أخبار سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ٢/ ٦٠٠ وصححه وأقره الذهبى ، وأخرج أحمد نحوه عن أبى أمامه قال الهيثمى٨/ ٢٢٢ وإسناده حسن وله شواهد تقويه .

(٢) أخرجه الطبرانى وأبو يعلى بإسناد رجاله ثقات ، وسيأتى الحديث بتمامه فى " شق الصدر" إن شاء الله تعالى .

(٣) الطبقات ١/ ١٠٢ .

(٤) أخرجه البيهقى فى الدلائل ١/ ١١٠ ، وأبو نعيم صـ ٩٣ ، والطبرانى فى الكبير ، وفيه عبدالعزيز بن عمران وهو متروك ، كذا فى مجمع الزوائد ٨/ ٢٢٠ ، ويرى الحافظ ابن حجر أن الحديث يعتبر به ، وله شاهد يقويه هو حديث العرباض بن سارية الذى تقدم . راجع شرح الزرقانى على المواهب ١/ ١١٦ .

وذكر القاضى عياض عن الشفاء أم عبدالرحمن بن عوف أنها كانت قابلته صلى الله عليه وسلم ، وأنها أخبرت به حين سقط على يديها واستهل سمعت قائلاً يقول : يرحمك الله ، وأنه سطع منه نور رئيت منه قصور الروم (١) .

ولم ينجب عبد الله وآمنة سوى رسول الله صلى الله عليه وسلم و خلصهما الله له ، ولم يجعل له أخا ولا أختا ، فهو مرتبة وحده ، ونسيج منفرد .

مولده صلى الله عليه وسلم :

ولد صلى الله عليه وسلم يوم الإثنين فى شهر ربيع الأول عام الفيل ، وهذا رأى الجمهور، وبعضهم يقول لثمان خلون منه ، وبعضهم يقول لثنتى عشرة مضت منه .

والنصوص تؤيدهم فيما اتفقوا عليه ، وترجح أحد الرأيين فيما تعددت آراؤهم فيه . فقد أخرج مسلم عن أبى قتادة أن أعرابياً قال "يارسول الله ماتقول فى صوم يوم الإثنين ؟ فقال ذاك يوم ولدت فيه، ويوم بعثت أو أنزل على فيه ..الحديث (٢)

وأخرج ابن أبى شيبة عن جابر وابن عباس أنهما قالا ، ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل يوم الإثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول، وفيه بعث، وفيه عرج به إلى السماء ، وفيه هاجر ، وفيه مات .

وعن قيس بن مخرمة قال : ولدت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل كاللدتين (٣)

وعن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال : ولد النبى صلى الله عليه وسلم عام الفيل (٤) .

وأخرج الترمذى عن قيس بن مخرمة قال : ولدت أنا ورسول الله صلى الله عليه

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة صـ ٩٣ ، وذكره فى الشفا ٥١٩/١ ولفظه الذى هنا .

(٢) أخرجه مسلم ضمن حديث طويل فى الصيام باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر .. الخ ٨١٩/٢ حديث رقم ١٩٧ ، وأخرجه الحاكم مختصرا كما هنا فى التاريخ باب يوم ولادته صلى الله عليه وسلم يوم الإثنين ٦٠٢/٢ وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وأقره الذهبى .

(٣) مثنى لدة من ولد يلد والتاء عوض عن الواو وهذا الحديث أخرجه الحاكم فى المستدرك فى التاريخ باب ولد النبى صلى الله عليه وسلم عام الفيل ٦٠٣/٢ وصححه على شرط مسلم وأقره الذهبى ، وأخرجه أحمد فى مسنده ٢١٥/٤ .

(٤) أخرجه الحاكم فى التخريج السابق .

وسلم عام الفيل : قال : وسأل عثمان بن عفان قباث بن أشيم أخا بنى يعمر بن ليث ، أنت أكبر أم رسول الله ؟ قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر منى وأنا أقدم منه فى الميلاد ، وأنا رأيت خذق الطير أخضر محيلا " (١)

وخذق الطير : ذرقه ، والذى فى الرواية " خذق الطير " وانما هو الفيل ، فإن كانت الرواية صحيحة فلعله أراد الطير التى أرسلها الله على أصحاب الفيل ترميهم بحجارة من سجيل .

واذا كانت هذه النصوص تفيد أنه صلى الله عليه وسلم ولد عام الفيل فهناك أقوال فى المسافة بين حادث الفيل ومولده صلى الله عليه وسلم ، وحديث قيس بن مخرمة والذى فيه كلام قباث بن أشيم يبين أن مولده صلى الله عليه وسلم كان بعد الفيل ، لكن فى تحديد المدة أقوال ، فقيل بشهر ، وقيل بأربعين يوما ، وقيل بخمسين يوما ، وهذا الأخير قال الحافظ ابن كثير : وهو الأشهر .

وولد صلى الله عليه وسلم ونشأ يتيما ذاق أبلغ اليتم وأعلى مراتبه ، إذ توفى والده قبل أن يولد ، فكان صلى الله عليه وسلم فى كلاءة الله وحفظه ، ينبته نباتاً حسنا لمايريد به من كرامته ، كما قال سبحانه " ألم يجدك يتيما فآوى " فهيأ الله له حياة طيبة ، أبعده فيها عن كل سوء ، وألهمه كل خير ، وحفظه من كل مايسوؤه وحباه بكل مايرجوه .

ولست أميل إلى تفسير إيواء الله له سبحانه بأنه وفق له من يحنو عليه من البشر ، فحنو البشر مهماسما جزء بسيط جدا من ايواء الله ، والذى سيتضح لنا بعض منه فى دراستنا إن شاء الله تعالى واذا كان من كبار أئمة التفسير من فسر الإيواء بالحنو البشرى فلعلهم فسروا الكل بالجزءأومن باب التمثيل فقط وماأظنهم يقصرون إيواء الله لنبيه على إلهام من حوله الحنو عليه (٢) .

---

(١) أخرجه الترمذى فى المناقب باب ماجاء فى ميلاد النبى صلى الله عليه وسلم ١٠/ ٨٨ ، رقم ٣٦٩٨ تحفة الأحوذى وقال : هذا حديث حسن غريب لانعرفه الا من حديث محمد بن إسحاق قلت : هو عند الحاكم فى الرواية السابقة عن ابن اسحاق أيضاً .

(٢) راجع تفسير ابن كثير ، تفسير سورة الضحى .

أسماؤه صلى الله عليه وسلم :

بعد ولادته صلى الله عليه وسلم سماه جده "محمداً" واستغرب الناس هذه التسمية إذ أنه لم تعرف فى أجداده صلى الله عليه وسلم ، فسألوا جده عبد المطلب عن ذلك ، قائلين : لم رغبت به عن أسماء أهل بيته ؟ فأجابهم عبدالمطلب ببيان المعنى الذى يقصده من هذه التسمية قائلاً : أردت أن يحمده الله تعالى فى السماء ، ويحمده الخلق فى الأرض .

إن اسم «محمد» معناه أنه يُحمد كثيراً، أى أنه يكون محمود القول والفعل جميل الصنيع والعقل ، وكان العربى يقصد فى تسمية ابنه معني الاسم ، ولقد كان جد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقصد هذا المعنى فى اسم " محمد " .

وظل صلى الله عليه وسلم يعرف بهذا الاسم وحده إلى أن بعثه الله رسولا فلما أكرمه الله برسالته سماه عدة أسماء فى القرآن الكريم ، وأعلمه بالوحى عدداً آخر من أسمائه صلى الله عليه وسلم فأخبربها فى السنة .

ولما كانت هذه الأسماء من الله تعالى فهى صادقة المعنى عليه صلى الله عليه وسلم ، ولما كانت كلها جميلة فى معناها فإن هذا يدل على سمو المسمَّى بهذه الأسماء ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا إجمال أفصله فيمايلى :

سمى الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأسماء فى القرآن فسماه "أحمد" و "محمد"و"الشاهد" و"المبشر" و"النذير" و"المبين" و"الداعى إلى الله" و"السراج المنير" و"الرؤف" و"الرحيم" و"المذكر" و"الرحمة" و"النعمة" و"الهادى" و"الشهيد" و"الأمين" و"المزمل" و "المدثر" .

وسماه أيضاً : "الرسول" و"النبى" و "الأمى" .

وسماه أيضاً : "طه" و "يس" و"خاتم النبيين" .

واشتملت السنة على كثير من أسمائه صلى الله عليه وسلم من ذلك : "محمد"

و"أحمد" و"المقفى" و"نبى التوبة" و"نبى الرحمة" و"الماحى" و"الحاشر" و"العاقب" و"أول شافع" و"أول مشفع" و"الصادق المصدوق" و" نبي الملاحم" و"الخاتم" و"سيد ولد آدم" و"إمام المرسلين" .

أخرج مسلم عن جبير بن مطعم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " أنا محمد وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحى بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على عقبى وأنا العاقب " والعاقب الذى ليس بعده نبى .

وأخرج مسلم أيضاً عن جبير بن مطعم أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن لى أسماء أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمىّ (١). وأنا العاقب الذى ليس بعده أحد " وقد سماه الله رؤوفا رحيما .

جملة " وقد سماه الله " من كلام ابن شهاب الزهرى أحد رجال الاسناد .

وأخرج مسلم أيضاً عن أبى موسى الأشعرى قال :كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى لنا نفسه أسماء فقال : أنا محمد ، وأحمد ، والمقفى، والحاشر ، ونبي التوبة ، ونبي الرحمة " (٢) والمقفى المتبع للانبياء ، أو خاتمهم .

وأخرج أحمد عن حذيفة قال : بينا أنا أمشى فى طريق المدينة إذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعته يقول : أنا محمد ، وأحمد ، ونبى الرحمة ، ونبي التوبة ، والحاشر ، والمقفى ، ونبي الملاحم (٣) .

وأخرج أحمد وابن أبى عاصم (فى السنة) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

---

(١) أى أنه صلى الله عليه وسلم هو أول من يحشر ، ويحشر الناس بعده على أثره ، أو القدم بمعنى الزمن والمعنى أن الناس يحشرون على زمنه أى بعده مباشرة ، أى أنه لانبى بعده ولاشريعة بعد شريعته صلى الله عليه وسلم . راجع الفتح ٥٥٧/٦ .

(٢) أخرج مسلم هذه الأحاديث فى الفضائل باب فى أسمائه صلى الله عليه وسلم ١٨٢٨/٤ .

(٣) أخرجه أحمد ٤٠٥/٥ من طريقين هنا لفظ الثانية ، وقال فى مجمع الزوائد ٢٨٤/٨ ورجال أحمد رجال الصحيح غير عاصم بن بهدلة ، وهو ثقة وفيه سوء حفظ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أول من تنشق عنه الأرض ، وأول شافع وأول مشفع " (١)

وأخرج البخارى عن عبد الله بن مسعود قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق قال : إن أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما (٢)

وأخرج أيضاً عن أبى هريرة قال سمعت الصادق المصدوق يقول : هلاك أمتى على يد أغلمةَ من قريش (٣)

وأخرج أبو داود عن أبى هريرة أيضاً قال : سمعت أبا القاسم الصادق المصدوق صاحب هذه الحجرة يقول " لاتنزع الرحمة الا من شقى " (٤)

قال الحافظ فى الفتح : ومن أسمائه المشهورة "المختار" و "المصطفى" و "الشفيع المشفع" و"الصادق المصدوق" (٥)

وقد أفرد بعض العلماء مؤلفات فى أسمائه صلى الله عليه وسلم ، ويبدو أن حب الكثرة دعاهم إلى عد الصفات أسماء .

من هؤلاء الحافظ أبو طالب ابن دحية ، فإنه أفرد أسماء الرسول صلى الله عليه وسلم فى تصنيف مستقل سماه " الأسماء النبوية " ذكر فيه قريبا من ثلاثمائة اسم ذكرا أماكنها من القرآن والأخبار ، ضابطا ألفاظها ، شارحا معانيها مدبجا بفوائد كثيرة .

قال الحافظ : وغالب الأسماء التى ذكرها وصف بها النبى صلى الله عليه وسلم ولم يرد الكثير منها على سبيل التسمية ، مثل عَدّه اللَّبِنَة - بفتح اللام وكسر

---

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى باب فى ذكر قول النبى صلى الله عليه وسلم أنا أول شافع وأول مشفع ٣٦٩/٢ وأخرجه أحمد فى مسنده ٢ / ٥٤٠ بلفظ أنا سيد ولد آدم وأول من تنشق عنه الارض ، وأول شافع وأول مشفع .

(٢) أخرجه البخارى فى القدر فى أول باب منه ، وهو أول حديث فيه ٤٧٧/١١ حديث رقم ٦٥٩٤ .

(٣) أخرجه البخارى فى المناقب باب علامات النبوة فى الاسلام ٦١٢/٦ حديث رقم ٣٦٠٥ .

(٤) أخرجه أبو داود فى الأدب باب فى الرحمة ٢٨٦/١٣ ، ٢٨٧ عون المعبود .

(٥) فتح البارى ٥٥٨/٦ .

الموحده التحتانية وفتح النون - فى أسمائه صلى الله عليه وسلم (١) .

ونقل ابن دحية فى كتابه المذكور عن بعضهم أنه قال " أسماء النبى صلى الله عليه وسلم عدد أسماء الله الحسنى تسعة وتسعون اسماً .

وجمع السخاوى فى كتابهُ القول البديع فى الصلاة على الحبيب الشفيع "ما استطاع الوقوف عليه من أسمائه صلى الله عليه وسلم من كلام سابقيه ومعاصريه فاجتمع له أربعمائة وثلاثون اسماً .

وذكر فى كتابه هذا أن لابن فارس مصنفا فى أسماء النبى صلى الله عليه وسلم سماه " المنبى فى أسماء النبى " وذكر أيضاً أن لأبى عبدالله القرطبى كتابا فى ذلك نظمه أرجوزة وشرحها ، قال : ولعل عدة الأسماء التى اشتلمت عليها تزيد على الثلاثمائة (٢) .

قال النووى : له أسماء بلغها بعضهم ألفا ، لكن أكثرها من باب الصفات .

ونقل ابن العربى فى عارضة الأحوذى شرح جامع الترمذى عن بعض الصوفية " إن لله ألف اسم ولرسوله ألف اسم " وذكر ابن العربى من أسمائه صلى الله عليه وسلم أربعة وستين اسما فى كتابه سالف الذكر .

وأسماؤه صلى الله عليه وسلم هذه والتى أكثر الأئمة من عددها ، وذكر القرآن منها عددا ، لاتتنافى مع الأحاديث التى ذكرت بعض أسمائه ، بل ولامع حديث " ان لى خمسة أسماء .. " وذلك لأنه لم يرد بهذه الأحاديث الحصر ، وإنما أراد إن لى خمسة أسماء موجودة فى الكتب السابقة ، أو مشهورة بين الأمم الماضية ، أو

---

(١) ورد لفظ اللبنة فى حديث القصر الذى أحسنه صاحبه الا موضع لبنة ، وقد أخرجه البخارى عن جابر وعن أبى هريرة وهذا لفظ حديث أبى هريرة " إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله الا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين ، أخرجه البخارى فى المناقب باب خاتم النبيين ٥٥٨/٦ رقم ٣٥٣٥.

(٢) القول البديع صـ ٦٩ ، ٧٧ .

يعلمها أهل الكتابين ، أو مختص بها لم يتسم بها أحد قبلى ، أو معظمة ، أو أمهات الأسماء وماعداها راجع اليها [1] .

تفسير بعض أسمائه صلى الله عليه وسلم :

أشهر أسمائه صلى الله عليه وسلم "محمد" وقد تكرر ذكره فى القرآن الكريم قال تعالى " وما محمد إلارسول" [2] وقال سبحانه " ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين " [3] وقال سبحانه "محمد رسول الله" [4] وسمى صلى الله عليه وسلم نفسه بهذا الاسم -محمد- فى الأحاديث الصحيحة وقد تقدم بعض منها وهذا الاسم الشريف لم يعرفه العرب قبله [5] صلى الله عليه وسلم ولذا تساءلوا مع جده حينما أخبرهم أنه سماه محمدا قائلين فما رغبت به عن أسماء أهل بيته ؟ فأجابهم قائلاً : أردت أن يحمده الله فى السماء وخلقه فى الأرض [6] .

ولما اقترب وقت ظهوره صلى الله عليه وسلم سمى عدد من العرب [7] أبناهم بهذا الاسم -محمد- رجاء أن يكون نبى آخر الزمان لماسمعوه من أهل الكتاب من قرب بعثة نبى من العرب اسمه -محمد- .

محمد :

وهذا الاسم الشريف -محمد- منقول من صفة الحمد ، وهو بمعنى محمود ، لكن

(١) راجع فتح البارى ٦/٥٥٦ ، ٥٥٨ .
(٢) سورة آل عمران آية ١٤٤ .
(٣) الأحزاب آية ٤٠ .
(٤) سورة الفتح آية ٢٩ .
(٥) أى قبل التبشير به وظهور خبره صلى الله عليه وسلم فى الكتب السابقة .
(٦) ذكره فى الفتح ٧/١٦٣ وعزاه للبيهقى فى الدلائل ، وهو عند البيهقى فى الدلائل . فى باب تزوج عبدالله ابن عبد المطلب بآمنة بنت وهب جـ ١ صـ ١١٣ .
(٧) ذكر الحافظ فى الفتح ٦/٥٥٦ أن من سمى بهذا الاسم يبلغ عددهم خمسة عشر شخصا بعد التحرير والتدقيق وذكرهم ونقلهم عنه السخاوى فى القول البديع صـ ٧١ ، ٧٢ .

فيه معنى المبالغة والتكرار ، فجامع صفات الخير الذى يحمد كثير يسمى محمداً .

فمعنى هذا الاسم الشريف أن صاحبه اجتمعت فيه المحامد ، ويحمد دائماً ، فهو محمود عند الله سبحانه وتعالى ، ومحمود عند الملائكة ، ومحمود عند المرسلين ومحمود عند أهل الأرض جميعاً ، وإن كابر بعضهم وعاند فإن مافيه من صفات الكمال محمودة عند كل عاقل .

أحمد :

واسمه صلى الله عليه وسلم "أحمد" سمى به على لسان موسى وعيسى عليهما السلام ، وهذا الاسم منقول أيضاً ، فهو منقول من الصفة التى معناها التفضيل فمعنى "أحمد" أنه صلى الله عليه وسلم أحمد الحامدين لربه .

محمد وأحمد :

وهذان الاسمان مطابقان للمسمى بهما ، ولرسالته .

أما مطابقتهما للمسمى بهما وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم الخاتم للنبيين فهو صلى الله عليه وسلم :-

أ - محمود فى الدنيا بما هَدى اليه ونفع به من العلم والحكمة .

ب- محمود في الآخرة بالشفاعة .

جـ- وهو أحمد الخلق لربه فإن الله سبحانه وتعالى يلهمه فى المقام المحمود محامد لم تفتح على أحد قبله فيحمد ربه بها .

د - وهو صلي الله عليه وسلم المخصوص بالمقام المحمود ، وصاحب لواء الحمد

أما مطابقتهما لرسالته ، فصفة الحمد متسقة مع رسالته صلى الله عليه وسلم من عدة نواح أذكر منها :-

١- اختص الله الإسلام بسورة الحمد (فاتحة الكتاب) كمافى الحديث الذي بعضه قدسى وبعضه نبوى عن أبى بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال: ما أنزل الله في التوراة ولا الإنجيل مثل "أم القرآن" وهى السبع المثانى وهى مقسومة بينى وبين عبدى ولعبدي ما سأل [١] » .

وعن ابن عباس قال : بينما جبريل قاعد عند النبى صلى الله عليه وسلم سمع نقيضا [٢] من فوقه ، فرفع رأسه ، فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض ، ولم ينزل قط إلا اليوم ، فسلّم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك ، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته [٣] .

ب - الحمد مشروع في الأسلام في نهاية كل أمر كما قال سبحانه بعد ذكر مآل أهل الجنة وأهل النار « وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين » وقال سبحانه في شأن أهل الجنة « وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين [٤] » .

وسن صلي الله عليه وسلم الحمد بعد الانتهاء من الاكل والشرب وغيرهما .

جـ - صفة الحمد تؤذن بأن رسالة الاسلام خاتمة الرسالات ، بها أكمل الله دينه وأتم نعمته والرسول المحمود ، والذى هو أحمد الخلق لربه ، صفتا الحمد فيه تؤذنان بأنه خاتم النبيين .

ولذا فهم ابن عباس رضي الله عنهما من قول الله سبحانه « فسبح بحمد ربك [٥]... » أن الله سبحانه أعلم نبيه أجله [٦] .

---

(١) أخرجه الترمذى في التفسير فى سورة الحجر ٨ / ٥٥٣ وفي فضائل القرآن باب ما جاء فى فضل فاتحة الكتاب ٨ / ١٧٨ تحفة الأحوذى وأخرجه النسائى في افتتاح الصلاة باب تأويل قول الله عز وجل ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقران العظيم ٢ / ٥٠٧ .

(٢) صوتا

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة ١ / ٥٥٤ رقم ٢٥٤ (٨٠٦) وأخرجه النسائى فى افتتاح الصلاة ، باب فضل فاتحة الكتاب ٢ / ١٠٦ .

(٤) آخر آية من سورة الزمر .

(٥) سورة يونس آية ١٠ .

(٦) أخرجه البخارى في التفسير باب قوله تعالى « فسبح بحمد ربك واستغفره » ٨ / ٧٣٤ ، وأخرجه الترمذى في التفسير ، باب ومن سورة الفتح ٥ / ٤٥٠ ط مصطفى الحلبى .

وهذان الاسمان - أحمد ومحمد - اللذان ورد ذكره صلي الله عليه وسلم بهما في الكتب السابقة وفي القرآن الكريم ، حماهما الله سبحانه أن يتسمى بهما أحد قبل زمانه ، أما أحمد الذى ذكر في الكتب وبشر به عيسى عليه السلام فمنع الله بحكمته أن يتسمي به أحد غيره ، ولايدعى به مدعو قبله حتى لايدخل اللبس ولا الشك فيه على ضعيف القلب .

وأما محمد فلم يتسم به أحد الا حين شاع قبيل مولده اقتراب بعثة نبى قد أظل الناس زمانه اسمه محمد ، فسمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم هو .

ومع ذلك حمى الله تعالى كل من سمى به أن يدعى النبوة ، أو يدعيها أحد له أو يظهر عليه سبب يشكك في أمره ، حتى تحققت له السمتان صلي الله عليه وسلم ، فأخبره بنبوته ، وأيده الله بالمعجزات ، وكانت صفاته وأسماؤه كما أخبر الرسل السابقون بذلك (١) .

كنيته صلى الله عليه وسلم :-

اشتهر صلي الله عليه وسلم بكنيته «أبو القاسم » كنى بها لولده القاسم ، وكان أكبر أولاده

اخرج البخارى عن جابر قال : ولد لرجل منا غلام فسماه القاسم ، فقالوا لانكنيه حتي نسأل النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : سموا باسمى ، ولا تكنوا بكنيتى (٢) »

وأخرج عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال أبو القاسم صلي الله عليه وسلم : «سموا باسمى ولاتكتنوا بكنيتى (٣) » .

---

(١) من كلام القاضى عياض بتصرف .

(٢) أخرجه البخارى فى الأدب باب قول النبى صلى الله عليه وسلم « سموا باسمى ولاتكنوا بكنيتى » ١٠/ ٥٧١ رقم ٦١٨٧ .

(٣) أخرجه البخارى في الموطن السابق .

وأخرج الحاكم عن أبى هريرة أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال « أنا أبو القاسم ، الله يعطى ، وأنا أقسم [1] » ويكنى صلى الله عليه وسلم أيضا « أبو ابراهيم » تكنية له صلي الله عليه وسلم بأصغر أولاده ابراهيم ، والذى ولد بالمدينة ولدته له مارية القبطية . وهو وان كان صلي الله عليه وسلم لم يشتهر بهذه الكنية الا أن جبريل كناه بها ، وكان يتمنى التكنية بها لولا اشتهاره بالأولى .

اخرج الطبرانى في الأوسط حديث أنس في مجيء جبريل الي النبي صلي الله عليه وسلم وفى هذا الحديث قال جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم يا أباابراهيم [2] ».

وأخرج أيضا في الكبير عن عبد الله بن عمرو وفيه « وكنانى - أى جبريل - بابى إبراهيم . ولولا أنى أكره أن أحول كنيتى التى عرفت بها لتكنيت بأبى ابراهيم ، كما كنانى جبريل عليه السلام [3] .

رضاعته صلى الله عليه وسلم

كانت رضاعته صلي الله عليه وسلم في الأيام الأولي من حياته من أمه تشاركها فى ذلك ثويبة مولاة عمه أبى لهب ، بلبن ابن لها اسمه مسروح .

أما حضانته فكانت لأمه ولأم أيمن جاريته .

فمن أم أيمن ؟ ومن ثويبة ؟

أم أيمن :

اسمها بركة ، ورثها صلي الله عليه وسلم من أبيه ، فكانت حاضنته مع أمه في الأيام الأولى من حياته ، وكذا بعد انتهاء فترة رضاعته ، حتى ماتت أمه ، فلما ماتت أمه انفردت بحضانته وكان صلي الله عليه وسلم يقول لها أنت أمى بعد أمى .

---

(١) المستدرك ٢ / ٦٠٤ وقال صحيح علي شرط مسلم

(٢) مجمع ٩ / ١٦١ وفي إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف ، وأخرجه الحاكم ٢ / ٦٠٤ .

(٣) مجمع ٩ / ١٦١ ، ١٦٢ وفي اسناده هانيء بن المتوكل ضعيف .

فلما كبر صلى الله عليه وسلم أعتقها ، وزوجها مولاه زيد بن حارثة فولدت له أسامة بن زيد رضى الله عنهم [١] .

ثويبة :

كانت أمة لأبى لهب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما جاءته بخبر مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم أعتقها ، وقد جوزي بذلك كما سيأتى إن شاء الله تعالى في حديث أم حبيبة الذى عند البخارى رقم ٥١٠١ .

اشتركت في رضاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أمه ، وأرضعت أيضا حمزة عم رسول الله صلي الله عليه وسلم ، وأرضعت أبا سلمة أيضا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف لها حقها ويصلها .

ولذا لما عرض علي بن ابي طالب علي رسول الله صلي الله عليه وسلم أن يتزوج ابنة عمه حمزة [٢] قال صلي الله عليه وسلم إنها ابنة أخى من الرضاعة .

أخرج البخارى عن ابن عباس قال : قيل للنبى صلى الله عليه وسلم : ألا تتزوج ابنة حمزة ؟ قال : إنها ابنة أخى من الرضاعة [٣] .

ولما عرضت عليه صلي الله عليه وسلم أم حبيبة بنت أبى سفيان زوجته أن يتزوج أختها عزة بنت أبى سفيان معللة أنه يجوز له صلي الله عليه وسلم أن يجمع بين الأختين كما يجوز له أن يجمع بين المرأة وابنتها ، إذأنها كانت قد سمعت أنه صلي الله عليه وسلم سيتزوج درة ابنة أبى سلمة مع أن أمها زوجته صلي الله عليه وسلم ، أخبرها صلي الله عليه وسلم أن أبا سلمة أخوه من الرضاعة

أخرج البخارى بإسناده عن الزهرى قال : أخبرنى عروة بن الزبير أن زينب ابنة

---

(١) راجع مجمع الزوائد ٩ / ٢٥٨ .

(٢) اختلف في اسمها علي سبعة أقوال : أمامة ، وعمارة ، وسلمى ، وعائشة ، وفاطمة ، وأمة الله ، ويعلى فتح البارى ٩ / ١٤٢ .

(٣) أخرجه البخارى في النكاح باب « وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم » ٩ / ١٤٠ رقم ٥١٠٠ .

أبى سلمة أخبرته أن أم حبيبة بنت أبى سفيان أخبرتها أنها قالت : يارسول الله أنكح أختى بنت أبى سفيان ، فقال : أو تحبين ذلك ؟ فقلت : نعم ، لست لك بمخلية ، وأُحبُّ من شاركنى فى خير أختى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن ذلك لايحل لي . قلت فإنا نُحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبى سلمة . قال : بنت أم سلمة ؟ قلت نعم . فقال : لو أنها لم تكن ربيبتى فى حَجرى ما حلت لى . إنها لابنة أخي من الرضاعة . أرضعتنى وأبا سلمة ثويبة ، فلا تعرضن على بناتكن ولا أخواتكن .

قال عروة - أحد رجال الأسناد - وثويبة مولاة لأبى لهب . وكان أبو لهب أعتقها فأرضعت النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما مات أبو لهب أريه بعض أهله [1] بشر حيبة [2]، قال له : ماذا لقيت ؟

قال أبو لهب : لم ألق بعدكم ، غيرأنى سقيت في هذه بعتاقتى ثويبة [3] .

وفي رواية الإسماعيلى « لم ألق بعدكم رخاء »وفيها أيضا « غير أنى سقيت فى هذه وأشار الى النقرة التى بين الإبهام والتي تليها من الأصابع» [4] .

وبعد فترة من رضاعته صلى الله عليه وسلم من أمه ، تشاركها في هذا ثويبة ، بدأ أهله صلي الله عليه وسلم يطلبون له مرضعة من البادية ، فعادة العرب أن ينشأ أولادهم فى البادية لما في ذلك من فوائد ومزايا سوف أتعرض لها فيما بعد إن شاء الله تعالي .

وكانت صاحبة الحظوة في رضاعته ، وصاحبة السعد بحضانته حليمة السعدية .

فمن حليمة التى أصبحت أمه صلي الله عليه وسلم من الرضاع ؟

ومن زوجها الذى أصبح والده صلى الله عليه وسلم من الرضاع ؟

(١) قيل أنه العباس أخوة .

(٢) أى بسوء حال

(٣) أخرجه البخارى فى الموضع السابق

(٤) راجع فتح البارى جـ٩ صـ ١٤٥ الشرح .

والداه صلى الله عليه وسلم من الرضاع

أمه من الرضاع هي :

حليمة بنت أبي ذؤيب - عبد الله - بن الحارث بن شِجْنة بن جابر بن رازم بن ناصرة ، بن فصية بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن ، بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عَيْلان بن مضر .

تلتقي مع رسول الله صلي الله عليه وسلم في جده مضر .

والده من الرضاع :

أما والده صلى الله عليه وسلم من الرضاع فهو الحارث بن عبد العزى بن رفاعة بن ملأن بن ناصرة بن فصية يلتقى نسبه مع زوجته فى ناصرة بن فصية ، ويلتقى نسبهما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم - كما تقدم - في مضر .

ولذا فإنه لما سأله صلي الله عليه وسلم رجل كيف كان أول شأنك يارسول الله ؟ قال : كانت حاضنتى من بنى سعد بن بكر .... الحديث وسيأتى إن شاء الله تعالى عند الكلام على شق الصدر . وقصة إرضاع حليمة له صلي الله عليه وسلم تضمنها حديث طويل عن حليمة رواه أبو يعلى ورواه الطبرانى بنحوه قال الهيثمى ورجالهم ثقات ، ورواه أيضا ابن اسحاق بإسناده وابن راهويه والبيهقى وأبونعيم .

وهذا الحديث يبين ما كان من حليمة فى أخذه صلي الله عليه وسلم ، وما حباها الله به بعد أن أخذته ، وكيفية نشأته صلى الله عليه وسلم في بني سعد ، كما يصور مدى رجاحة عقل أمه صلي الله عليه وسلم ، ومن ثم فأسوق هذا الحديث برغم طوله ، لما فيه من جم الفوائد .

أخرج أبو يعلى عن حليمة بنت الحارث أم رسول الله صلي الله عليه وسلم السعدية التى أرضعته قالت : خرجت في نسوة من بنى سعد بن بكر نلتمس

الرضعاء بمكة ، علي أتان لى قمراء [١] ، قد أدَمْتُ [٢] بالركب . قالت : وخرجنا في سنة شهباء [٣] لم تبق لنا شيئا ومعى زوجى الحارث بن عبد العزى ، قالت : ومعنا شارف [٤] لنا والله إن يبض [٥] علينا بقطرة من لبن ، ومعى صبى لى [٦] إن ننام ليلتنا مع بكائه ، ما فى ثديِ ما يمصه ، وما فى شارفنا من لبن نغذوه ، إلا أنا نرجو ، فلما قدمنا مكة لم يبق منا امرأة إلا عرض عليها رسول الله صلي الله عليه وسلم فتأباه وإنما كنا نرجو كرامة رضاعة من والد المولود ، وكان يتيما فكنا نقول : ما عسى أن تصنع أمه ؟ حتى لم يبق من صواحبى امرأة إلا أخذت صبيا غيرى ، وكرهت أن أرجع ولم آخذ شيئا ، وقد آخذ صواحبى ، فقلت لزوجى : والله لأرجعن إلى ذلك فلآخذنه . قالت : فأتيته فأخذته فرجعت به إلى رحلي فقال زوجى : قد أخذتيه ؟ فقلت : نعم ، والله ذاك أنى لم أجد غيره . فقال : قد أصبت ، فعسى الله أن يجعل فيه خيرا . فقالت : والله ما هو إلا أن جعلته في حجرى ، قالت : فأقبل عليه ثديى بما شاء من اللبن ، قالت : فشرب حتى روى ، وشرب أخوه - تعني ابنها - حتى روى ، وقام زوجى الى شارفنا من الليل فإذا هى حافل ، فحلبت لنا ما شئنا ، فشرب حتى روى . قالت : وشربت حتى رويت . فبتنا ليلتنا تلك بخير، شباعا رواء، وقد نام صبينا ، قالت : يقول أبوه يعنى زوجها : والله ياحليمة ما أراك الا أصبت نسمة مباركة ؛ قد نام صبينا وروى . قالت : ثم خرجنا ، فوالله لخرجت أتانى أمام الركب قد قطعته حتى ما يبلغونها ، حتى إنهم ليقولون : ويحك يابنت الحارث ، كفّى علينا ، أليست هذه

---

(١) لون يميل الى الخضرة ، أو بياض فيه كدرة .

(٢) أطلت عليهم المسافة لتمهلهم عليها .

(٣) مجدبة .

(٤) الناقة المسنة .

(٥) في رواية ابن سعد « ما تبضُّ » والمعنى ما ترشح بشيء .

(٦) اسمه عبد الله بن الحارث .

بأتانك التي خرجت عليها ؟ فأقول : بلى والله . وهى قدامنا ؟ حتي قدمنا منازلنا من حاضر بني سعد بن بكر ، فقدمنا علي أجدب أرض الله ، فوالذى نفس حليمة بيده إن كانوا ليسّرحون أغنامهم إذا أصبحوا ويسرح راعى غنمى فتروح غنمى بطانا لُبّنا حفلا ، وتروح أغنامهم جياعا هالكة ما بها من لبن . قالت فشربنا ما شئنا من لبن ، وما في الحاضر أحد يحلب قطرة ولايجدها . فيقولون لرعاتهم : ويلكم ألا تسرحون حيث يسرح راعى حليمة ؟ فيسرحون في الشعب الذى يسرح فيه راعينا . قالت : وكان صلي الله عليه وسلم يشب في اليوم شباب الصبى في شهر ، ويشب في الشهر شباب الصبي فى سنة ، فبلغ سنتيه وهو غلام جفر [1] .

قالت :- فقدمنا أمه فقلنا لها وقال لها أبوه : ردى علينا ابنى فلنرجع به ، فإنا نخشى عليه وباء مكة ، قالت : ونحن أضن بشأنه ، لما رأينا من بركته . قالت : فلم نزل بها حتى قالت : ارجعا به . فرجعنا به ، فمكث عندنا شهرين . قالت : فبينما هو يلعب وأخوه يوما خلف البيوت يرعيان بَهْما لنا ، إذا جاءنا أخوه يشتد

فقال لي ولأبيه أدركا أخى القرشى ، قد جاءه رجلان فأضجعاه فشقا بطنه فخرجنا نحوه نشتد ، فانتهينا إليه وهو قائم منتقع لونه ، فاعتنقه أبوه واعتنقته ثم قلنا : مالك أى بنى ؟ قال : أتانى رجلان عليهما ثياب بياض فأضجعانى ثم شقا بطنى فوالله ماأدرى ما صنعا ، قالت : فاحتملناه فرجعنا به . قالت يقول أبوه ؟ والله ياحليمة ما أرى هذا الغلام الا قد أصيب فانطلقى فلنرده الي أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف عليه . قالت : فقلت لا والله إنا كفلناه ، وأدينا الحق الذى يجب علينا فيه ،

ثم تخوفت الأحداث عليه فقلت يكون في أهله ، قالت : فقالت أمه : والله ما ذاك بكما ، فأخبرانى خبركما وخبره . قالت : فوالله مازالت بنا حتى أخبرناها

---

(١) قوى شديد

خبره ، قالت : فتخوفتما عليه ؟ كلا والله إن لابنى هذا لشأنا ، ألا أخبركما عنه إنى حملت به فلم أر حملا قط كان أخف ولا أعظم بركة منه ، ثم رأيت نورا كأنه شهاب خرج منى حين وضعته أضاءت له أعناق الإبل ببصرى ، ثم وضعته فما وقع كما تقع الصبيان ، وقع واضعا يده بالأرض رافعا رأسه الي السماء . دعاه والحقا بشأنكما (١)

وغنى عن البيان أن هذا الحديث يثبت الكثير من جوانب التفوق فى شخصية أمه صلي الله عليه وسلم ، إنه ابنها الوحيد ، وهو كل من لها في الدنيا ، ومع ذلك حينما ألحوا في رجوعه وهي تعلم ما في البادية من فائدة وافقت علي رجوعه معهم ، فلما عادوا به سريعا استنبطت أن في الأمور شيئا . وأخذت تحاورهما الحديث حتى أخبراها فلم يرعها ذلك !! ولم تخرج عن رزانتها وحكمتها ، بل بينت ما أقنعها الله به في شأنه صلى الله عليه وسلم . إننى أرى في موقفها هذا كل ثبات ورسوخ ، وإذا كان الله سبحانه قال فى شأن أم موسى « لولا أن ربطنا علي قلبها » فإنه سبحانه قد أعطى أم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم مافاق ذلك . حتى ثبتت ولن تفزع ولم تتأثر مع أن ماحدث مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقل العادى يحتم الهلاك . فأى قلب هذا ؟ وأى أم هذه ؟

لاغرابة إنها أم رسول الله المصطفى وحبيبه المجتبى .

ويتساءل الإنسان لماذا الاسترضاع ؟ لماذا لم ترضعه أمه ؟ لماذا لم ترضعه ثويبة ويظل فى كنف أهله وفى وسط بلده ؟ والجواب :

---

(١) مجمع الزوائد ٨ / ٢٢٠ ، ٢٢١ - وفي الطبعة أخطاء صححتها ووضعت خطا تحت ما صححته - وعزاه لأبى يعلى واللفظ له وللطبرانى ، ورجالهما ثقات . وأخرجه أبو نعيم في الدلائل ١ / ١١١ من طريق محمد بن اسحاق .
وأخرجه ابن اسحاق ، كذا في سيرة ابن هشام ١ / ١٦٢ ، وأخرجه البيهقى في الدلائل ١ / ١٣٢ من طريق ابن اسحاق .

حكمة الاسترضاع فى البادية :

كان العرب يؤثرون البادية لرضاعة أطفالهم ونشأتهم الأولى ، وذلك لعدة أسباب منها :

١- نشأة الطفل فى البادية سبيل الصحة والعافية ، فهواؤها الطلق ، وشمسها الساطعة ، وسعة المساحات فيها ، كل ذلك أدعى لسلامة الطفل وصحته ، إن الطفل يحتاج الى النفس العميق من هواء طلق ، وجو صحو ، وهو لايحظى بذاك إلا فى البادية .

٢- البادية سبيل لسلامة الفطرة وتزكيتها ، فهى خالية من أدواء المدنية التى تلوث الفطرة ، مليئة بمايغذى الفطرة وينميها .

٣- البادية سبيل سلامة الفكر لمافيها من الصفاء ، وهى تطلق فكر المرء وعواطفه

٤- البادية تربى الطفل على الخشونة والشجاعة، وهذه من أطيب الميزات وماذا بعد أن حرص الإسلام على ذلك ؟

٥- النشأة فى البادية بعيدا عن الأهل تربى فى الطفل مزية الاعتماد على النفس، وفى هذا مافيه من قوة الشخصية، وتفتيق الذهن بالتفكير من سن مبكر .

٦- البادية لغتها سليمة ، لم تؤثر فيها الاختلاطات ، ولم ترققها المدنية .

٧- نشأة الطفل فى البادية سبيل اكتساب خبرات وتجارب مع الطبيعة ، ومع الآخرين .

ولماذ فى بنى سعد :

ويتساءل الباحث أيضاً ماهى الحكمة فى استرضاعه فى بنى سعد بالذات ؟ لابد أن لله سبحانه وتعالى حكمة فى ذلك فهل يمكن تلمس هذه الحكمة ؟

الجواب :

كان بنو سعد مشهورين بالفصاحة والبيان ، ونبى سيبعث فى قوم أهل فصاحة وبلاغة يُجَمِّلُه أن يتربى فى أفصح بيئة ، فإن ذلك من باب الكمال اللائق بالرسل .

ولذا كان صلى الله عليه وسلم يقول " أنا أعربكم أنا من قريش ، ولسانى لسان بنى سعد بن بكر " (١)

وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً " أنا أعرب العرب ولدت فى قريش ، ونشأت فى بنى سعد ، فأنّى يأتينى اللحن ؟ " (٢)

وهكذا عاش صلى الله عليه وسلم فى بنى سعد ، يقضى معظم وقته فى الصحراء ، فى البادية ، فى رعى الغنم ، وكل ذلك مما يساعد على اشتداد العظم وقوة البدن ، وصفاء الذهن ، وتوقد القريحة ، ويربى الحلم والصبر ، ويغرس الشجاعة والجرأة .

والنصوص التى وقفت عليها تفيد أنه صلى الله عليه وسلم مكث فى بنى سعد أكثر من عامين مدة شهرين أو ثلاثة أشهر ، كما تقدم فى حديث حليمة ، ورواية ابن اسحاق لهذا الحديث - حديث حليمة - تبين أنه صلى الله عليه وسلم مكث فى بنى سعد شهرين أو ثلاثة أشهر بعد العامين .

الا أن كتاب السير -ومنهم صاحب الروض الأنف- فى مجموعهم يذكرون أنه صلى الله عليه وسلم ظل فى بنى سعد حتى كان ابن خمس سنوات وشهر ، وهذا لا يتعارض مع النص ، فلعل حليمة بعد أن وجدت طمأنينة أمه عليه صلى الله عليه وسلم ، وأمضت بعض الوقت فلم تجد أثراً لشق صدره صلى الله عليه لعلها أخذته

---

(١) أخرجه ابن سعد مرسلا عن يحيى بن يزيد السعدى ، الطبقات ١١٣/١ .

(٢) أخرجه الطبرانى عن أبى سعيد الخدرى ، وفى إسناده مبشرين عبيد وهو متروك راجع مجمع الزوائد ٢١٨/٨ ، وهذا الحديث شديد الضعف ، وإنما ذكرته لبيان حاله .

ثانية فكان عندها حتى تجاوز الخامسة من عمره صلى الله عليه وسلم .

وإنما ملت إلى الجمع لأن أقوال الأئمة المؤلفين فى السيرة ، لاترد فى علمهم بسهولة ، والجمع بين ماقالوه وماثبت به النص أولى وأحرى ، وان كان ثبوت النص لايعادله شيء .

أحداث هذه الفترة
(فترة رضاعه فى بنى سعد)

إن الذى فى فترة الرضاعة قَلَّ أن تجد فى حياته أحداثا تلفت الانتباه . ومن ثم فإن أحداث هذه الفترة من حياته صلى الله عليه وسلم قليلة جدا بالنسبة للفترات الأخري ، أما بالنسبة لذاتها فإنه طيبة .

وأبرز ما فى هذه الفترة والذى أحرص أن أتناوله بالدراسة حدثان :-

الأول :- شق الصدر .

الثانى :- رعى الغنم .

أولا :- شق الصدر .

تحدثنا النصوص أنه صلى الله عليه وسلم قد جاءه جبريل ومعه ملك آخر فشقا صدره . وفى هذه الفترة ما عرف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم جبريلَ ، وانما عرفه بعد البعثة وأخبرهم بذلك .فقد أخرج مسلم عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى اله عليه وسلم أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق قلبه فاستخرج القلب ، فاستخرج منه علقة ، فقال : هذا حظ الشيطان منك . ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم . ثم لأمَهُ ثم أعاده فى مكانه .

وجاء الغلمان يسعون الى أمه (يعنى ظئره) فقالوا : إن محمدا قد قتل ، فاستقبلوه وهو مُنْتَقَعُ اللون قال أنس : وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط فى صدره صلى الله عليه وسلم (١) .

وأخرج أحمد عن عتبة بن عبد السلمى أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : كيف كان أول شأنك يا رسول الله ؟ قال : كانت حاضنتى من بنى

---

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم ١/١٤٥ حديث رقم ٢٥٩ ط عيسى الحلبى .

سعد بن بكر فانطلقت أنا وابن لها فى بَهْم [1] لنا ، ولم نأخذ معنا زاداً ، فقلت يا أخى اذهب فأتنا بزاد من عند أمنا ، فانطلق أخى ومكثت عند البَهْم فأقبل طيران أبيضان كأنهما نسران فقال أحدهما لصاحبه أهو هو ؟ قال فأقبلا يبتدرانى فأخذانى فبطحانى الى القفا فشقا بطنى ثم استخرجا قلبى فشقاه فأخرجا منه علقتين سوداوين فقال أحدهما لصاحبه ائتنى بماء ثلج فغسلا به جوفى ثم قال ائتنى بماء برد فغسلا به قلبى . ثم قال : ائتنى بالسكينة [2] فذراها فى قلبى ، ثم قال أحدهما لصاحبه : حُصه [3] فحاصه وختم عليه بخاتم النبوة . وقال حَيْوة [4] فى حديثه : حصه فحصه واختم عليه بخاتم النبوة . فقال أحدهما لصاحبه اجعله فى كفة واجعل ألفا من أمته في كفة ، فإذا أنا أنظر إلى الألف فوقى أشفق أن يخر علىّ بعضهم . فقال : لو أن أمته وزنت به لمال بهم ، ثم انطلقا وتركانى ، وفرقت فرقا شديدا ، ثم انطلقت الى أمى فأخبرتها بالذى لقيته فأشفقت علىّ أن يكون ألبس بى [5] ، قالت : أعيذك بالله . فرحّلت بعيرا لها فجعلتنى . وقال يزيد [6] : فحملتني على الرحل ، وركبت خلفى حتى بلغنا الي أمى ، فقالت : أو أديتُ أمانتى وذمتى ؟ وحدثتها بالذى لقيت فلم يَرُعْهاذلك . فقالت إنى رأيت خرج منى نور أضاءت منه قصور الشام [7]

وتقدم فى حديث حليمة - الذى ذكر فى موضوع رضاعته صلى الله عليه وسلم

(١) بفتح فسكون جمع بَهْمة وهى ولد الضأن ذكرا كان أو أنثى .
(٢) الطمأنينة .
(٣) خطْهُ .
(٤) أحد شيخى أحمد فى هذا الحديث .
(٥) أى مسنى شىء من الشيطان .
(٦) شيخ أحمد الثانى فى هذا الحديث .
(٧) قال في مجمع الزوائد ٨/٢٢٢ رواه أحمد والطبرانى ولم يسق المتن وإسناد أحمد حسن ، وراجع الفتح الربانى ٢٠ / ١٩٠ .

- ما يفيد أنه صلى الله عليه وسلم قد شق صدره . وحديث حليمة هذا قلت فى التعليق عليه أخرجه أبو يعلى والطبرانى ورجالهما ثقات .

وواضح أن شق صدره صلى الله عليه وسلم فى فترة رضاعته أمر ثابت ، فقد ثبت فى صحيح مسلم وأخرجه أحمد بإسناد حسن ، وأبو يعلى والطبرانى بإسنادين رجالهما ثقات .

والمراد بالعلقة : القطعة من الدم .

أما أنه صلى الله عليه وسلم ذكر أن جبريل هو الذى جاءه ، ومرة قال : طيران أبيضان فهذا باعتبار فهمه فى كل مرحلة ، فحينما أخبر أنه جبريل ، أخبر عن الحقيقة التي تبينت له بالوحي ، وذكر جبريل مقتصراً عليه لأنه كان العمدة فى المسألة وغيره تابعا ، وحينما أخبر أنهما كانا طيرين أبيضين فإنما أخبر عن مافهمه وقتها .وفهم الكُتَّاب لهذه الحادثة متعدد الوجهات :

فمنهم من يشكك فى هذه الأحاديث !! وهؤلاء يذكرون كلاما لا يُقَوَّم بالمداد الذى يُدَوَّن به ، وعذر هؤلاء أنهم ليسوا من أهل الحديث ، بيد أن فيهم من الجرأة والتجاسر على الحقيقة ما سوَّغ لهم أن يتكلموا فيما ليس لهم فيه .

لقد قال أحد الكتّاب من أين يأتى ماء زمزم وهو في البادية ؟ !! وكأنه ظن أن هذا بعيد على الملك ؟!! وقال : كيف يرى أنس أثر المخيط فى صدره صلى الله عليه وسلم مع أن خياطة الملك لا يرى لها أثر ؟ وأتساءل ما دليله على هذا ؟ .

ومنهم من يحاول التأويل والتأويل .

وأتساءل لم كل هذه الأمور ؟ لم يحاولون رد النصوص أو تأويلها ؟

إن الفاعل هو الله والمكرم نبيه ومصطفاه ، فالفاعل قادر مقتدر ، والمكرم حباه ربه بكل خير ، فلم كل هذه الأمور ؟ ولم يحاولون إخضاع الأمور لما جرى به الإلف والعادة ؟

وسيأتى بمشيئة الله تعالى عند الكلام فى الإسراء والمعراج أن صدره صلى الله عليه وسلم قد شق أيضاً .

وفهمى - والله أعلم - للحادثين - شق صدره فى الصغر، وشقه قبل الأسراء - أن الأولى كانت لإزالة كل سلبى ، فلاعيب مما يقع فيه غيره . ولا ذيلة مما يرتكبه سواه وأن الثانية كانت لغرس كثير من الكمال ، كانت تهيئة لإمامة المرسلين ، وللعروج إلى العالم العلوى ، وفوق ذلك كانت تهيئة لمناجاة المولى عز وجل ، وتهيئة لفهم آيات الله الكبرى «سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلي المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » .

وربما زدت الأمر توضيحا عند الكلام على الإسراء والمعراج إن شاء الله تعالى

الدروس المستفادة :-

ويستفاد من حادثه شق صدره صلى الله عليه وسلم واستخراج الشيطان منه دروس منها :-

* أن الله سبحانه وتعالى أكرم نبيه صلى الله عليه وسلم بإزالة حظ الشيطان منه ، حتى لا يقع فى رذيلة يوسوس له بها الشيطان ، ومن إكرام الله له صلى الله عليه وسلم أن يتم هذا في بداية حياته صلى الله عليه وسلم ، حتى كانت حياته صلى الله عليه وسلم كلها بعيدة عن السفاسف ، ومغمورة بمعالي الأخلاق .

* على المسلم أن يحرص على إضعاف حظ الشيطان منه ، وذلك بأمور منها :

١- سلامة العقيدة ، وحسن التوجه إلى الله تعالى ، فإن هذا مما يجعل الإنسان قريبا من الله تعالى ، ولا سلطان للشيطان عليه ، وقد تكرر هذا المعني فى القرآن الكريم ، فقال الله تعالى ،« فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلي ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون [1] » وقال سبحانه

---

(١) سورة النحل الآيات ٩٨ - ١٠٠ .

- حكاية عن ابليس - « قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين [1] » .

٢- الاجتهاد فى طاعة الله تعالى وعبادته ، فإن المسلم كلما كان ذاكرا لله سبحانه كلما كان الشيطان بعيدا عنه ، وأفضل الذكر قراءة القرآن ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، وإن البيت الذى تقرأ البقرة فيه لا يدخله الشيطان [2] » فدل هذا على أن من أسباب إبعاد الشيطان عن أهل البيت جميعا أن تكون سورة البقرة تقرأ فيه . وأخبر صلي الله عليه وسلم عن أوامر الله يحى بن زكريا عليه والسلام التي أمر أن يبلغها قومه ، وفيها « وآمركم أن تذكروا الله فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو فى أثره سراعا حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله [3] » .

ثانيا :- رعى الغنم :-

تقدم من النصوص ما يفيد أنه صلى الله عليه وسلم رعى الغنم فى هذه الفترة رضاعته فى بنى سعد - فحديث حليمة - الذى ذكرته فى رضاعته صلى الله عليه وسلم - وحديث عتبة بن عبد السلمى - الذى ذكرته فى شق صدره صلى الله عليه وسلم - يفيدان أن صلى الله عليه وسلم رعى الغنم فى بنى سعد .

ولقد رعى الغنم صلى الله عليه وسلم أيضا وهو بمكة قبل بعثته ، رعاها لأهله، ورعاها بقراريط [4] لأهل مكة .

---

(١) سورة ص الأيتين ٨٢ ، ٨٣ .

(٢) أخرجه الترمذى فى ثواب القرآن باب ما جاء فى سورة البقرة ٨ / ١٨٠ تحفة . وقال : حسن صحيح . وأخرجه أيضا مسلم والنسائى .

(٣) أخرجه الترمذى فى الأمثال باب ما جاء مثل الصلاة والصيام ٨/ ١٦٠ -١٦٤ وقال : حسن صحيح غريب . وأخرجه أيضا ابن خزيمة وابن حبان والحاكم .

(٤) جمع قيراط ، والقيراط جزء من الدينار أو الدرهم .

أخرج البخارى عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم فقال أصحابه : وأنت ؟ فقال : نعم ، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة [1]

وعن أبى سعيد الخدرى « قالوا يا رسول الله كأنك كنت قد رعيت الغنم ؟ قال : أجل قد رعيت الغنم [2] » ورواية عند أحمد « وبعثت وأنا أرعى غنما لأهلى بجباد » عن أبى سعيد الخدرى [3] وحديث أبى هريرة يفيد أن رعى الغنم عمل قام به جميع الأنبياء ! وهذا ما يشير الى أنه لابد من أن هناك حكمة فى ذلك . فإن عملا قام به كل الأنبياء لابد أن بينه وبين ما يكلفون به من دعوة علاقة كبيرة .

وقد جاءت النصوص تبين ما يورثه هذه العمل - من خصال في القائمين به . فأهل الغنم أهل هدوء وسكينة ، ووقار وتواضع ، لا أهل عنف وقسوة ، ولا أهل فخر وخيلاء .

أخرج الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الفخر والخيلاء فى الفدادين أهل الوبر ، والسكينة فى أهل الغنم [3] »

و « الفدادين » الفلاحين والحراثين .

وأخرجا عنه أيضاً أنه صلى الله عليه وسلم قال : « . . . . والفخر والخيلاء فى أصحاب الإبل ، والسكينة والوقار فى أهل الغنم » .

---

(١) أخرجه البخارى فى الإجاره باب رعى الغنم على قراريط٤/٤٤١ .
(٢) أحمد ٣/١٧ و « أجل » معناها « نعم » أحمد ٣/٩٦ .
(٣) أخرجه البخاري فى المناقب باب قول الله تعالى(ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) ٦/٥٢٦ رقم ٣٤٩٩ وراجع بدء الخلق باب خير مال المسلم غنم ٦/٣٥٠ رقم ٣٣٠١ وأخرجه مسلم فى الإيمان باب تفاضل أهل الإيمان ١/٧٢ رقم ٨٥ .

قال الحافظ ابن حجر:

« قال العلماء : الحكمة فى إلهام الأنبياء من رعى الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم ، ولأن فى مخالطتها ما يُحَصِّل لهم الحلم والشفقة لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها فى المرعى ، ونقلها من مسرح إلي مسرح ، ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق ، وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة ألفوا من ذلك الصبر علي الأمة ، وعرفوا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها فجبروا كسرها ورفقوا بضعيفها ، وأحسنوا التعاهد لها فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة لما يحصل لهم من التدرج على ذلك برعي الغنم .

وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها ، ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها فى العادة المألوفة ، ومع أكثرية تفرقها فهي أسرع انقياداً من غيرها [١]

الدروس المستفادة :-

ويستفاد من رعى الأنبياء الغنم دروس منها :

الحرص علي مايربى الأخلاق الفاضلة ، فكل عمل يربي الأخلاق علي العاقل أن يحرص عليه لنفسه وأهله .

ليست الرفاهية إكراما ، وليس عدم العمل عزاً ، فلو كان الأمر كذلك ماترك الله أنبياءه يرعون الغنم .

على الأمة أن تجتهد فيما فيه إنتاج ، فإنه أساس قوة الأمة .

---

(١) فتح البارى ٤٤١/٤

وفاة والدته صلى الله عليه وسلم

ولما كان صلى اله عليه وسلم فى السادسة من عمره خرجت به أمه ومعها حاضنته أم أيمن إلي المدينة (١) تزيره أخواله من بنى عدى بن النجار (٢)، وتزيره وتزور هى أيضاً قبر والده صلي الله عليه وسلم .

لقد كانت زيارة تعارف ووفاء ، فلم تترك حق زوجها عليها فقامت بتعريف رسول الله صلي الله عليه وسلم أقاربه ، وكانت زيارة قبر عبد الله مع ذلك ، فزار رسول الله صلي الله عليه وسلم قبر والده الذى لم يره .

وبعد زيارة أخواله صلي الله عليه وسلم وزيارة قبر والده رجعت به أمه ، وبينما هى فى رحلة العودة من المدينة المنورة الى مكة أدركتها منيتها فتوفيت بالأبواء (٣).

وعاد صلى الله عليه وسلم إلى مكة مع حاضنته أم أيمن ، وقد فقد أحن وأحب الخلق اليه ، فقد أمه . وهو الذى لم ير أباه .

أخرج ابن سعد عن ابن عباس والزهري وغيرهما دخل حديث بعضهم فى بعض قالوا : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أمه آمنه بنت وهب ، فلما بلغ سن سنتين خرجت به الى أخواله بنى عدى بن النجار بالمدينة تزورهم به ، ومعه أم أيمن تحضنه ، وهم علي بعيرين ، فنزلت به فى دار النابغة ، فأقامت به عندهم شهراً ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر أموراً كانت فى مقامه ذلك ، لما نظر الى أطُم بني عدى بن النجار عرفه وقال : كنت ألاعب أنيسة - جارية من الأنصار - على هذا الأطم ، وكنت مع غلمان من أخوالى نُطيِّر طائراً كان يقع عليه ، ونظر

---

(١) وكانت تسمى آنذاك يثرب .

(٢) أخوال جده عبد المطلب ، ودخواله صلي الله عليه وسلم بناء على ذلك .

(٣) مكان بين مكة والمدينة .

إلى الدار فقال : ههنا نزلت بى أمى ، وفى هذه الدار قبر أبى عبد الله بن عبد المطلب ، وأحسنت العوم فى بئر بنى عدى بن النجار ، وكان قوم من اليهود يختلفون ينظرون إليه ، فقالت أم أيمن : فسمعت أحدهم يقول : هو نبى هذه الأمة، وهذه دار هجرته ، فوعيت ذلك كله من كلامه ، ثم رجعت به أمه إلي مكة ، فلما كانوا بالأبواء توفيت آمنة بنت وهب ، فقبرها هناك ، فرجعت به أم أيمن علي البعيرين الذين قدموا عليها مكة ، وكانت تحضنه مع أمه ثم بعد أن ماتت، فلما مر رسول الله صلي الله عليه وسلم فى عمرة الحديبية بالأبواء قال : إن الله قد أذن لمحمد فى زيارة قبر أمه ، فأتاه رسول الله صلي الله عيه وسلم فأصلحه وبكي عنده ، وبكي المسلمون لبكاء رسول الله صلي الله عليه وسلم ، فقبل له فقال أدركتنى رحمتها فبكيت (١) أهـ

ونظر لأنه صلي الله عليه وسلم عاش فترة مع أمه ، وأدرك من حنّوها الكثير ، ومن خلقها الجميل ، فإنه صلي الله عليه وسلم كان يجذبه الحنين اليها ، وهذا يعلل لنا حرصه صلى الله عليه وسلم على زيارة قبرها بعد كبره صلى الله عليه وسلم .

فلقد زار قبرها صلي الله عليه وسلم بعد البعثة ، وسأل الله أن يأذن له بذلك ، وأن يأذن له أن يستغفر لها . فأذن الله له فى الأول ومنعه الاستغفار لها .

أخرج مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال زار النبى صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى ، وأبكى من حوله ، فقال : استأذنت ربى فى أن أستغفر لها فلم يؤذن لى ، واستأذنته فى أن أزور قبرها فأذن لى ، فزوروا القبور ، فإنها تذكر الموت (٢) .

---

(١) الطبقات الكبرى ١/١١٦، ١١٧ .

(٢) أخرجه مسلم فى الجنائز باب استئذان النبى صلى الله عليه وسلم ربه عز وجل فى زيارة قبر أمه ٢/٦٧١ رقم ١٠٨ .

وأخرج البيهقى بإسناده عن سليمان بن بريده عن أبيه قال : «انتهى النبى صلى الله عليه وسلم إلى رسم قبر فجلس وجلس الناس حوله ، فجعل يحرك رأسه كالمخاطب ، ثم بكى ، فاستقبله عمر فقال : مايبكيك يارسول الله ؟ قال : هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربى فى أن أزور قبرها فأذن لى ، واستأذنته فى الإستغفار لها فأبى علىّ ، وأدركتنى رقتها فبكيت . قال : فما رؤيت ساعة أكثر باكياً من تلك الساعة [1] »

(تابع محارب بن دثار عن بريدة عن أبيه)

وأود أن أسجل للقارىء شيئا استلفت انتباهى ، فجد رسول الله صلي الله عليه وسلم ولد بالمدينة وترى أول اعوامه في المدينة ، وأخوال جده من المدينة ، ووالده صلي الله عليه وسلم توفى بالمدينة ودفن بها في دار النابغة التى نزل فيها رسول اله صلي الله عليه وسلم هو وأمه ، وهو صلي الله عليه وسلم زار مع أمه المدينة ، ومن كل هذه الأمور أرى شديد العلاقة بينه صلي الله عليه وسلم وبين المدينة منذ أيامه الأولي ، ومنذ جده صلى الله عليه وسلم ، فلا غرابة أن تقول المدينة مهاجره بعد ذلك ، ولا غرابة أن يكون قبره صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فيها ، وهي التى بها قبر أبيه صلي الله عليه وسلم .

حكمة اليتم والفقر

ويجول بخاطر الباحث سؤال :

لم اختار الله سبحانه وتعالى لنبيه صلي الله عليه وسلم اليتم والفقر ؟

لقد مات أبوه صلي الله عليه وسلم وهو في بطن أمه ، وماتت أمه وهو في السادسة من عمره خارج بلدة مكة . ولم يرث صلي الله عليه وسلم من والده سوى أشياء قليلة فما سر هذا ؟

---

(١) وأخرجه ابن سعد ١١٧/١ أيضاً عن بريدة .

والجواب :-

أما اليتم ١/ ففيه البعد عن التدليل ، والتدليل مضيعة .

٢/ وفيه الإعتماد على النفس فلا والد يساعد ، ولازم تحنو ، وانما الإعتماد علي النفس .

٣/ ومن الحكمة أيضاً أن يكون أمام الناس غير وارث حكماً عن آبائه ، فقد مات أبوه وهو جنين ، ومات جده عبد الحكيم وهو طفل صغير .

٤/ فى هذا إظهار لنعمة الله سبحانه وتعالي عليه ، وأنه تربى مرعياً برعاية الله ، لا برعاية أحد من الخلق، كما قال الله سبحانه «ألم يجدك يتيماً فآوى[١] »

وأما الفقر فهو أساس البعد عن المثالب ، وتجنب المزالق ، إن الفقير قريب من الله مؤيد للحق كما قال سبحانه « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولاتعدو عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا[٢] »

أما الغني فمع الهوى ، ونصير للباطل الا من رحم ربك ، قال الله تعالى :

« وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا[٣]»

« وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها [٤] »

« إنما أموالكم وأولادكم فتنة [٥]»

---

(١) سورة الضحى آية ٦ .
(٢) الكهف آية ٢٨
(٣) الإسراء ١٦
(٤) الانعام ١٢٣
(٥) التغابن آية ١٥.

« لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله (١) »

والفقر عيش السعادة لمن رضى ، كما قال صلي الله عليه وسلم « قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافا ، وقنّعه الله بما آتاه (٢) »

والدنيا بمالها ومتعها ليست مغنما يعطيه الله من أحب ، وإنما مغنم الحياه طاعة الله وعبادته ، فلذا أسعد الصالحين بذلك ، وأكمل السعادة وأتمها لحبيبه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

نشأته صلي الله عليه وسلم

بعد أن توفيت أمه صلي الله عليه وسلم أصبح جده يكفله وحده ، فأحسن إليه ورأى فيه أموراً دعته الي الاعتناء به صلى الله عليه وسلم والاهتمام به ، من هذه الأمور :-

١- أنه صلي الله عليه وسلم كان يحمل ذكرى ابن حبيب ، كانت نار فقده مازالت في عبد المطلب بين الجوانح والضلوع . فكان الاهتمام به صلى الله عليه وسلم مما يطفىء هذه النار ، إذ يرى فيه عوضا عن والده الحبيب .

٢- أنه رأى فيه صلى الله عليه وسلم من النباهة والنبل ماليس في مثله ، ولا فى من أسن منه ، فما أرسله في حاجة الا أنجح .

أخرج البخارى في تاريخه وابن سعد وأبو يعلى والطبرانى وابن عدى والحاكم وصححه والبيهقى وأبو نعيم وابن منده عن كندير بن سعيد عن ابيه قال : حججت في الجاهلية فإذا رجل يطوف بالبيت وهو يرتجز يقول :

رب رد راكبى محمدا ∴ رده لى واصطنع عندى يدا

قلت من هذا تعنى قال عبد المطلب بن هاشم . ذهبت إبل له فأرسل ابن ابنه فى

---

(١) المنافقون آية ٩ .

(٢) أخرجه مسلم في الزكاه باب في الكفاف والقناعه ٢/ ٧٣٠ رقم ١٢٥ عن عبد الله بن عمرو .

طلبها فاحتبس عليه . ولم يرسله فى حاجة قط إلا جاء بها قال : فما برحت حتي جاء النبى صلي الله عليه وسلم وجاء بالإبل فقال يابنى لقد حزنت عليك كالمرأة حزناً لا يفارقنى أبداً (١).

٣- أنه وجد فيه من علامات الشرف والتقدم الكثير ، بل ان بعض الآثار تفيد انهتوقع له النبوة . أخرج ابن سعد وابن عساكر عن الزهرى ومجاهد ونافع بن جبير قالوا : كان النبي صلي الله عليه وسلم يجلس على فرس جده فيذهب أعمامه ليؤخروه فيقول عبد المطلب : دعوا ابنى إنه ليؤنس ملكا قال قوم من بنى مُدْلج (٢) لعبد المطلب احتفظ به فإنا لم نرقدما اشبه بالقدم التى في المقام منه . وقال عبد المطلب لأم أيمن يابركة لا تغفلي عنه فإن أهل الكتاب يزعمون أن ابني نبيُّ هذه الأمة(٣)وكان جده صلي الله عليه وسلم جد مهتم به فلا يأكل طعاما إلا يقول : عليَّ بابنى فيؤتى به إليه . وكان يقدمه علي أعمامه ، وعلي كثير ممن هم أسن منه صلي الله عليه وسلم .

فلما كان صلي الله عليه وسلم في الثامنه توفي جده عبد المطلب ، وأوصى به أبي طالب .

كفالة أبى طالب لرسول الله صلى الله عليه وسلم :-

ويتساءل الباحث لماذا أوصى عبد المطلب برسول الله صلي الله عليه وسلم الي أبى طالب دون بقية أعمامه صلي الله عليه وسلم .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٦٠٣/٢ وصححه على شرط مسلم وأقره الذهبى ، وأخرجه ابن سعد ١١٢/١ ، ١١٣ ، وأخرجه البيهقى فى دلائل النبوة فى باب ذكر أسماء رسول الله صلي الله عليه وسلم ١٥١/١. وذكره في مجمع الزوائد ٢٢٤/٨ وقال : رواه ابو يعلى والطبرانى واسناده حسن وذكره في الخصائص ٢٠٠/١ وعزاه للبخارى في تاريخه وابن سعد وابو يعلى والطبرانى وابن عدى والحاكم وصححه البيهقي وابي نعيم وابن منده . وكندير بن سعيد راجع في ترجمته الإصابة ٦٣٥/٥ ، ٦٧٠ وفي بعض الكتب كندي بن سعد وهو خطأ ، والصواب ما أثبته .

(٢) بطن من كنانة من بني عبد مناة كانوا مشهورين بالقيافة .

(٣) أخرجه ابن سعد ١١٧/١ ، ١١٨ وراجع الخصائص ٢٠١/١

والجواب :-

أن أبا طالب كان شقيق والده صلي الله عليه وسلم .

ويبدو لي- والله اعلم - سبب آخر ، هوأن أبا طالب كان رجلا رزينا عاقلا حكيما ، وكان ذا إحساس رقيق ، يدرك هذا من قرأ أخبار الرجل ، إنه الرجل الذي لم تستطيع قريش أن تنال من رسول الله صلي الله عليه وسلم في حياته لما كان ينهجه من نهج العقلاء ، انه الرجل الذي أبي عليه حسه أن يترك ابن أخيه ، ولو أدى ذلك لعداء القوم جميعاً .

فإن قال قائل : لو كان حكيماً لأسلم فالجواب ما خاطب الله به نبيه صلي الله عليه وسلم .

« إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء (١) »

وكأن الله سبحانه لم يشأ أن يكفل نبيه عم له سيدخل الإسلام وذلك لحكمه يعلمها سبحانه . وربما أتى لذلك مزيد عند الكلام علي نهاية حياة أبي طالب .

ولقد قام أبو طالب بكفالة رسول الله صلي الله عليه وسلم علي خير وجه فكان حبه لرسول الله صلي الله عليه وسلم أكثر من حبه لأولاده ، وكان لا ينام إلا إلى جنبه ، وكان يخرج فيخرج معه .

أخرج ابن سعد وأبو نعيم وابن عساكر من طريق عطاء عن ابن عباس ، ومن طريق مجاهد وغيره قالوا : كان إذا أكل عيال أبي طالب جميعاً أو فرادي لم يشبعوا ، وإذا أكل معهم رسول الله صلي الله عليه وسلم شبعوا فكان إذا أراد أن يغديهم أو يعشيهم قال :كما أنتم حتي يحضر ابني فيأتى رسول الله صلي الله عليه وسلم فيأكل معهم فيفضلون من طعامهم ، وإن لم يكن معهم لم يشبعوا ، وإن كان لبناً (٢) شرب أولهم ثم يتناول القعب العيال فيشربون منه فيروون عن

---

(١) سورة القصص آية ٥٦ .

(٢) أى وإن كان الطعام لبناً .

آخرهم من القعب الواحد ، وإن كان أحدهم ليشرب قعباً وحده ، فيقول : إنك لمبارك . وكان الصبيان يصبحون رمصاً شعثاً ، ويصبح رسول الله صلي الله عليه وسلم دهيناً كحيلاً (١).

وهذا الأثر يبين مدى ما كان يعرف أبو طالب لرسول الله صلي الله عليه وسلم من قدر ، ومدى ما كان يحوطه به من التكريم والاحترام .

وظل أبو طالب علي هذا النهج يحوط رسول الله صلي الله عليه وسلم ويرعي أموره ، فلما بعث صلي اله عليه وسلم كان على نفس النهج ، وربما زاد .

فعن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه « قال للنبى صلى الله عليه وسلم ما أغنيت عن عمك ، فإنه كان يحوطك ويغضب لك ؟ قال : هو فى ضحضاح من نار ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار (٢) »

والشاهد فى هذا الحديث قول العباس « فإن كان يحوطك ويغضب لك » وتقرير الرسول صلي الله عليه وسلم له على ذلك .

ومن شعر ابى طالب فى مناصرته صلي اله عليه وسلم :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ∴ حتى أوسّد فى التراب دفينا

وقوله :

كذبتم وربِّ البيت نبزى محمداً ولما نقاتل حوله ونناضل

وقوله :

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وبمشيئة الله تعالي سيأتى بيان دور أبي طالب فى مناصرة صلي الله عليه وسلم عند الكلام على عداوة قريش لرسول الله صلي الله عليه وسلم ، ودفاع أبى طالب عنه .

---

(١) أخرجه ابن ابى سعد ١١٩/١ ، ١٢٠ . وراجع الخصائص ١٠٤/١ ، ٢٠٥ .
(٢) أخرجه البخارى في مناقب الأنصار باب قصة أبى طالب ١٩٣/٧ رقم ٣٨٨٣ .

شبابه صلى الله عليه وسلم

* الجانب الخلقى :
  - عقيدته .
  - أخلاقه .
* الأحداث البارزة فى فترة شبابه :
  - حرب الفجار .
  - حلف الفضول .
  - زواجه بأم المؤمنين خديجة .
  - بناء الكعبة .

شبابه صلى الله عليه وسلم

تحت هذا العنوان أريد أن أتناول بالدراسة معالم الفترة من بدء شبابه صلى الله عليه وسلم الى أن بعثه الله سبحانه وتعالي رسولا نبيا فى الأربعين من عمره صلى الله عليه وسلم .

وسوف أركز فى دراسة هذه الفترة على ما يلى :-

- بيان الجانب الخلقى الذى كان عليه صلى الله عليه وسلم .
- الأحداث البارزة التى وقعت فى هذه الفترة ، ومدى تأثره صلي الله عليه وسلم وتأثيره فيها .

أولا : الجانب الخلقى :-

لم يسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم لصنم قط ، وكان يبغض الأصنام ويُنَفِّر منها ، وهذا قبل أن يكرمه الله بالرسالة ، فإن الله سبحانه حماه ذلك ، فما كان يليق برسول الرسالة الخاتمة القائمة على التوحيد أن يعظم صنما ، وانما يليق به أن يبتعد وأن ينكر ، وهذا ما كان منه صلي الله عليه وسلم .

فعن عروة بن الزبير قال : حدثنى جار لخديجة بنت خويلد قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول لخديجة أى خديجة والله لا أعبد اللات أبدا ، والله لا أعبد العزى أبدا ، قال : يقول خل العزى قال : وكان صنمهم الذى يعبدون ثم يضطجعون [1] .

وعن زيد بن حارثة قال : كان صنم من نحاس يقال له إساف ونائلة يتمسح به المشركون إذاطافوا ، فطاف رسول الله صلي الله عليه وسلم وطفت معه فلما مررت مسحت به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تمسه » قال زيد فطفنا فقلت فى نفسى لأمسنه حتى أنظر ما يكون فمسحته فقال رسول الله صلى الله

(١)رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، راجع مجمع الزوائد ٢٢٥/٨ .

عليه وسلم ألم تُنْه ؟ قال زيد فوالذى أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنما قط حتي أكرمه الله تعالى بالذى أكرمه وأنزل عليه » (١) .

هذا ما يتعلق بجانب عقيدته صلى الله عليه وسلم ، فلم يسجد لصنم ، ولم يتمسح ، وها هو ينهى رفيقه زيد بن حارثة فلما لم ينته زجره .

ولقد كان صلي الله عليه وسلم موفقا ملهما في كل أخلاقه ، فكما أنه لم يتبع أهل الجاهلية فى وثنيتهم ، فإنه أيضاً ابتعد عن كل ما كان فيهم من مسالب أخلاقية ، وتحلي بما كان وما لم يكن فيهم . وماذا بعد أن اعترف الجميع له بصفة الأمانة ؟ وماذا بعد أن تُعلل خديجة زوجته إكرام الله له ، وأن الله سيرفعه بأنه على خلق كريم ؟

جاء فى حديث السائب بن عبد الله - مولى مجاهد - فى بناء الكعبة ، «فقالوا اجعلوا بينكم حكما قالوا أول رجل يطلع من الفج فجاء النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا أتاكم الأمين (٢) » .

وفى حديث على بن أبى طالب فى بناء الكعبة أيضا قال لما رأو النبى صلى الله عليه وسلم قد دخل قالوا قد جاء الأمين (٣) .

وكان عارفوه يثقون جميعا من خبره صلى الله عليه وسلم وأنه صادق ، يثق بهذا كل عارفيه ولو كانوا كفارا .

---

(١) أخرجه البيهقى فى الدلائل ٢/ ٣٤ وذكره فى المجمع ٢٢٦/٨ مختصرا وعزاه للطبرانى ورجاله رجال الصحيح .

(٢) أخرجه أحمد والحاكم وصححه على شرط مسلم وأقره الذهبى وقال فى المجمع ٢٢٩/٨ ورجاله رجال الصحيح غير هلال بن خباب وهو ثقه .

(٣) أخرجه الحاكم في المناسك باب وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم الحجر الأسود مكانه ٤٥٨/١ . وذكره فى المجمع ٢٢٩/٨ وعزاه للطبرانى فى الأوسط ورجاله رجال الصحيح غير حفص بن عمر الضرير وخالد بن عرعرة وكلاهما ثقة .

يوضح لك ما أخرجه البخارى عن عبد الله بن مسعود- رضى الله عنه - قال : انطلق سعد بن معاذ معتمرا ، قال : فنزل على أمية بن خلف أبى صفوان ، وكان أمية إذا انطلق إلى الشام فمر بالمدينة نزل على سعد فقال أمية لسعد ، ألا انتظر حتي إذا انتصف النهار وغفل الناس انطلقت فطفت ، فبينا سعد يطوف إذا أبو جهل ، فقال : من هذا الذى يطوف بالكعبة ؟ فقال سعد : أنا سعد . فقال أبو جهل : أتطوف بالكعبة آمنا وقد آويتم محمدا وأصحابه ؟ فقال : نعم . فتلاحيا بينهما ، فقال أمية لسعد : لا ترفع صوتك على أبى الحكم ، فإنه سيد أهل الوادى ، ثم قال سعد : والله لئن منعتنى أن أطوف بالبيت لأقطعن متجرك بالشام، قال : فجعل أمية يقول لسعد : لا ترفع صوتك وجعل يمسكه ، فغضب سعد فقال : دعنا عنك فإنى سمعت محمدا صلى الله عليه وسلم يزعم أنه قاتلك . قال : إياى ؟ قال : نعم . قال : والله ما يكذب محمدٌ إذا حدث . فرجع إلي امرأته فقال : أما تعلمين ما قال لي أخى اليثربى ؟ قالت : وما قال ؟ قال : زعم أنه سمع محمدا يزعم أنه قاتلى . قالت : فوالله ما يكذب محمد . قال : فلما خرجوا إلى بدر وجاء الصريخ قالت له امرأته : أما ذكرت ما قال أخوك اليثربى ؟ قال : فأراد أن لا يخرج فقال له أبو جهل : إنك من أشراف الوادى ، فسر يوما أو يومين ، فسار معهم يومين فقتله الله [1] » .

وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ماهممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين ، كل ذلك

---

(١) أخرجه البخارى فى المناقب باب علامات النبوة فى الاسلام ٦/٦٢٩ رقم ٣٦٣٢ ، وفى المغازى باب ذكر النبى صلى الله عليه وسلم من يقتل ببدر ٧/٢٨٢ رقم ٣٩٥٠ وفى طريقة قتله راجع البخارى فى الوكالة باب إذا وكّل المسلم حربيا فى دار الحرب ٤/٤٨٠ رقم ٢٣٠١ وفيه أنه - أمية بن خلف - وصل بدراً واشترك فى الغزوة ورآه المسلمون فقتلوه شر قتلة ، وقتلوا ابنه عليا أيضاً .

يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بعدها بشيء حتى أكرمني الله برسالته [١] .

هذا الحديث قد روى من طرق ، وأخرجه عدد من الأئمة بروايات مختلفة في الطول ، ورواياته المطولة تفيد أنه صلى الله عليه وسلم في كلتا المرتين كان يذهب الي حفل عرس فيُلقي الله سبحانه وتعالى النوم عليه فينام حتى توقظه أشعة الشمس .

وهو يفيد أنه صلى الله عليه وسلم لم يفعل من جهالات قومه شيئا ، وأن الله سبحانه منعه ذلك ، وهذا واضح جليّ ، فإن أهل الشرك لم يحتجوا عليه بشيء من هذا بعد البعثة ، فلم يقل أحد إنك كنت تفعل معنا كذا - من جهالاتهم - أوكنت تفعل كذا ، كلا ، وإنما الذى حدث عكس ذلك ، فهم يعترفون بأنه لا يكذب وأنه الأمين .

وفى حديث عائشة - الذي في بدء الوحي - أنه صلى الله عليه وسلم قال لخديجة - وأخبرها الخبر - لقد خشيت على نفسى : فقالت خديجة كلا والله ما يخزيك الله أبداً ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلّ [٢] وتكسب المعدوم [٣] وتَقْرى الضيف [٤] ، وتعين على نوائب الحق [٥] . . . الحديث [٦] .

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الدلائل باب ذكر ما خصه الله عز وجل به من العصمة صـ ١٤٢ ، ١٤٣ ، والبيهقى فى الدلائل أيضا باب ما جاء فى حفظ الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ٣٣/٢ ، وأخرجه البزار فى كتاب علامات النبوة باب فى عصمته صلى الله عليه وسلم ١٢٩/٣ كشف الأستار . وذكره فى مجمع الزوائد ٢٢٦/٨ وعزاه للبزار ، وقال : ورجاله ثقات . وذكره فى الخصائص ٢١٩/١ وعزاه لابن راهويه فى مسنده وابن اسحاق ، والبزار والبيهقى وأبى نعيم وابن عساكر ، ثم قال : قال ابن حجر: إسناده حسن متصل ورجاله ثقات .

(٢)وتساعد العاجز .

(٣) أى تستطيع الحصول على الشيء المعدوم مما يدل على قوة ملكاته ، أو تعطى من ليس عنده .

(٤) وتكرم الضيف .

(٥) وتساعد من نزلت به مصيبة .

(٦) أخرجه البخارى فى أول صحيحه الحديث الثالث فى بدء الوحى حـ١ صـ٢٢ وأخرجه فى غير هذا الموضع

وفى حديث ابن عباس قال : لما نزلت « وأنذر عشيرتك الأقربين » نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قريش بطنا بطنا وفيه أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بِسَفْح هذا الجبل أكنتم مصدقىَّ ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذبا . وهذه رواية مسلم . ورواية البخارى قالوا : نعم ما جربنا عليك الاصدقا (١) .

وماذا بعد أن يقول له شريك له فى تجارة كانت بينهما قبل البعثة يقول له بعد البعثة :

« كنت شريكى فنعم الشريك ، كنت لا تدارى ، ولاتمارى (٢) » .

بل وماذا بعد ما أخرجه أبو داود عن عبد الله بن أبى الحَمْسَاء قال : بايعت النبى صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها فى مكانه فنسيت ، ثم ذكرت بعد ثلاث فجئت فإذا هو مكانه !! فقال : يا فتى لقد شققت علىَّ ، أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك (٣) »

إن المتتبع لكتب السنة يجد من كرم أخلاقه صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ما يزيده إيمانا ، ويجلى في نفسه عظمة النبى الخاتم ، الذى اصطفاه الله ورباه ، فكان المثل والقدوة . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

سؤالان وجوابهما :-

وإنى إذ أوكد ما جمّل الله به نبيه صلى الله عليه وسلم قبل البعثة من كريم الأخلاق فإنى أجد أنه يمكن للقارىء أن يسأل سؤالين :

---

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان باب فى قوله تعالى « وأنذر عشيرتك الأقربين ١/١٩٣ ، ١٩٤ ، وأخرجه البخارى فى التفسير باب « وأنذر عشيرتك الأقربين ٨/٥٠١ رقم ٤٧٧٠ ، وقول الله تعالى « وأنذر عشيرتك الأقربين » من سورة الشعراء الآية رقم ٢١٤ .

(٢) أخرجه أبو داود فى الأدب باب فى كراهية المراء ١٣ / ١٨١ رقم ٤٨١٥ عون المعبود .

(٣) أخرجه أبو داود فى الأدب باب فى العدة ١٣ / ٣٣٩ ، ٣٤٠ رقم ٤٩٧٥ .

الأول : ما القول فى آية الضحى « ووجدك ضالا فهدي » ؟

الثانى : قد أثبت القرآن أنه صلي الله عليه وسلم تبنى زيد بن حارثة ، وهذا أمر لا يتفق وشريعته بعد ذلك فلم فعله ؟

والجواب :- أن قول الله تعالى « ووجدك ضالا فهدى » معناه لم يكن لك علم بالشريعة الحقة ، التى أتتك وأرسلت بها ، فإن ذلك لا يتأتى إلا بالوحى . وعلى هذا فلا تعارض بين الآية وبين ما تقدم ، فما تقدم يفيد أنه صلى الله عليه وسلم لم يجار أهل الجاهلية فى جهالتهم ، والآية تفيد أنه لم يتوصل إلى الشريعة ، فلا تعارض ، فإنه لم يفعل الجهل ، أما معرفة الاسلام فكان بالرسالة التى مَنّ الله بها سبحانه وتعالى ، فما أشبه فترة ما قبل الرسالة بالتخلية فكان خاليا من العيوب ، وما أشبه الرسالة بالتحلية فجاءت فجملت وكملت ، كما قال صلى الله عليه وسلم « إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق [1] » .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى قوله « ووجدك ضالا فهدى » قال : وجدك بين ضالين فاستنقذك من ضلالتهم [2] .

أما جواب السؤال الثانى :-

فإن الله سبحانه أراد به ذلك لحكمة ، فتبنى زيداً ، وزوّجه زينب ، كل ذلك ليتزوج صلي الله عليه وسلم بعد ذلك بزينب فيكون قدوة فى زواج زوجة الابن بالتبنى ، وقد بيّن ذلك سبحانه وتعالى بقوله « فلما قضى زيدٌ منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون علي المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا

(١) أخرجه مالك بلاغا فى حسن الخلق باب ما جاء فى حسن الخلق ٩٠٤/٢ رقم ٨ وأحمد ٣٨١/٢ ولفظه عند مالك « بعث لأتمم حسن الأخلاق وقال ابن عبد البر : هو حديث مدنى صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبى هريرة وغيره ، ولفظه عند أحمد عن أبى هيريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق » . وهكذا أخرجه الخرائطى فى أول مكارم الأخلاق صـ ٢ ، وراجع المقاصد الحسنة صـ ١٠٥ رقم ٢٠٤ .

(٢) أخرجه ابن مردويه . كذا فى الدر ٣٦٢/٦ .

وكان أمر الله مفعولا » فإنه صلى الله عليه وسلم تزوجها ليكون قدوة للمسلمين ولئلا يجدوا حرجا فى الزواج بأزواج أبنائهم الأدعياد ، إذا تصادف وطلقها الابن . وما كان يمكن هذا إلا بالتبنى ، فحدث التبنى قبل التحريم ، ثم حرم ثم طلق زيدٌ فتزوج رسول الله بزوجة ابنه بالتنبى ، كل ذلك ليشرِّع ، وكم من أمر حدث الغرض منه التشريع .

وقد يقول قائل كان يمكن علاج ذلك بالقول لا بالفعل . والجواب : أنه لا يتساوي الفعل مع القول ، فلربما احتاج الموقف الى الفعل ، ولم يكف فيه القول ، ومن ذلك ما حدث في صلح الحديبية وهذا لفظ البخارى فيه : فلما فرغ من قضية الكتاب [1] قال رسول الله صلي الله عليه وسلم لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا . قال : فوالله ما قام منهم رجل ، حتي قال ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقى من الناس ، فقالت أم سلمة : يا نبى الله أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لاتُكَلِّم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بُدْنك [2] وتدعوا حالقك فيحلقك فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتي فعل ذلك ، نحر بُدْنَه ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضا ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غماً [3].

فانظر كيف لم يكف القول مع تكراره ، وحينما فعل صلى الله عليه وسلم أسرعوا إلى الامتثال فكذلك ما هنا ، أراد الله سبحانه أن يفعل صلى الله عليه وسلم ليفعلوا .

---

(١) الكتاب الذي بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين مشركى مكة .

(٢) أى إبلك وهى الجمال جمع جمل ، وكان صلى الله عليه وسلم ساق معه عددا من الجمال لنبحها فى عمرته هذه .

(٣) أخرجه البخارى فى الشروط باب الشروط فى الجهاد ٥/٣٢٩ ، ٣٣٣ ضمن حديث طويل ، وما ذكرته هنا فيه صـ ٣٣٢ .

الدروس المستفادة :-

ويستفاد مما أكرم الله به نبيه صلى الله عليه وسلم من عقيدة سليمة وخلق كريم قبل بعثته الدروس الآتية :-

* عناية الله برسوله صلى الله عليه وسلم حتى برأه من عيوب بيئته الخلقية والعقدية . وجمله بما يليق به كرسول .
* كل مسلم داع إلى الله ، وهذا يستلزم أن يجتهد فى بلوغ الكمال في نفسه وأولاده ، فهذا هو اللائق بالدعاة .
* أصحاب الإدراك السليم والفكر المستقيم يقدرون الأخلاق الكريمة ، ويعرفون لصاحبها حقه .

ثانياً : الأحداث البارزة

١- حرب الفجَار

الفجار : بسكر الفاء على وزن قتال ، مصدر فاجر ، إذ مصدر فاعل فعال أو مفاعلة ، والفجار : تبادل الفجور ، وذلك أن المتقاتلين أقدما على القتال في الشهر الحرام ، واستحلا المحارم بينهم ، والمتقاتلان هما .

أ - كنانة ومعها قريش .

ب - قيس عَيْلأن .

وكان القتال بينهما على إثر حماية أعطاها رجل من قيس - اسمه عروة الرحّال - للنعمان بن المنذر وتجارته ، فقال رجل من كنانة - هو البراض بن قيس - أتجيرها على كنانة ؟ فقال الرجل القيسيّ : نعم ، وعلي الخلق كله ، فغضب البراض بن قيس - الكناني - وسارحتى غافل عروة وقتله ، فأتى آت قريشا وأخبرهم أن البراض قد قتل عروة ، وهو فى الشهر الحرام - رجب - بعكاظ فارتحلوا ، وقيس لا تشعر بهم ، ثم بلغهم الخبر فاتبعوهم فأدركوهم قبل أن يدخلوا

الحرم فقامت الحرب بين الطرفين [1] كنانة وقريش من ناحية ، وقيس من ناحية . واستمرت الحرب أربعة أيام ، شهد صلى الله عليه وسلم ثالث هذه الأيام ، أخرجه أعمامه ، وكان يناولهم النبل ليرموا .

أخرج ابن سعد عنه صلى الله عليه وسلم وذكر الفجار فقال : « قد حضرته مع عمومتي ، ورميت فيه بأسهم ، وما أحب أنى لم أكن فعلت » .

وأنهكت الحرب الطرفين فتواعدا من العام القادم ، وجاءا فتقدم عتبه بن ربيعة باقتراح للصلح قبله الطرفان [2] ووضعت الحرب أوزارها .

وكانت هذه الحرب بعد الفيل بعشرين سنة ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حضرها ابن عشرين سنة [3] .

دلالة هذا الحادث :-

وشهوده صلى الله عليه وسلم حرب الفجار هذه يمكننى أن أستفيد منه مايلى :

١- لم يشترك صلى الله عليه وسلم اشتراك الحريص ، فلم يشترك فى اليوم الأول والثانى ، لعدم موافقته على هذه الحرب التى قامت على ظلم ، وهى حرب فاجرة لتوقيتها .

٢- لم يكن صلى الله عليه وسلم حريصا على القتل والعداء ، فلم يرم بما يقتل ، وانما كما قال « كنت أنبِّلُ على أعمامى [4] » أى يناولهم النبل ليرموا ، أما هو فلم يرم .

٣- لم يخرج صلى الله عليه وسلم إلى هذه الحرب من تلقاء نفسه ، وحرصه على

---

(١) اللى عند ابن سعد أنهم أدركوهم وقد دخلوا الحرم فتواعدوا الحرب فى مثل أيامهم هذه من العام القابل ومكثوا عاما يستعدون لهذه الحرب .

(٢) راجع تفصيل لك فى عيون الأثر صـ ٤٦ وسبل الهدى والرشاد صــ ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(٣) ابن سعد جـ ١ صــ ١٢٨ .

(٤) راجع النهاية ٥/١٠ مادة « نبل » وفيه والنَّبْلُ : السهام العربية ولا واحد لها من لفظها فلا يقال : نبلة وإنما يقال : سهم ، ونُشَّابة .

الاشتراك وإنما أخرجه أعمامه ، فخرج من باب الطاعة والحرص على الأرحام .

٤- في مواقفه صلى الله عليه وسلم هذه بيان لما كان عليه من خلق ، فلم يشترك فى حرب ظالمة ، وأطاع أعمامه فساعدهم دون أن يتعدى ذلك .

٥- فى مواقفه صلى الله عليه وسلم هذه بيان لسلامة فطرته ، وأنه استطاع معرفة الحق ، وبنى موقفه على ذلك .

٢- حلف الفضول :

عن عبد الرحمن بن عوف عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « شهدت حلف المطيِّبِين مع عمومتى وأنا غلام ، فما أحب أن لى حُمْر النَّعم وأني أنكثه [١] »

والمراد حلف الفضول ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يحضر حلف المطيِّبين ، والذى كان بين بنى عبد الدار وبنى عبد مناف ، وسببه أن عبد الدار وعبد مناف ولدا قصى بن كلاب ، فلما أوصى ، قصىٌ لعبد الدار بالسقاية والرفادة واللواء والندوة والحجابة !! نازع بنو عبد مناف بنى عبد الدار ، وانضم لهؤلاء جمع ولأولئك جمع، فأحضر أصحاب بنى عبد مناف جفنة فيها طيب ، فوضعوا أيديهم فيها وتحالفوا ، فلما قاموا مسحوا أيديهم بأركان البيت فسمُّوا المطيِّبين .

أما حلف الفضول هذا - والذي حضره صلى الله عليه وسلم فكان فى نفس العام الذى كان فيه حرب الفجار - وكان سنُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين سنة - فى شهر ذى القعدة وسببه أن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل ، فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الزبيدى الأحلاف فلم يعينوه ، بل وانتهروه ، فأوفي الزبيدى علي جبل أبى قبيس عند طلوع الشمس ، وقريش فى أنديتهم حول الكعبة ، ونادى بأعلى صوته .

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ١٩٠ وأخرجه بنحوه أيضا ١ / ١٩٣ .

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائى الدار والنفر .
ومحرم أشعث لم يقض عمرته ... يا للرجال وبين الحِجْر والحجر .
إن الحرام لمن تمت كرامته ... ولا حرام لثوب الفاجر الغدر .

وسمعه الزبير عبد المطلب - عم رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال : ما لهذا مترك فاجتمعت بنوهاشم ، وبنو المطلب وبنو أسد بن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة ، فى دار عبد الله بن جدعان ، لسنّه وشرفه ، وتعاقدوا وتعاهدوا ليكونن يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه ، ما بلّ بحر صوفة ، ومارسا ثبير وحراء مكانهما [1] ، وعلى التآسى فى المعاش .

ومشى هؤلاء إلى العاص فانتزعوا منه سلعة الزبيدى فدفعوها إليه .

وسر هذه التسمية - حلف الفضول :-

- أن قريشاً قالوا : لقد دخل هؤلاء فى فضل من الأمر ، وسمته حلف الفضول .

- وقيل سُمِّىَ بذلك لأنه أشبه حلفا تحالفته جرهم علي مثل هذا من نصر المظلوم على ظالمه ، وكان الداعى إليه ثلاثة من أشرافهم ، كل منهم اسمه فضل [2] .

- وقيل سُمِّىَ بذلك لأن الفضول هى الحقوق ، وقد تحالفوا على ردّها ، وهذا القول يؤيده حديث « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا لو دعيت به فى الإسلام لأجبت ، تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها ، ولا يعز ظالم على مظلوم [3] » .

وظل هذا الحلف بيّن الأثر معمولا به ردحاً من الزمان ، فكم اعتُدى على شخص فاستغاث بأهل حلف الفضول فأجابه المتحالفون أو مَنْ تناسل منهم [4] ، حتى فى

---

(١) أى ماوجد فى بحر مايبل الصوفة ، وما استقرت الجبال ، والمراد إلى الأبد .

(٢) هم الفضل بن فضالة ، والفضل بن وداعة ، والفضل بن الحارث ، وكذا قال ابن قتيبة وقيل هم الفضل بن شراعة ، والفضل بن بضاعة ، والفضل بن قضاعة .

(٣) سبل الهدى والرشاد ٢٠٩/٢ .

(٤) راجع مزيدا فى ذلك عند ابن كثير فى البداية والنهاية ٣١٦/٢ .

خلاف حدث بين الحسين بن على - رضى الله عنهما - وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أمير المدينة لعمه معاوية قال الحسين للوليد : أحلف بالله لتنصفنى من حقى ، أو لآخذن سيفى ثم لأقومن فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لأدعون بحلف الفضول ، وعندما علم أهل حلف الفضول بذلك تحركوا مما جعل الوليد يذعن وينصف الحسين (١) .

وهذا الحلف أشرف وأكرم حلف سمع به فى العرب ، وماذا بعد ثنائه صلي الله عليه وسلم عليه بقوله « ما أحب أن لى بحلف حضرته بدار ابن جدعان حمر النعم وأنى أغدر به ، هاشم وزهرة وتيم ، تحالفوا أن يكونوا مع المظلوم مابلّ بحرصوفة ، ولو دعيت به لأجبت وهو حلف الفضول (٢) » فأعلا قدره بأنه لا يقدر بمال ، وأنه لو دعى إليه بعد الإسلام لأجاب .

الدروس المستفادة :-

ومن هذا الحدث تستفاد الدروس الآتية :-

١- أن أهله صلي الله عليه وسلم كانوا من أهل الخير والدعاة إليه ، فالداعى لهذا الحلف عمه ، وبنو المطلب وبنوهاشم من أوائل المؤسسين له .

٢- كان آله صلى الله عليه وسلم أهل ثقة العرب فى عالم الخير والعدل ، فما أن دعا عمه صلى الله عليه وسلم إلى هذا الخير إلا استجاب له الكثيرون ، مما يدل على ثقته فى نفسه فى هذا الباب وثقة الناس فيه وفى آله .

٣- ماجبل عليه صلي الله عليه وسلم من خير، فلقد كان من المؤسسين لهذا الحلف

٤- كان فى العرب خير ، فالخير فى العامة ، والشر فى أفراد ، بيد أن الخير كان يحتاج إلى من يحركه ، وقد كانت حركته بيد آل نبينا المصطفى صلى الله عليه وسلم .

---

(١) المصدر السابق ٣١٧/٢ .

(٢) أخرجه ابن سعد ١٢٩/١ .

٣- زواجه صلى الله عليه وسلم .

بأم المؤمنين خديجة .

كانت علاقة رسول الله صلي الله عليه وسلم بخديجة بنت خويلد فى أول الأمر علاقة التاجر بصاحب المال . فلقد بلغ خديجة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغها من صفاته الحميدة وأخلاقه الكريمة ، فأرسلت إليه فعرضت عليه أن يخرج فى مالها تاجراً إلى الشام ، وتعطيه أفضل ما تعطى غيره من التجار ، فقبل صلى الله عليه وسلم ذلك ، وخرج فى التجارة ، ومعه مسيره غلام خديجة .

وبعد رحلة طويلة فيها ترحال وحل ، وبيع شراء ، عاد مسيرة إلى خديجة ليحدثها بما رأى من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعاد الرسول صلى الله عليه وسلم وقد ربحت التجارة ضعف ما ربحه الآخرون، أو قريبا من الضعف ، فأضعفت له خديجة ما اتفق عليه من الأجر وكان أربع بكرات .

وتحدث مسيرة مع سيدته عما رآه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تحدث عن مدى خلقه الكريم ، ومهارته الفذة ، وتحدث عن إكرام الله له حتى وصل إلى إظلاله فى الحر .

وأصبح لدى خديجة كثير من المصادر التى تبين كريم خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإكرام الله له ، وكانت تسمع من أهل الكتاب عن مبعث نبى قد أظل الناس زمانه ، وتسمع عن بعض صفاته وأخلاقه ، مما حدا بها أن تتوقع أن يكون محمد هو هذا الرسول المنتظر ، فماذا تفعل ؟ لتسأل أهل العلم ، حبذا لو كان هذا من أهلها ، وفى أهلها من هو كفء لذلك ، فإن ابن عمها ورقة ابن نوفل نصرانى قد تتبع الكتب ، وعلم من علم الناس ، وكما جاء فى وصفه فى حديث البخارى : وكان امرءاً تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبْرَانِىّ ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب . . . الحديث [1] فذهبت إليه

فذكرت له ما عندها عن رسول الله صلي الله عليه وسلم وذكرت له ما أخبرها به مسيرة ، من أنه كان محميا من الشمس عند شتداد الحر ، مباركا فى تصرفاته إلى آخر ما عندها فقال ورقة لئن كان هذا حقا يا خديجة إن محمداً لنبيُّ هذه الأمة ، قد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبى ينتظر ، هذا زمانه .

وازداد يقين خديجة بمكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مما جعلها تحترمه احتراما منقطع النظير وتعامله على أحسن ما يكون ، وهى الطاهرة الزكية ، التي تستطيع أن تؤدي الخلق على خير ما يكون .

من ذلك ما أخرجه الفاكهى عن أنس «أن النبى صلي الله عليه وسلم كان عند أبى طالب فاستأذنه أن يتوجه إلى خديجة فأذن له ، وبعث بعده جارية يقال لها نبعة ، فقال انظرى ما تقول له خديجة ، قالت نبعة : فرأيت عجبا ، ما هو إلا أن سمعت به خديجة فخرجت إلى الباب ، فأخذت بيده فضمتها إلي صدرها ونحرها ، ثم قالت بأبى وأمى ، والله ما أفعل هذا الشىء ، ولكنى أرجو أن تكون أنت النبى الذى سيبعث ، فإن تكن هو فاعرف حقى ومنزلتى ، وادع الإله الذى يبعثك؟ . قالت فقال لها : والله لئن كنت أنا هو فقد اصطنعتِ عندي مالا أضيعه أبداً ، وإن يكن غيرى فإن الإله الذى تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبداً (٢) » .

وظاهر من هذا الحديث مدى حرص خديجة على ارتباطها بنبى آخر الزمان ، كى تحظى برضوان الله سبحانه وظاهر منه أيضا مدى صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديثه قبل البعثه حيث افترض الأمرين ، أن يكون هو النبى ، وأن يكون غيره ، وهذا فى تمام الصدق وكمال المروءة صلى الله عليه وسلم وعلي آله وأصحابه أجمعين .

---

(١) أخرجه البخارى فى بدء الوحى فى أول صحيحه الحديث الثالث ٢٢/١ فتح البارى .
(٢) أخرجه الفاكهى فى كتاب مكة كذا فى فتح البارى ١٣٤/٧ .

وهذا تعريف بخديجة ، وما كان من أمر زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم بها ، وذكر شيء من فضائلها هي :

خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزي بن قصى . تجتمع مع النبى صلى الله عليه وسلم فى قصى ، وهى من أقرب نسائه إليه فى النسب ، ولم يتزوج من ذرية قصى غيرها إلا أم حبيبة .

أبوها خويلد الذى نازع تبعا حين أراد أن يأخذ الحجر الأسود إلى اليمن ، فقام فى ذلك خويلد ، وقام معه جماعة من قريش ، ثم رأى تبّع فى منامه ما روّعه فنزع عن ذلك وترك الحجر الأسود مكانه (١) .

وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وكانت هى أيضا بنت خمس وعشرين ، وهذا أصح الأقوال في عمرها عند الزواج ، وعاشت رضوان الله عليها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعا وعشرين سنة وأربعة أشهر ، ومَنْ جبر الكسر قال : عاشت معه خمسة وعشرين عاما .

وكانت أم المؤمنين خديجة تدعى الطاهرة ، فلقد كانت شريفة لبيبة حازمة ، كما كانت ذا شرف ومال .

كان كل قومها يتمنى زواجها لو يقدر عليه ، لكنها كانت ترفض ، وكانت قد تزوجت قبله صلى الله عليه وسلم رجلين ، تزوجت أولا عتيق بن عائذ المخزومى ، ثم تزوجت أباهالة ابن النباش بن زرارة حليف بنى عبد الدار غلبت عليه هذه الكنية « أبو هالة » أما اسمه فمختلف فيه ، فقيل مالك ، وقيل زرارة ، وقيل هند ، وقيل النباش . فلما علمت عن رسول الله ما علمت ، وسمعت من ورقة ما سمعت ، أصرت علي أن ترتبط برسول الله صلى الله عليه وسلم أوثق رباط ممكن، فسعت فى أن يكون زوجها صلى الله عليه وسلم .

---

(١) البداية ٢/ ٣٢٠ .

أخرج ابن سعد عن نفيسة بنت منية قالت : كانت خديجة بنت خويلد بن أسد ابن عبد العزى ابن قصى امرأة حازمة ، جلدة ، شريفة ، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير ، وهى يومئذ أوسط قريش نسبا ، وأعظمهم شرفا ، ، وأكثرهم مالا ، وكلّ قومها كان حريصا على نكاحها لو قدر على ذلك ، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال ، فأرسلتني دسيساً [1] إلى محمد بعد أن رجع فى عبرها من الشام، فقلت : يا محمد ما يمنعك أن تزوج ؟ فقال : ما بيدى ما أتزوج به . قلت : فإن كفيت ذلك ، ودعيت إلى الجمال والمال ، والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟ قال : فمن هى ؟ قلت : خديجة ، قال : وكيف لى بذلك ؟ قالت . قلت : علىّ ، قال : فأنا أفعل ، فذهبت فأخبرتها ، فأرسلت إليه أن ائت لساعة كذا وكذا ، وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها ، فحضر ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عمومته ، فزوجه أحدهم ، فقال عمرو بن أسد : هذا البُضْع لا يقرع [2] أنفه [3] .

والصحيح - كما فى الرواية السابقة - أن الذى زوجها عمها ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء معه أعمامه ، وأن أبا طالب خطب فقال : الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم و زرع إسماعيل ، وضنضىء [4] معدّ ، وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته ، وسوّاس حرمه ، وجعل لنا بيتا محجوجا ، وحرماً آمنا ، وجعلنا حكام الناس ، ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لايوزن به رجل إلا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا ، وإن كان في المال قِلاً فإن المال ظل زائل وأمر حائل وعارية مسترجعة وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل ، وقد خطب إليكم رغبة فى كريمتكم خديجة ، وقد بذل لها من الصداق حكمكم عاجله وآجله

---

(١) خفية .

(٢) لا يقرع وروى « لا يقدع » بالراء والدال ومعنى « لا يقدع أولا يقرع أنفه » أنه كفء كريم لا يرد .

(٣) الطبقات ١/ ١٣١ ، ١٣٢ .

(٤) معدن .

اثنتا عشرة أوقية ونشاً [١]. فقال عمرو ابن أسد عمها : هو الفحل لا يقدع أنفه ، وأنكحها منه [٢] .

وأنجب صلى الله عليه وسلم كل أولادها - عدا ابراهيم عليه السلام - منها ، أما ابراهيم فمن مارية بنت شمعون القبطية (المصرية) التى أهداها إليه صلى الله عليه وسلم صاحب الإسكندرية المقوقس [٣] .

فعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : ولدت خديجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم غلامين وأربع نسوة : القاسم ، وعبد الله ، وفاطمة ، وأم كلثوم ، وزينب ، ورقية [٤] .

ولقد مات ولداه صلى الله عليه وسلم قبل النبوة ، أما بناته فأدركن البعثة ، وأسلمن ، وهاجرن معه صلى الله عليه وسلم [٥] .

هذا فيما بدالى ، وعند الطبرانى ما يخالفه إلا أنه مقطوع فعنده عن الزبير بن بكار قال : ولد للنبى صلي الله عليه وسلم القاسم وهو أكبر ولده ، ثم زينب ، ثم عبد الله - وكان يقال له الطيب ويقال له الطاهر ، ولد بعد النبوه ومات صغيراً - ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة، ثم رقية ، هكذا الأول فالأول . مات القاسم بمكة ثم عبد الله [٦] .

من فضائل خديجة :-

وسأذكر هنا شيئا من هذا ، أما تكملته فعند الكلام على وفاتها رضي الله عنها .

---

(١) النشُ : نصف أوقية ، والأوقية أربعون درهما ، فيكون الصداق خمسمائة درهم .
(٢) ذكره فى سبل الهدى والرشاد ٢٢٤/٢ عن أبى الحسين بن فارس وغيره .
(٣) البداية ٣١٩/٢ .
(٤) ذكره ابن كثير فى البداية ٣١٩/٢ .
(٥) اقرأ عن أولاده صلي الله عليه وسلم فى البداية ٣٤٤/٥ .
(٦) رواه الطبرانى ورجاله ثقات كذا في مجمع الزوائد ٢١٧/٩ ، وهو حديث مقطوع من كلام الزبير بكار المتوفى سنة ست وخمسين ومائتين عن أربع وثمانين سنة ، عده الذهبى فى تذكرته في الطبقة الثامنة وأخرج عنه حديثا بينه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم خمسة رواة ، راجع تهذيب التهذيب ٣١٢/٣ وتذكره الحفاظ ٥٢٨/٢ رقم ٥٤٦ .

كانت رضى الله عنها زوجة قيم ومبادىء ، وقرينة جود وعمل ، رأيها ناضج ، وفكرها ثاقب . وكفى فى ذلك ما أخرجه أحمد عن عائشة قالت : كان النبى صلي الله عليه وسلم إذا ذكر خديجة أثنى عليها فأحسن الثناء . قالت فغرت يوما فقلت : ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدق ، قد أبدلك الله عز وجل بها خيرا منها ، قال : ما أبدلنى الله عز وجل خيراً منها ، قد آمنت بى إذ كفر بى الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النساء [1] » .

وعند مسلم فى آخر هذا الحديث ، قالت عائشة : فأغضبته يوما فقلت خديجة عجوز فقال إنى رزقت حبها .

وهذا الحديث قد اشتمل على عدد من فضائل خديجة ، فهي أول من آمن به على الاطلاق ، وصدقته حين كذبه الناس ، ولم يفت فى عضدها تكذيب عتاة مكة وإنما كانت مصدقة مؤيدة ، مؤازرة مناصرة ، وبذلت ما لها فى طوعه صلى الله عليه وسلم ، ولم تبخل بمالها عليه ، وأنجب منها الذرية ، سوى ابراهيم فمن جاريته مارية ، فى السنة الثامنة من الهجرة .

ومع حديث عائشة هذا حديث آخر أخرجة البخارى عنها أيضا قالت : أول ما بدىء به رسول الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبِّب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد ، قبل أن ينزع الى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلي خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ قال : ما أنا بقارىء . قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ

---

(١) أخرجه أحمد ١١٧/٦ ، ١١٨ قال فى المجمع ٢٢٤/٩ وإسناده حسن ، وأصل الحديث فى البخارى ومسلم وإنما سقت رواية أحمد لكثرة فوائدها .

منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * » فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها - فقال : زمّلونى زمّلونى . فزملوه حتى ذهب عنه الرّوْع ، فقال لخديجة -وأخبرها الخبر - : لقد خشيت على نفسى . فقالت خديجة كلا ، والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى - ابن عم خديجة - وكان امرءا تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمى ، فقالت له خديجة : يا ابن عمّ اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة : يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى . فقال له ورقة ؟ هذا الناموس الذى نزل الله على موسى ، ياليتنى فيها جذعا ، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مخرجىّ هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجلٌ قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزراً . ثم لم ينشب ورقة أن توفى ، وفتر الوحى [1] .

ومن هذين الحديثين الصحيحين يتضح أن خديجة رضي الله عنها كانت لها الفضائل الآتية :-

* بذلت مالها لرسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ منه ما شاء حتى أصبح غير مشغول بطلب القوت أو أمور المعيشة ، مما هيأ له الخلوة .

---

(١) أخرجه البخارى فى بدء الوحى ، الحديث الثالث من الصحيح ١/٢٢ وأخرجه فى غير هذا الموضع .

* هيأت له المناخ المناسب للخلوة وبُعد الفكر ، فلقد كان صاحب بيت كله استقرار وطمأنينة ، بعيداً كل البعد عن الخلافات الزوجية ، ومشاحنات بعض الزوجات ، فقلد كانت خديجة - رضى الله عنها - زوجة استقرار وهدوء ، وأمان كبار ، ووقار .

* لم تطالبه بحقوقها والقرب منها ، وإنما آثرت ما يجب على ما تحب ، بل كان ما تحب هو ما يحب .

* عندما جاء الوحى وقفت بجانبه تهدىء من روعه ، وتبين له أنه صاحب خلق لا يضيع من كان عليها .

* بحثت عما أتاه حتى تبين لها أنه وحى من الله إليه ، فسألت أهل الدراية والمعرفة ، ومنهم ورقة ابن نوفل حتى اطمأنت إلى أنه وحى الله .

ولقد اتضح لها من سؤالها أهل الدراية أن الملك لا يظهر إذا كان فى البيت من لم يتستر ففعلت ذلك حتى اطمأنت أنه وحى من عند الله سبحانه .

أخرج البيهقى بإسناده عن ابن اسحاق قال : حدثنى اسماعيل بن أبي حكيم - مولى أبى الزبير - أنه حدثه عن خديجة بنت خويلد أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بينه ، مما أكرمه الله به من نبوته : يا ابن عم تستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك ؟ فقال نعم ! فقالت : إذا جاءك فأخبرنى . فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم عندها إذ جاء جبريل ، فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا خديجة ؟ هذا جبريل . فقالت : أتراه الآن ؟ قال : نعم .قالت : فاجلس إلى شقى الأيمن ، فتحول فجلس ، فقالت أتراه الآن ؟ قال : نعم . قالت : فتحول فاجلس في حجرى ، فتحول فجلس في حجرها ، فقالت : هل تراه الآن ؟ قال : نعم . فتحسرت رأسها ، فشالت خمارها ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى حجرها فقالت : هل تراه الآن ؟ قال : لا

قالت: ما هذا بشيطان ، إن هذا لملك يا ابن عم ، فاثبت وأبشر ، ثم آمنت به ، وشهدت أن ما جاء به هو الحق .

قال ابن اسحاق : فحدثت عبد الله بن حسن هذا الحديث ، فقال ! قد سمعت أمي فاطمة بنت الحسين تحدث بهذا الحديث عن خديجة ، إلا أني سمعتها تقول : أدخلت رسول الله صلى الله عليه وسلم بينها وبين درعها ، فذهب عند ذلك جبريل عليه السلام . قال البيهقي : وهذا شيء من خديجة تصنعه تستثبت به الأمر احتياطا لدينها ، وتصديقا ، فأما النبي صلى الله عليه وسلم فقد كان وثق بما قال له جبريل وأراه من الآيات التي ذكرناها مره بعد أخري ، وما كان من تسليم الشجر والحجر عليه صلي الله عليه وسلم [1] .

* بعد أن ثبت لها أنه وحي الله لم تتردد ، وإنما كانت أول من آمن به صلى الله عليه وسلم ، وانخرطت في عداد المؤمنين ، تجود بكل ما تملك في سبيل الله ، وتتحمل ما تتحمل وهي راضية رجاء رحمة الله ، فرضي الله عنها وأرضاها .

وإذا كانت هذه فضائل خديجة في إسعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتلك مواقفها في خدمة الدعوة ، فإن الله الكريم جزاها على ذلك أحسن الجزاء ، وأجزل لها المثوبة . وأعلى لها الدرجة ، فجاء جبريل يقرئها السلام من ربها ، ويقرئها السلام منه ، ويبشرها ببيت في الجنة ، فلتهنأ فإن الأمل الذي كثيراً ما تمنته ، والذي تزوجت رسول الله من أجله ها هو يتحقق ، وتتحقق لها البشارة به في الدنيا ، وإذا كانت قد أسعدت رسول الله بمالها فلتسعد ببيت في الجنة ، وإذا كانت وفرت له الهدوء فلتفز ببيت في الجنة لاصخب فيه ولا نصب « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان [2] »

---

(١) ذكره ابن كثير في البداية ٣/١٧ ، ١٨ .
(٢) سورة الرحمن آية ٦٠ .

أخرج البخارى عن أبى هريرة - رضى الله عنه قال : «أتى جبريل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام - أوطعام أو شراب [١] - فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني ، وبشّرها ببيت في الجنة من قصب [٢] ، لا صخب فيه ولا نصب [٣] »

وفي رواية الطبرانى زيادة فقالت :« هو السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام »

وفى رواية لهذا الحديث عن أنس - عند النسائى - قال : « قال جبريل للنبى صلي الله عليه وسلم إن الله يقرىء خديجة السلام - يعنى فأخبرها - فقالت : إن الله هو السلام وعلى جبريل السلام ، وعليك يا رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته »

زاد ابن السنى من وجه آخر « وعلى من سمع السلام إلا الشيطان [٤] »

قال العلماء : فى هذه القصة دليل على وفور فقهها لأنها لم تقل « وعليه السلام » كما وقع لبعض الصحابة حيث كانوا يقولون فى التشهد « السلام على الله » فنهاهم النبى صلى الله عليه وسلم وقال : « إن الله هو السلام ، فقولوا التحيات لله » فعرفت خديجة لصحة فهمها أن الله لا يرد عليه السلام كما يرد على المخلوقين لأن السلام اسم من أسماء الله ، وهو أيضا دعاء بالسلامة ، وكلاهما لا يصلح أن يرد به على الله ، فكأنها قالت : كيف أقول عليه السلام ،

---

(١) شك أحد الرواة أى الكلمات الثلاث سمع .

(٢) جاء فى رواية أخرى « يعنى قصب اللؤلؤ » وعند الطبرانى في الأوسط أن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : قلت يا رسول الله أين أمى خديجة ؟ قال : فى بيت من قصب . قلت : أمن هذا القصب ؟ قال : لا ، من القصب المنظوم بالدر واللؤلؤ والياقوت / راجع الفتح ٧ / ١٣٨ .

(٣) أخرجه البخارى فى مناقب الأنصار باب تزويج النبى صلي الله عليه وسلم خديجة وفضلها ١٣٣/٧ ، ١٣٤ رقم ٣٨٢٠ .

(٤) الفتح ١٣٩/٧ .

والسلام اسمه ، ومنه يطلب ، ومنه يحصل ؟ فيستفاد منه أنه لا يليق بالله إلا الثناء عليه ، فجعلت مكان رد السلام عليه الثناء عليه ، ثم غايرت بين ما يليق بالله وما يليق بغيره فقالت : وعلى جبريل السلام . ثم قالت : وعليك السلام ، ويستفاد منه رد السلام علي من أرسل السلام ، وعلى من بلغه ، والذى يظهر أن جبريل كان حاضراً عند جوابها فردت عليه وعلى النبى صلى الله عليه وسلم مرتين، مرة بالتخصيص ومرة بالتعميم ، ثم أخرجت الشيطان ممن سمع ثلاثة لأنه لا يستحق الدعاء بذلك . قيل : إنما بلغها جبريل عليه السلام السلام من ربها بواسطة النبى صلى الله عليه وسلم احتراماً للنبى صلى الله عليه وسلم [1] ١ هـ

الدروس المستفادة :

ويؤخذ من هذا الموضوع - زواجه صلى الله عليه وسلم بأم المؤمنين خديجة - الدروس الآتية :-

١- علو همته صلى الله عليه وسلم إذ لم يسارع بالموافقة ، وإنما تريث حتى علم من يثق فى خلقها وشرفها ، وهكذا يجب أن يكون كل عاقل .

٢- لم تكن همته صلى الله عليه وسلم مطلق زوجة وإنما العقل والخلق .

٣- علو همة خديجة إذ أنها خطبته لما رأت ما عليه من خلق وعقل ، وما توسمته له من نبوة تمنت أن تحظى بالقرب منها .

٤- أن الزوجة الصالحة نعم العون على الحياة ، ونعم العون على المهام الجسام .

٥- حسن خلقه صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ، ولقد كان بعد البعثة على أكرم ما يكون ومن ذلك محافظته على أهل ود خديجة بعد موتها .

٦- ثقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في تفكير ورأى خديجة .

٧- لقد هيأت خديجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما يتفق مع ما سيكلف به.

---

(١) من الفتح ٧/ ١٣٩ .

٨- كان زواجه صلى الله عليه وسلم بخديجة من رعاية الله له ، فلقد كانت نعم الزوج .

٩- إكرام الله لرسوله صلى الله عليه وسلم إذ أكرم خديجة لمواقفها الطيبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

١٠- كان العرب يحترمون الأخلاق ، ويؤمنون برضى الخالق عنها وعن صاحبها .

٤- بناء الكعبة :

الكعبة هى أول بيت وضع للناس ليتعبدوا فيه وعنده ، ويتوجهوا إليه حيثما كانوا ، لم يسبقها بيت فى ذلك ، فلم يكن قبلها بيت فى الأرض بنى للتعبد خاصة .

قال الله سبحانه وتعالى « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم . . . . الآية [١] »

روى عن على بن أبى طالب فى تفسير هذه الآية قال : كانت البيوت قبله ، ولكنه أول بيت وضع لعبادة الله [٢] » .

ويرأى الامام على أخذ ابن كثير فقال فى تفسيره : يخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس ، أى لعموم الناس لعبادتهم ونسكهم يطوفون به ، ويصلون إليه ويعتكفون عنده « للذى ببكة » يعنى الكعبة التى بناها الخليل عليه السلام اهـ وقول الإمام على وقول الحافظ ابن كثير يتفقان مع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد جاء عن أبى ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول بيت وضع للناس مباركا يصلى فيه الكعبة . قلت [٣] : ثم أى ؟ قال :

---

(١) سورة آل عمران اية ٩٦ ، ٩٧ .

(٢) أخرجة ابن المنذر وابن أبى حاتم كذا فى الدر المنثور ٥٢/٢ .

(٣) القائل أبو ذر صاحب رسول الله صلي الله عليه وسلم .

المسجد الأقصى . قلت : كم بينهما [1] ؟ قال : أربعون عاما [2] »

والبقعة التى بها الكعبة بقعة مشرفة مكرمة فى سائر الأعصار والأزمان ، يؤمها الناس ويتعبدون فيها ، ويطوفون بها ويحجون إليها ،

فعن عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح ، فتح مكة « إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى ، ولم يحل لى إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة [3] » .

وهذا يدل على تكريم هذه البقعة وتشريفها منذ خلق السموات والأرض إلى قيام الساعة أما يدل على قصدها للعبادة فيدل عليه الأحاديث الآتية :

فعن محمد بن كعب القرظى أو غيره قال : حج آدم فلقيته الملائكة فقالوا : بر نسكك يا آدم [4]، لقد حججنا قبلك بألفى عام [5] .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله صلي الله عليه وسلم مرّ بوادى الأزرق [6] فقال : أى واد هذا ؟ فقالوا : هذا وادى الأزرق قال : كأنى أنظر

---

(١) أى كم كان الزمن بين إنشائهما ؟

(٢) أخرجه البخارى في كتاب الأنبياء الباب العاشر منه « باب حدثنا موسى بن اسماعيل ٦/ ٤٠٧ حديث رقم ٣٣٦٦ وفى موضع آخر من نفس الكتاب باب قول الله تعالى « ووهبنا لداوود سليمان » الباب الأربعين حـ ٦ ص ٤٥٨ حديث رقم ٣٤٢٥ .
وأخرجه أيضا مسلم والنسائى وأحمد .

(٣) أخرجه مسلم فى الحج باب تحريم مكة وصيدها ٩٨٦/٢ رقم ١٣٥٣ ، وأخرجه البخارى فى جزاء الصيد باب لا ينفر صيد الحرم ٤٦/٤ رقم ١٨٣٣ . وفى غير هذا الموضع وأخرجه أيضاً النسائى وغيرهم .

(٤) أى تقبل الله حجك .

(٥) أخرجه الشافعى فى المسند حـ ٨ صـــ ٣٧٧ ، المسند مع طبعة الأم طبعة شركة الطباعة الفنية المتحدة ١٣٨١/١٩٦١ . وأخرجه البيهقى فى الدلائل باب ما جاء في حفظ الله تعالى رسوله صلي الله عليه وسلم فى شبيبته عن أقذار الجاهلية ومعائبها حـ ٢ صـ ٤٥ من طريق الشافعى .

(٦) واد بين مكة والمدينة .

إلى موسى عليه السلام هابطا من الثنية (١) وله جُؤَار (٢) إلى الله بالتلبية ، ثم أتى على ثنية هَرْشَى (٣) فقال : أى ثنية هذه ؟ قالوا : ثنية هَرْشَى . قال : كأنى أنظر إلى يونس بن متىً عليه السلام على ناقة حمراء جعدة ، عليه جبة من صوف ، خطام ناقته (٤) خُلْبَةٌ (٥) ، وهو يلبى (٦) .

وعن عروة بن الزبير أنه قال : ما من نبى إلا وقد حج البيت إلا ما كان من هود وصالح (٧) .

قال ابن كثير - بعد ذكر هذا الحديث - وقد ذكرنا حجهما إليه ، والمقصود الحج إلى محله وبقعته وإن لم يكن ثَمَّ بناء .

وهذه الأحاديث تفيد أن الملائكة والأنبياء كانوا يقصدون مكان الكعبة للحج والعبادة .

والكعبة فى الأرض بحيال البيت المعمور الذى في السماء السابعة ، وأيضا بحيال البيت الذى فى كل سماء يتعبد فيه الملائكة ، ويطوفون به .

وأول من بنى الكعبة ابراهيم الخليل وابنه اسماعيل عليهما السلام ، وقبلهما

---

(١) الثنية : القطعة من الجبل تعترض الطريق يحتاج من أردا سلوكها إلى صعودها والنزول فكأنها تثنى السير . وتسمى أيضا العقبة . تاج العروس ١٠ / ٦٢ ، والمعجم الوسيط ١٠٦/١ ، والمعنى منهما باختيار وتصرف .

(٢) الجُؤار بضم الجيم - : رفع الصوت .

(٣) جبل قرب الجحفة .

(٤) أى الحبل الذى تقاد به ناقته .

(٥) أى مصنوع من الليف .

(٦) أخرجه مسلم في الإيمان باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم ١٥٢/١ رقم ١٦٦ وأخرجه أحمد فى المسند .

(٧) أخرجه البيهقى فى الدلائل باب ما جاء في بناء الكعبة بأطول من هذا جـ ٢ صـ ٤٦ من طريق ابن اسحاق . وذكره ابن كثير فى السيرة ٢٧٢/١ من طريق ابن اسحاق أيضاً .

كان بقعة ، ولم يكن بناء [١] . قال تعالى « وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم [٢] »

أرشد الله سبحانه وتعالى خليله ابراهيم إلى مكان البيت ، وسلمه له ، وعهد إلى ابراهيم واسماعيل ببنائه ، بناء لا يخالطه شيء مما لا يرضى الله سبحانه ، يبنونه باسم الله ، يرجون بذلك رضوانه سبحانه لا شريك له ، كما قال سبحانه وتعالى .

« وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود [٣] »

وقال سبحانه « وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود [٤] »

وإذا كان الأنبياء كانوا يأتون بقعة البيت حاجين ثم يعودون فإن الله سبحانه وتعالى أراد لنبيه إسماعيل عليه السلام أن يعيش من بدء حياته فى جوار البيت الحرام ، ليحظى بالكثير من الخير ، ومن بركات البيت ، من جواره وكثره العبادة فيه ، وأكرمه الله سبحانه وتعالى فى هذا الجوار كرما واسعا ، وجعل من ذريته خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى نشأ فى أحضان الكعبة ، وشرب من ماء زمزم من بدء ظهوره إلى الوجود ، فلما بعثه الله نبيا كان البيت الحرام قبلته وأمته أحياء وأمواتا ، يحجون إليه ، ويعمرونه دائماً بالعبادة والطاعة .

---

(١) ورد فى حديث مرفوع أن أول من بنى الكعبة آدم عليه السلام ، وهذا الحديث أخرجه البيهقى فى الدلائل باب ما جاء فى بناء الكعبة حـ ٢ صـ ٤٤ ، ٤٥ لكنه حديث ضعيف في إسناده ابن لهيعة ، كذا قال ابن كثير فى البداية باب ذكر شيء مما وقع من الحوادث في زمن الفترة حـ ٢ صـ ٢٦٥ .
وهناك عدة أقوال في أول من بنى الكعبة اكتفيت بذكر أصحها .

(٢) سورة البقرة آية ١٢٧ .

(٣) سورة الحج آية ٢٦ .

(٤) سورة البقرة آية ١٢٥ .

فقبل أن يبنى ابراهيم البيت أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون اسماعيل قد تربى فى هذا المكان ، وفى ذلك تمهيد لبناء البيت ، الذى هو تمهيد لظهور خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم .

لقد أمر الله سبحانه وتعالى إبراهيم أن يذهب بزوجته هاجر وابنه اسماعيل إلى مكان البيت ، وأن يسكنها بجوار البيت ، فذهب ابراهيم ممتثلاً وترك زوجته وابنه وعاد إلى بيته فى الشام مناجيا ربه « ربنا إني أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون [1] »

وكان من شأنهما فى هذا المكان أن أخرج الله سبحانه وتعالى لهما ماء زمزم . وهو ماء له من الخصائص ما ليس لأى ماء آخر ، فهو شراب يروى من شرب منه ، وهو قوت يقتات به من شربه ، وهو شفاء من كل داء ، وهو مبارك من شربه بنية كذا رزقه الله ذلك .

فعن أبى ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى شأنها - شأن زمزم - « إنه طعام طعم ، وشفاء سقم [2] »

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : ماء زمزم لما شرب له ، إن شربته تستشفى به شفاك الله ، وإن شربته ليشبعك أشبعك الله ، وإن شربته لقطع ظمئك [3] قطعه الله ، وهى هزمة جبريل [4] وسقيا الله إسماعيل [5] .

---

(١) سورة ابراهيم آية ٣٧ .

(٢) أخرجه مسلم فى فضائل الصحابة باب من فضائل أبى ذر ، ضمن حديث طويل مقتصرا على الجملة الأولى ١٩٢٢/٤ وأبو داود الطيالسى صـ ٦١وراجع القِرى لقاصد أم القرى صـ ٤٨٦ ففيه خير كثير .

(٣) عطشك .

(٤) أى أن ماء زمزم ظهر عندما غمز جبريل الأرض برجله .

(٥) أخرجه الدار قطنى فى سننه كتاب الحج باب المواقيت ٢٨٩/٢ حديث ٢٣٨ ، وأخرجه سعيد بن منصور موقوفا ، كذا فى القرى صـــ ٤٨٨ وهو عند الحاكم ، أخرجه فى مستدركه فى كتاب المناسك باب ماء زمزم لما شرب له ١ /٤٧٣ وقال : صحيح الإسناد إن سلم من الجارودي ، وقال فى الفتح ٤٩٣/٣ : رجاله موثقون إلا أنه اختلف فى وصله وإرساله ، وله شاهد من حديث جابر أخرجه الشافعى وابن ماجة وأحمد مرفوعا « ماء زمزم لما شرب له » .

وكان إبن عباس إذا شرب ماء زمزم قال : اللهم أسألك علما نافعا ، ورزقا واسعا ، وشفاء من كل داء [١] .

وقصة مجيء ابراهيم الخليل بزوجته وابنه إلى مكان البيت ذكرها البخارى فى صحيحه ، وأسوقها منه .

فعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال [٢]: أول ما اتخذ النساء المِنْطَق [٣] من قِبَل [٤] أم اسماعيل اتخذت مِنْطقا لتُعَفِّىَ أثرها [٥] على سارة [٦] ، ثم جاء بها ابراهيم وبابنها اسماعيل ، وهى ترضعه ، حتى وضعها عند البيت عند دَوْحةٍ [٧] فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم ففىَّ ابراهيم منطلقا [٨] ، فتبعته أم اسماعيل ، فقالت : يا ابراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذي ليس فيه إنس ولا شيء ، فقالت له ذلك مرارا ، وجعل لا يلتفت إليها . فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذن لايُضَيِّعُنا [٩] . ثم

---

(١) أخرجه الحاكم فى الموضع السابق .

(٢) الكلام الآتى من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس من كلام ابن عباس كما هو ظاهر النص ، ذلك أنه فيه من الأمارات ما يفيد أنه من كلام رسول الله صلي الله عليه وسلم ، وسيصرح ابن عباس بعد ذلك بإضافته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٣) المنطق بكسر الميم وسكون النون وفتح الطاء - هو ما يربط على الوسط .

(٤) أى هاجر أم اسماعيل هى أول من استعمل المنطق ، وعنها أخذه النساء .

(٥) أى لتطمس آثار مشيها ، ذلك أنها ربطت المنطق وأرخت منه قماشا يجر على الأرض .

(٦) زوجة ابراهيم الخليل ، وكانت لا تنجب ، فطلبت من الخليل عليه السلام أن يتزوج هاجر - جاريته - فتزوجها فلما أنجبت اسماعيل غارت سارة وتوعدت هاجر ، فلما علمت بأن الخليل سينقلها وابنها إلى مكان آخر اتخذت المنطق حتى لا تعرف سارة الجهة التى ساروا إليها ، وسارة هذه رزقها الله الذرية بعد هذا فأنجبت اسحاق عليه السلام .

(٧) الدوحة : بفتح الدال المهملة - التى بدون نقطة - وسكون الواو الشجرة الكبيرة .

(٨) أى ولى ابراهيم راجعا .

(٩) فى الرواية الثانية لهذا الحديث عند البخارى - والتى تلى التى هنا - أنها قالت : يا ابراهيم إلي من تتركنا ؟ قال : إلي الله . قالت : رضيت بالله .

رجعت . فانطلق ابراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهولاء الكلمات ورفع يديه فقال « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع - حتى بلغ يشكرون [١] » وجعلت أم إسماعيل ترضع اسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نَفِد ما في السقاء [٢] عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال : يتلبط [٣] - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا ، فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا ، حتى إذا بلغت الوادي رفعت طَرَف درعها ، ثم سعت سعي الإنسان المجهود [٤] حتى جاوزت الوادي ، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا ، فلم تر أحدا ، ففعلت ذلك سبع مرات . قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم : فذلك سعي الناس بينهما ، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : صَهٍ - تريد نفسها[٥] - ثم تسمَّعت أيضا فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث [٦]

---

(١) هكذا في رواية البخاري ذكر بداية الآية ونهايتها ، وهذه الآية من سورة ابراهيم ورقمها سبعة وثلاثون ونصها « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

(٢) أي انتهى ما كان في السقاء من ماء .

(٣) أي يتمرغ ويضرب الأرض . وفي الرواية الثانية عند البخاري « كأنه ينشغ للموت » أي أنه كان يشهق ويعلو صوته وينخفض كالذي ينازع .

(٤) أي الذي أصابه الجهد والمشقة .

(٥) أي أنها قالت لنفسها « صه » أي اسكتي . والمراد : أصغ اصغاء تاما .

(٦) أي إن كان عندك ما تغيثني به فأغثني . وفي رواية على لهذا الحديث : فناداها الملك فقال : من أنت ؟ قالت : أنا هاجر ، أم ولد ابراهيم ، قال : فإلى من وكلكم ؟ قالت : إلى الله . قال : وكلكما إلى كاف . ورواية على أخرجها الطبري بإسناد حسن ، كذا في فتح الباري في شرح الحديث الذي معنا حـ ٦ صـ ٤٠٢ ومعنى وكلكما إلى كاف » أي تركَكما لقادركريم يكفي عباده كل مايهمهم وهو الله سبحانه وتعالى .

فإذا هى بالملك [١] عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه - أوقال بجناحه - حتى ظهر الماء [٢] ، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف . قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم : يرحم الله أم اسماعيل لو تركت زمزم - أو قال : لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عينا معينا [٣] . قال : فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة [٤] ، فإن ها هنا بيت الله ، يبنى هذا الغلام وأبوه [٥] وإن الله لا يضيع أهله [٦] . وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية ، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جُرْهم [٧]- أو أهل بيت من جرهم - مقبلين من طريق كداء [٨] فنزلوا فى أسفل مكة [٩] فرأوا طائرا عائفا[١٠] فقالوا : إن هذا الطائر ليدور علي ماء ، لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماد ، فأرسلوا جَرِيًا [١١] أو جريين فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء ، فأقبلوا - قال : وأم اسماعيل عند الماء - فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ فقالت : نعم ، ولكن لاحق لكم فى الماء . قالوا : نعم . قال ابن عباس قال النبى صلى الله

---

(١) فى رواية البخارى الثانية تسمية الملك وأنه جبريل عليه السلام .

(٢) فى رواية البخارى الثانية « فقال بعقبه هكذا ، وغمز عقبه على الأرض، قال : فانبثق الماء» أى تفجر .

(٣) أى لكانت زمزم عين ماء يخرج ماؤها مندفقا فيجرى على الأرض تراه العيون ، لكنها لما أخذت تحوط عليها وتغرف منها جعل الله ماءها فيها يستخرج بمجهود ، ومستور لا تراه العيون إلا بعد استخراجه .

(٤) أى أن الله سبحانه وتعالى لن يضيعكم .

(٥) فى رواية أخرى « يبينه هذا الغلام وأبوه » .

(٦) أى أهل طاعته ومحبته .

(٧) قبيلة كانت تسكن قريبا من مكة .

(٨) مدخل مكة العلوى .

(٩) أى ساروا حتى نزلوا أسفل مكة .

(١٠) أى يحوم على الماء ويتردد ولا يمضى عنه .

(١١) الجرىّ : الرسول والوكيل والأجير ، والمراد أنهم أرسلوا من يكتشف لهم الأمر ، هل هناك ماء عندما يحوم الطائر أو لا .

عليه وسلم : فألفي ذلك أم اسماعيل [١] وهى تحب الأنس [٢] فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشب الغلام [٣] وتعلم العربية منهم [٤]، وأَنَفْسَهَم [٥]وأعجبهم حين شبّ ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم . وماتت أم اسماعيل ، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد اسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت : خرج يبتغى لنا . ، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بِشَرّ ، نحن فى ضيق وشدة . فشكت إليه . قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه . فلما جاء اسماعيل كأنه آنس شيئا [٦] فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا ، فسألنا عنك فأخبرته ، وسألنى كيف عيشنا ، فأخبرته أنا فى جهد وشدة . قال فهل أوصاك بشىء ؟ قالت : نعم ، أمرنى أن أقرأ عليك السلام ، ويقول : غَيِّر عتبة بابك . قال : ذاكِ أبى ، وقد أمرنى أن أفارقك ، ألحقي بأهلك ، فطلقها ، وتزوج منهم أخرى ، فلبث عنهم ابراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعد فلم يجده ، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت : خرج يبتغى لنا . قال: كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بخير وسعة ، وأثنت

---

(١) ألفى معناها وجد أو لقى ، والمعنى : أن هذا الطلب من جرهم وافق أم إسماعيل .

(٢) بضم الهمزة ضد الوحشة ، ويجوز كسر الهمزة « الإنس » أى تحب الناس والاجتماع معهم .

(٣) هو اسماعيل عليه السلام .

(٤) فى هذا الحديث أن اسماعيل عليه السلام تعلم اللغه العربية من قبيلة جرهم الذين نزلوا معه على ماء زمزم ، وفى حديث ابن عباس عند الحاكم « أول من نطق بالعربية إسماعيل » وفى حديث علي عند الزبير بن بكار بإسناد حسن قال « أول من فتق الله لسانه بالعربية المبينة اسماعيل » وعلي ذلك فلا تعارض بين الحديث الذى معنا وحديث ابن عباس فالمعني أن اسماعيل عليه السلام تعلم العربية من جرهم، ثم مَنّ الله عليه فرزقه من الفصاحة ما ليس عند غيره .

(٥) من النفاسة ، والمعني أنه صار نفيسا فيهم ، أى من أحسن رجالهم وأغلاهم .

(٦) أحس بأن والده قد جاء إلي بيته .

على الله [١]. فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم . قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء . قال اللهم بارك لهم فى اللحم والماء . قال النبى صلى الله عليه وسلم : ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ [٢] ، ولو كان لهم دعالهم فيه ، قال [٣] فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه .قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ، ومُريه يُثبت عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل قال : هل أتاكم من أحد ؟ قالت : نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة - وأثنت عليه - فسألنى عنك فأخبرته فسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير . قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت : نعم ، هو يقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال : ذاك أبى وأنت العتبة ، أمرنى أن أمْسِكَكِ . ثم لبث عنهم ما شاء الله ، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيلُ يَبْرى نبلا [٤] له تحت دوحة [٥] قريباً من زمزم ، فلما رآه قام إليه ، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد [٦] . ثم قال : يا إسماعيل ، إن الله أمرنى بأمر . قال : فاصنع ما أمرك ربك . قال : وتعيننى ؟ قال : وأعينك . قال : فإن الله أمرنى أن أبنى ها هنا بيتا - وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها - قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى . حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له ، فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان « ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم [٧] » قال :

---

(١) أى أنها حمدت الله على نعمه التى أنعم بها عليهم .

(٢) أى لم يكن عندهم حب يأكلونه كالقمح والشعير .

(٣) أى النبى صلى الله عليه وسلم .

(٤) النبل : السهم قبل أن يركب له النصل والريش .

(٥) أى شجرة ، وهذه الشجرة هى التي كان ابراهيم عليه السلام أنزل زوجته هاجر وابنها اسماعيل تحتها أول قدومهما مكة .

(٦) من الاعتناق والمصافحة وتقبيل اليد .

(٧) سورة البقرة آية ١٢٧ .

فجعلا يبنيان حى يدورا حول البيت وهما يقولان « ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم [1] » .

وبينما هما يبنيان وقد وصلا إلى مكان الحجر الأسود ، أراد ابراهيم عليه السلام أن يضع حجرا يكون مُمَيَزاً عن بقية الأحجار ، ليبدأ الناس الطواف منه ، وتحديد هذا المكان للحجر الذى يكون بداية الطواف إنما يكون بوحى من الله تعالى ، أعلمه الله مكان الحجر الذى يبدأ الطائفون منه أشواطهم ، فطلب من ابنه حجرا فجاء بحجر فلم يرضه ، فذهب إسماعيل يبحث عن حجر آخر ، وبينما هو يبحث إذ جاء جبريل بالحجر الأسود فوضعه ابراهيم فى مكانه ، فلما جاء إسماعيل وجد هذا الحجر قد ركب ، فسأل والده : من أين هذ الحجر ؟ فأخبره أنه جاء به جبريل عليه السلام .

فعن خالد بن عرعرة قال : سأل رجل عليا - رضى الله عنه - عن " أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا " هو أول بيت وضع في الارض ؟ قال : لا ، ولكنه أول بيت وضع فيه البركة والهدى ومقام ابراهيم ، ومن دخله كان آمنا وإن شئت أنبأتك [2] كيف بناؤه : إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى إبراهيم عليه السلام أن ابن لى بيتا فى الأرض ، فضاق به ذرعاً [3] ، فأرسل الله عزوجل إليه السكينة ، وهى ريح خجوج [4] لها رأس ، فاتبع أحدهما صاحبه [5] حتى انتهت ثم تطوقت إلى موضع البيت تطوق الحية ، فبنى إبراهيم ، فكان يبنى هو سافا [6] كل يوم ،

---

(١) أخرجة البخارى فى كتاب الأنبياء باب يزفون : النسلان فى المشى حـ ٦ صـ ٣٩٦ رقم ٣٣٦٤ . وفى غير هذا الموضع مختصرا عما هنا .
(٢) اى أخبرتك .
(٣) أى شق عليه هذا الامر واشتد ، لانه لا يعرف مكان البيت .
(٤) أى شديدة .
(٥) أى سار إبراهيم مع الريح .
(٦) الساف فى البناء كل صف فيه ، فالسطر فى الجدار ساف ، والسطران سافان ، والثلاثة ثلاثة آسف ، وألف الساف فى الاصل واو . تاج العروس ٦ / ١٤٧ .

حتي إذا بلغ مكان الحجر، قال لابنه : ابغنى حجرا (١)، فالتمس ثمّ حجرا حتي أتاه به ، فوجد الحجر الاسود قد ركب ، فقال له ابنه :من أين لك هذا ؟ قال : جاء به من لم يتكل على بنائك، جاء به جبريل عليه السلام من السماء ، فأتمه (٢).

وعن الشعبى قال : لما أُمر إبراهيم أن يبنى البيت وانتهى إلى موضع الحجر قال لإسماعيل : ائتنى بحجر ليكون علماً للناس يبتدئون منه الطواف، فأتاه بحجر فلم يرضه ، فأتى ابراهيم بهذا الحجر، قال : أتانى به من لم يكلنى على حجرك (٣).

وواضح من حديث على أن جبريل عليه السلام جاء بالحجر من السماء ، وهذا يوضحه حديث ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضا من اللبن ، فسودته خطايا بنى آدم (٤) » فهذا الحديث يبين أن الحجر الأسودقد جيء به من الجنة .

وفى فضل الحجر أيضا ورد حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحجر « والله ليبعثنه الله يوم القيامة له عينان يبصر بهما ، ولسانا ينطق به يشهد على من استلمه بحق (٥) » فهذا الحديث يفيد أن الحجر يكون شاهداً لمن استلمه - أي وضع يده عليه وقبّلهَا - يشهد له

---

(١) أى ابحث عن حجر .

(٢) أخرجه لحاكم فى المستدرك فى كتاب التفسير باب شرح أول بيت وضع للناس ص٢ ، ص ٢٩٢ ، ٣٩٢ وفى المناسك باب وضع الرسول صلى الله عليه وسلم الحجر الأسود مكانه ١ / ٤٥٨ . وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأقره الذهبى . وأخرجه البيهقى فى الدلائل باب ماجاء فى بناء الكعبة حـ٢ . صـ٥٥ ، ٦٥ .

(٣) أخرجه الأزرقى فى أخبار مكة باب ماذكر من بناء ابراهيم عليه السلام الكعبة حـ ١ صـ ٦٢ ، ٦٣ .

(٤) أخرجه الترمذى فى الحج باب ما جاء في فضل الحجر الأسود ، والركن و المقام حـ ٣ صـ ٦١٦ تحفة الأحوذى .

(٥) أخرجه الترمذى في الحج باب . . . ، وهو قبل نهاية كتاب الحج ببابين حـ ٤ صـ ٣٤ ،٣٥ رقم ٩٦٨ تحفة وقال - أى الترمذى - هذا حديث حسن . وأخرجه الحاكم فى المستدرك حـ ١ صـ ٤٥٧ وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى . وأخرجه ابن حبان ، كذا فى موارد الظمأن كتاب الحج باب ما جاء فى الحجر الأسود والمقام صـ ٢٤٨ رقم ١٠٠٥ .

بخير ، يعرف كَلّ من استلمه ، إذ يخلق الله سبحانه وتعالى له عينين يبصر بهما ، ولسانا ينطق به . والله علي كل شيء قدير ، فالقرآن يشفع ، والصيام يشفع ، والحجر يشفع .

ولما ارتفع البناء جاء إسماعيل بحجر فوضعه لوالده يقوم عليه ويبنى ، وكان ينقل له هذا الحجر إلى حيث يريد البناء ، فسمى هذا الحجر بالمقام لقيام ابراهيم عليه ورسمت قدما ابراهيم فيه ، وظل رسمهما إلى صدر الاسلام وهذا الحجر الذى هو مقام ابراهيم كان ملصقا بحائط الكعبة ، وظل كذلك إلى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فأخره عن البيت لئلا يشغل المصلون عند الطائفين بالبيت ، ووافق الصحابة عمر فى ذلك (١) .

وفى فضل المقام ورد حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم " إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما ، ولو لم يطمس نورهما لأضاءتا مابين المشرق والمغرب (٢) .

---

(١) راجع في موضوع مقام ابراهيم تاريخ مكة للأزرقى فى الموضع السابق صـ٦٤ ، ٦٥ والبداية لابن كثير باب ذكر بناية البيت العتيق حـ ١ ، صـ ١٧٨ .

(٢) أخرجه الترمذى فى الحج باب ماجاء فى فضل الحجر الأسود والركن ،والمقام جـ٣ صـ٦١٨ رقم ٨٧٩ تحفة الاحوذى وقال : يروى عن عبد الله بن عمرو موقوفا . ثم قال : وهو حديث غريب ومجمل القول أن هذا الحديث يروى مرفوعا - أى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - وموقوفا - أى من كلام عبد الله بن عمرو ، والوقف أشبه كذا قال أبو حاتم .

قلت وفي إسناده رجاء بن صبيح أبو يحى وهو ضعيف / راجع ميزان الاعتدال ٢ / ٤٦ رقم ٢٧٦٣ .

وأخرجه الحاكم فى المناسك باب الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة ١ / ٤٥٦ من طريقين قال بعد الطريق الأول : هذا حديث تفرد به أيوب بن سويد عن يونس . وأيوب ممن لم يحتجابه إلا أنه من أجلة مشايخ أهل الشام . وتعقبه النهبى بان أيوب ضعفه أحمد . وذكر الرواية الثانية على أنها شاهد للأولى وتعقبه النهنى بأن فيها رجاء أبو يحى ليس بالقوى .

وأخرجه احمد فى المسند ٢ / ٢١٣ ، ٢١٤ ، وفى إسناديهما رجاء المذكور .

واخرجه ابن حبان ، كذا فى موارد الطمآن كتاب الحج باب ماجاء فى الحجر الاسود والمقام صـ ٢٤٨ رقم ١٠٠٤ ، وفيه رجاء المذكور .

وحديث أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة [1] »

وأتم إبراهيم وإسماعيل بناء البيت ، وهما يقولان " ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم [2] " .

وأمر الله سبحانه وتعالى إبراهيم الخليل أن ينادى فى الناس بالحج قال سبحانه " وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق [3] .

ثم إن اسماعيل رأى كسوة الكعبة فكساها وهو أول من كساها ، فظلت حتى كساها عدنان ، ثم كساها تبع كسوة كاملة ، كساها الأنطاع ثم كساها الوصائل [4] .

ومضى دهر على بناء إبراهيم الخليل عليه السلام ، فانهدم البناء فبنته العمالقة، ثم انهدم فبنته جرهم ، ثم انهدم فبنته قريش ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ شاب ، ثم بناه ابن الزبير وأعاده إلى أصله ، ثم غيرّ فيه عبد الملك ابن مروان .

فعن خالد بن عرعرة عن على بن أبى طالب - زيادة فى إحدى روايات الحديث السابق - قال : فمر عليه الدهر فبنته العمالقة ، ثم انهدم فبنته جرهم ، ثم انهدم فبنته قريش . ورسول الله يومئذ رجل شاب . فلما أرادوا أن يرفعوا الحجر الأسود

---

(١) أخرجه الحاكم فى المناسك باب الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة ١ / ٤٥٦ أخرجه شاهدا لحديث ابن عمرو السابق وتعقبه الذهبى بأن فيه داوود بن الزبرقان قال فيه ابو داوود متروك . قلت : رحم الله الذهبى فعبارة أبى داوود ليست كذلك ، وقال الأئمة فيه أخف من ذلك !! بل إن الذهبى نفسه قال فى الكاشف ١ / ٢٨٨ رقم ١٤٥١ ضعفوه.

(٢) سورة البقر آية ١٢٧ .

(٣) سورة الحج آية ٢٧ .

(٤) الوصائل : جمع وصيلة وهى ثوب أحمر مخطط يمانى . وفى ذلك - أول من كسا الكعبة - راجع فتح البارى حـ٣ صـ٤٥٨ فصل فى معرفة بدء كسوة البيت . ذكر ذلك فى شرح باب كسوة الكعبة من كتاب الحج . وراجع تاج العروس مادة "وصل" حـ ٨ صـ١٥٦ .

اختصموا فيه فقالوا نحكم بيننا أول رجل يخرج من هذه السكة ، فكان رسول الله عليه وسلم أول من خرج عليهم فقضى بينهم أن يجعلوه فى مرط ثم ترفعه جميع القبائل كلهم [1]

وهذا إجمال يهمنا فيه فى هذا الموضع أن نفصل فى بناء قريش الذى شارك فيه رسول الله عليه وسلم قبل بعثته الشريفة .

بناء قريش :

ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخامسه والثلاثين من عمره عزمت قريش على هدم الكعبة وإعادة بنائها .

* فما سبب ذلك - هدم الكعبة وإعادة بنائها - ؟
* وكيف تم ؟
* ومادور رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا البناء ؟

سبب الهدم وإعادة البناء :

حاصل ماتفيده الروايات أن حريقا كان قد شب فى ثياب الكعبة فأحرقها وأضعف بنيان الكعبه حتى تصدعت ، ثم جاء سيل عارم فدخل الكعبة ، وصدع جدرانها . فمن هنا رأت قريش أن تهدم هذا البنيان ، وتبنيها من جديد .

واتفقوا فيما بينهم على منهج يتبعونه فى البناء وهو :

* أن لايدُخلوا فى بنائها شيئا من حرام ، فلا يُدخلوا فى بنائها مالا أخذ من ربا ولا مالا أخذ ظلما من أحد [2] .

* أن يبنوها بناء قويا ، فبدل البناء السابق والذى كان حجارة بعضها على بعض ، دون شئ بينها يربطها ، وبدل أن كانت مجرد جدران بلا سقف ، بدل ذلك

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة فى باب ماجاء فى بناء الكعبة ٢/ ٥٦ وأخرجه الحاكم فى المناسك باب وضع رسول الله عليه وسلم الحجر الأسود مكانه عند بناء البيت ١ / صـ٤٥٨ ، ٤٥٩ وقال صحيح على شرط مسلم ، وأقره الذهبى . وذكره فى الدر المنثور ٥٢/٢ وعزاه لابن المنذر وابن ابى حاتم والبيهقى .

(٢) أخرجه ابن اسحاق صـ١ ، حـ١٩٤ وذكره فى فتح البارى ١٤٦/٧ وعزاه لابن اسحاق وموسى ابن عقبة .

جعلوا البناء قويا فوضعوا بين الحجارة مايربطها ، واستخدموا الأخشاب فى تقوية الجدران ، وسقفوها ، وجعلوا الباب عاليا حتى لا يدخلها السيل .

فعن سعيد بن المسيب بن حزن عن أبيه عن جده قال : جاء سيلٌ فى الجاهلية فكسا مابين الجبلين . قال سفيان [١] : ويقول : إن هذا الحديث له شأن [٢] .

والمراد أن السيل ملأ مابين الجبلين اللذين فى جانب الكعبة ، وهو حديث له شأن أى أن هذا السيل بداية لسيول ستأتى [٣] ، وعليه فالحال يقتضى أن يكون بناء الكعبة جيدا قويا .

* أن يبنوها محصنة ، فبدل أن يكون البناء تسعة أذرع ، يُصْعَد بسهولة ، وبدل أن يكون بابها على الأرض يدخلها الداخل بيسر ، بدل ذلك زادوا فى ارتفاعها حتى جعلوه تسعة عشر ذراعا ، أى ضعف ما كان ، ورفعوا الباب عن الأرض ، حتى لا يدخلها أحد إلا بإذنهم .

فعن أبى الطفيل قال : كانت الكعبة فى الجاهلية مبنية بالرضم [٤] ليس فيها مدر[٥]، وكانت قدر ما يفتحها العناق ، وكانت ثيابها توضع عليها تسدل سدلا ، وكانت ذا ركنين كهيئة هذه الحلقة [٦] 

وهذه القوة فى البناء جاءت على حساب المساحة ، فلقد حرصوا على قوة البناء وارتفاعه أكثر من حرصهم على إقامته على قواعد ابراهيم الخليل عليه السلام ،

---

(١) احد رجال اسناد البخارى .

(٢) أخرجه البخارى فى مناقب الأنصار باب أيام الجاهلية ٧ / ١٤٧ حديث رقم ٣٨٣٣ .

(٣) راجع فتح البارى ٧ / ١٥٠ .

(٤) الحجارة والصخور الكبيرة .

(٥) الطين اللزج المتماسك .

(٦) أخرجه عبد الرازق فى المناسك باب بنيان الكعبة ١٠٢/٥ حديث رقم ٩١٠٦ . ومن طريقه الحاكم والطبرانى ، كذا فى الفتح ٤٤١/٣ . وذكره فى مجمع الزوائد ٢٨٩/٣ وقال : رواه الطبرانى فى الكبير بطوله ، وروى أحمد طرفا منه ، ورجالهما رجال الصحيح .

فلما جمعوا ما أمكنهم من أحجار البناء وأخشابه وجدوا أن هذا لا يرفع البناء إلى الحد المطلوب إذا جعلوه على مساحته التى كان عليها ، فرأوا أن يتركوا بعض المساحة فى سبيل أن يكون البناء حصينا ضد السيول والخصوم .

فعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن قومك استقصروا من بنيان البيت ، ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدت ما تركوا ، فإن بدا لقومكِ من بعدى أن يبنوه فهلمى (١) لأريك ما تركوا منه . فأراها قريبا من سبعة أذرع . وهل تدرين لم كان قومُكِ رفعوا بابها ؟ قالت : قلت : لا . قال « تعززًا أن لا يدخلها إلا مَنْ أرادو ، فكان الرجل إذا هو أراد أن يدخلها يدعونه يرتقى ، حتى إذا كاد أن يدخل دفعوه فسقط »(٢).

فواضح من هذا الحديث أن قريشا لم تبن الكعبة على أساسها الذى كان قد وضعه الخليل عليه السلام ، وأنهم تركوا من مساحة البيت الأصلية ما بين ستة أذرع إلى سبعة ، وذلك من جهة حجر إسماعيل (٣) ومن هنا لا يجوز للطائف بالبيت أن يمر من الفرجة التى بين الكعبة والجدار المحيط بالحجر ، لأنه لا يكون قد طاف حول البيت كله .

ويلاحظ الدارس لطوافه صلى الله عليه وسلم حول البيت أنه صلى الله عليه وسلم كان يستلم (٤) الركن اليمانى والحجر، أما الركنان اللذان يليان حجر إسماعيل فلم يستلمهما صلي الله عليه وسلم . ولقد بين عبد الله بن عمر -رضى الله عنهما - سر ذلك فقال : ما أرى (٥)رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك

---

(١) أى تعال .

(٢) أخرجه مسلم فى الحج باب نقض الكعبة وبنائها ٩٧١/٢ ، ٩٧٢ حديث رقم ٤٠٣ .

(٣) وراجع الفتح ٤٤٣/٣ ففيه تحقيق طيب .

(٤) الاستلام : اللمس باليد أو بالشفتين للتقبيل .

(٥) بضم الهمزة : أى ما أظن .

استلام الركنين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يتمم على قواعد ابراهيم [(١)].

اشتراكه صلى الله عليه وسلم فى هذا البناء :-

شارك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا البناء ، فكان يحمل معهم الأحجار ، وكان كل رجلين ينقلان الحجارة معا ، فكان صلي الله عليه وسلم وعمه العباس .

ورأى العباس - رضى الله عنه - أن يخلع إزاره [(٢)] ويضعه على كتفه تحت الحجر ، حتى يقل تأثير الحجر على كتفه ، وهذا وإن كان فيه كشف عورة ، فإنه رأى أن هذا يحتمل فى فترات البعد عن الناس ، فإذا اقترب من الناس لبس الإزار . فعل العباس ذلك ، وطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل الشيء نفسه ، وفعلا استجاب صلى الله عليه وسلم لطلب عمه العباس ، وما أن فعله حتى وقع مغشيا عليه ، ذلك لأن هذا لا يليق به صلى الله عليه وسلم ، فأخذ إزاره فلبسه ، ولم يتعر بعد ذلك إلا فى حالة الاغتسال .

فعن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - قال : لما بُنيت الكعبة ذهب النبي صلى الله عليه وسلم وعباس ينقلان الحجارة ، فقال عباس للنبى صلي الله عليه وسلم : اجعل إزارك على رقبتك يقك من الحجارة . فخر إلى الأرض ، و طمحت عيناه إلى السماء ، ثم أفاق فقال : إزارى إزارى ، فشد عليه إزاره [(٣)] »

وعن العباس بن عبد المطلب قال : كانت ننقل الحجارة إلى البيت حين كانت قريش تبنى البيت ، فانفردت قريش رجلان رجلان ينقلان الحجارة ، وكانت النساء

(١) أخرجه البخارى فى الحج باب فضل مكة وبنيانها حـ ٣ صـ ٤٣٩ رقم ١٥٨٣ .

(٢) الإزار هو الثوب الذى يستر النصف الأسفل من البدن .

(٣) أخرجه البخارى فى الصلاة باب كراهية التعرى فى الصلاة ٤٧٤/١ رقم ٤٦٤ ، وفى الحج باب فضل مكة وبنيانها ٤٣٩/٣ رقم ١٥٨٢ ، وفى مناقب الأنصار باب بنيان الكعبة ١٤٥/٧ رقم ٣٨٢٩ ولفظه الذى هنا .

تنقل الشِّيد [١]، فكنت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم ننقل الحجارة على رقابنا، وأزرنا تحت الحجارة ، فإذا غشينا الناس ائتزرنا ، فبينا أنا أمشى ومحمد صلي الله عليه وسلم أمامى ليس عليه إزار ، خر محمد صلى الله عليه وسلم فانبطع ، فألقيت حجرى وجئت أسعى ، فإذا هو ينظر إلى السماء فوقه ، قلت : ما شأنك ؟ فقام فأخذ إزاره و قال : نهيت أن أمشى عريانا ، قال : فكنت أكتمها الناس مخافة أن يقولوا مجنون ، حتي أظهر الله نبوته [٢] .

ومن هذين الحديثين يتضح أنه صلى الله عليه وسلم شارك فى بناء الكعبة ، وكان يحمل الحجارة على كتفه ، فلما فعل مالا يليق بالمقام الذى يعده الله له ، نبهه الله إلى ذلك ، فلم يفعل هذا بعد هذه المرة .

اشتراك آخر:

لما وصلت قريش إلى موضع الحجر اختلفوا فيمن يضع الحجر ويحظى بهذا الشرف واختلفوا فى ذلك اختلافا شديدا ، حتى أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من حرب ضروس ، مكثوا على ذلك أربع ليال أو خمسا ، أعدوا عدة القتال ، وتحزبوا أحزابا متناحرة ، وكانت هذه الحرب ثقيلة علي نفوس الكثيرين فإنها ستقع فى أرض الحرم ! ! ! ومن هنا اقترح أبو أمية بن المغيرة المخزومى [٣] أن يلجأوا إلى التحكيم ، فيحكِّموا بينهم أول من يدخل عليهم من باب المسجد [٤] فارتضى

---

(١) ما يطلى به الحائط من الجص ونحوه .

(٢) ذكره فى مجمع الزوائد ٣/٢٨٩ ، ٢٩٠ وقال : رواه الطبرانى فى الكبير والبزار بنحوه ، وفيه قيس ابن الربيع وثقه شعبة والثورى والطيالسى وضعفه جماعة . وهو عند البزار من طريقين الأول منهما ليس فيه قيس بن الربيع - الذى ضعفه جماعة - راجع كشف الأستار كتاب الحج باب فى بناء الكعبة ٢/٤١ حديث رقم ١١٥٨ و١١٥٩ .

(٣) هو أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وكان يومئذ أسنّ قريش كلها / سيرة ابن هشام ١/١٩٧ عيون الأثر ١/٥٢ البداية والنهاية ١/٣٢٧ .

(٤) هو باب بنى شيبة - كما جاء فى رواية الحاكم عن علي - ، وكان يقال له فى الجاهلية : باب بنى عبد شمس ، ويقال له الآن : باب السلام وهو ثلاثة منافذ / راجع كتاب الدين وتاريخ الحرمين الشريفين لعباس كرارة صـ ١١١ .

الجميع ذلك ، وانتظر الجميع فإذا الداخل محمد صلى الله عليه وسلم فارتضوه جميعا ، ولم يتوان أحد فى إعلان الموافقة على حكمه صلى الله عليه وسلم ، لما عرف به من كريم الأخلاق ، وسداد الرأى . وأخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحالهم ، فطلب صلى الله عليه وسلم ثوبا فوضع فيه الحجر ، وطلب رجلا من كل بطن [١] فرفعوا جميعا الثوب حتى موضع الحجر ، فأخذه صلي الله عليه وسلم ووضعه فى مكانه ، ووقى الله به قريشا والحرم حربا ما كان يعلم نهايتها لو وقعت إلا الله تبارك وتعالي .

فعن السائب بن عبد الله أنه كان فيمن يبنى الكعبة فى الجاهلية ، قال : ولى حجر أنا نحتُّه بيدى أعبده من دون الله تبارك وتعالى ، فأجىء باللبن الخاثر [٢] الذى أنفسه على نفسي [٣] فأصبه عليه ، فيجىء الكلب فيلحسه ، ثم يشغر [٤] فيبول . فبنينا حتى بلغنا موضع الحجر [٥] ، وما يرى الحجر أحد ، فإذا هو وسط حجارتنا مثل رأس الرجل ، يكاد يتراءى منه وجه الرجل . فقال بطن من قريش نحن نضعه ، وقال آخرون نحن نضعه ، فقالوا : اجعلوا بينكم حكما . قالوا : أول رجل يطلع من الفج [٦] . فجاء النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : أتاكم الأمين ، فقالوا له فوضعه فى ثوب ، ثم دعا بطونهم فأخذوا بنواحيه معه ، فوضعه هو صلى الله عليه وسلم [٧] .

---

(١) البطن أقل من القبيلة .

(٢) الغليظ ، أى الذى ليس فى سيولة الحليب ، ولكن فيه ثخانة .

(٣) أى أبخل به على نفسى .

(٤) يرفع رجله .

(٥) أى الحجر الأسود .

(٦) الطريق .

(٧) أخرجه أحمد ٤٢٥/٣ وذكره فى مجمع الزوائد ٢٩١/٣ وقال : رواه أحمد وفيه هلال بن جناب - والصواب خباب - وهو ثقة ، وبقية رجاله رجال الصحيح . وذكره أيضا ٢٢٩/٨ وأحال على ما تقدم . وأخرجه الحاكم - وصححه على شرط مسلم وأقره الذهبى فى المناسك باب وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم الحجر الأسود مكانه عند بناء البيت ٤٥٨/١ ، وأخرج له شاهدا عن على بن أبى طالب ، وصححه على شرط مسلم وأقره الذهبى أيضا ، وقد تقدم صـ

وفى رواية « فقالوا هذا الأمين ، وكانوا يسمونه فى الجاهلية الأمين . فقالوا : يا محمد قد رضينا بك . . . [(١)] »

ومن هنا يتضح أنه صلى الله عليه وسلم اشترك فى بناء البيت الحرام اشتراكا عمليا ، فكان ينقل الحجارة معهم واشترك اشتراكا آخر يفوق الأول ، إذ هو اشتراك قيادى ، حينما احتكم الجميع إليه فحكم حكما ارتضاه الجميع ، وسَلِم الحرم برأيه من حرب شعواء ، ونجت قريش بما وفقه الله له من الرأى من حرب يعلم الله وحده كما كانت ستستمر

وهذا الاشتراك الأخير يبين لنا عددا من صفاته صلي الله عليه وسلم منها :

* تقدير الجميع لسموه الخلقى ، حتى اعترفوا أنه الأمين ، الأمين فيما يسند إليه ، الأمين الذى لا يحابى ولا يجامل .

* ثقة الجميع فى سداد رأيه ، حتى وافقوا أن ينزلوا على حكمه .

* سداد رأيه صلى الله عليه وسلم فقام على الفور بما أنهى المشكلة ، وأرضى الجميع . وما كانوا يرجعون عن الحرب بمثل هذا اليسر ، سبحان من ألهمه الرشد ، وجعل الجميع يقبله .

* قوة شخصيته صلى الله عليه وسلم ، حتى قاد قومه فى موقف من أدق المواقف ، إذ إنه يتعلق بالكعبة وبالحرام ، وفى ذلك مجدهم وشرفهم .

ولولا قوة شخصيته صلى الله عليه وسلم ما انتهى الإشكال ، فحينما حمل زعماؤهم الحجر على الثوب لم تنته المشكلة ، وإنما انتقلت هى هى لكن من مكان إلى مكان ، فبعد رفعهم الحجر بقى أيضا من يحمله من على الثوب ليضعه مكانه ؟ المشكلة باقية ، لكنه صلى الله عليه وسلم بقوة شخصيته رأى الجميع قد شارك ، ولا بأس أن يزيح هو الحجر من على الثوب إلى مكانه ، ولم يكن القوم

---

(١) هى رواية الحاكم لهذا الحديث التى خرجتها فى الهامش السابق .

حرفيين ، فقبلوا هذا الحكم وهذا التصرف منه صلى الله عليه وسلم . وتم وضع الحجر في مكانه ، واستمر البناء حتى كمل ، ونجى الناس من حرب مدمره باتباعهم رأيه صلى الله عليه وسلم . وهذا قبل بعثته ، فما بالك بعد بعثته ؟ إنه رحمة الله المهداة ، والسراج المنير ، صلى الله عليه وسلم وعلي آله وأصحابه أجمعين فاتباعه والاقتداء به سبيل السعادة فى الدنيا والآخرة .

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين

والحمد لله رب العالمين ،

الفهرس

تابع الفهرس

والحمد لله رب العالمين ،